الموازنة بين الشعراء

تأليف

د. زكي مبارك

الكتاب: الموازنة بين الشعراء

الكاتب: د. زكي مبارك

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

مبارك ، زكي
الموازنة بين الشعراء/ د. زكي مبارك
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٥٢ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ١٤٦ – ٩٩١ – ٩٧٧- ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٩٣٧ / ٢٠٢١

الموازنة بين الشعراء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة الطبعة الثانية

محمد زكي عبد السلام مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد: فهذا كتاب «الموازنة بين الشعراء» أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفدوا نسخ الطبعة الأولى في أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عددًا من السنين.

أقدم إلى القراء هذا الكتاب، وما أنكر أني به مفتون، فقد أنشأت فصوله، وأنا في غاية من عافية الذوق، وشباب القلب، وعنفوان الروح. فجاء مجدول الحقائق، مصقول الأضاليل، وفي الأدب الحق هدى وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في ربيع سنة ١٩٢٥، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة – وهو نحو مئتي صفحة – أنشئ في ربيع سنة ١٩٣٦، فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل، وإن كنت أعلم علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق، ومن أزهدهم في اللغو والفضول.

هذا كتابي أقدمه بيميني وأنت يا رباه – تباركت وتعاليت – تعلم أني خدمت به لغة القرآن. ولم يبق غيرك – يا رباه – من أنتظر منه حسن الجزاء.

وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيرًا

الفصل الأول

أهواء النقاد

١

فطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين طهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء.

وليست الموازنة إلا ضربًا من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان: فهي تتطلب قوة في الأدب، وبصرًا بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد: فوازنوا بين امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبحتري في الدولة العباسية، وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم، أو عاصرهم من الشعراء.

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدوا قديمًا أو حديثًا للموازنة بين شاعرين: جمع بينهما عصر واحد، أو اشتركا في الإبانة عن غرض واحد، وأن نضع ميزانًا يعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات؛ ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس.

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يرشح نفسه للموازنة، وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يعني به الشعراء من تحرير المعاني، واختيار الألفاظ.

٢

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء. فقد نجد من الناس من يطرب للشعر؛ لا لأنه شعر؛ بل لأنه طرق موضوعًا يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلًا من الوجهة الفنية، أفيعتبر هذا الإعجاب دليلًا على حسن ما استحسنه هذا الذي تشبعت نفسه بغرض خاص؟

٣

ومن هنا نستطيع غض النظر عن أحكام المتأدبين الذين يفضلون القديم مطلقًا على الجديد، بحيث يرون الجديد نوعًا من الهراء، أو يفضلون الجديد مطلقًا على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود، وإنما نغض النظر عن أحكام هؤلاء؛ لأن التشيع للقديم أو الجديد صرفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تطرب للجيد الممتع من ثروة القدماء والمحدثين.

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال: وما أكثر ما نرى ونسمع عن حفاظ اللغة وجلة الرواة ممن يلهج بعيب المتأخرين، أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختار، فإذا نسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه، كذب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملًا، وأقل مرزأ من التسليم بفضيلة لمحدث، والإقرار بالإحسان لمولد، وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال: أنشدتُ الأصمعي:

هَـــلْ إِلَى نَظْـــرَةٍ إِلَيْـــك سَـــبِيلُ فَيُبَـــلَّ الصَّـــدَى وَيُشْـــفَى الْغَلِيـــل

إِنَّ مَـا قَـلَّ مِنْـك يَكْثُـرُ عِنْـدِي   وَكَثِـيرٌ مِمَّـنْ تُحِـبُّ الْقَلِيـلُ

فقال: هذا والله الديباج الخسرواني! ولمن تنشدني؟ فقلت: إنهما لليلتهما. فقال: لا جرم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر!!

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خلف الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية؛ لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يسبغون أكثر ما أضيف إلى القدماء من ألوان الكلام!!

٤

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تتسم بسمة الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع: كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سكينة بين الشعراء، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ مُحَمَّد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية: من أن السيدة سكينة كانت ترى فضل الشعر في الصدق، والرفق، وجميل الأحدوثة، استنادًا إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني، فسيرى القارئ أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية، ولكنه يظل قيمًا في نظر الأديب الفنان.

وأنا أشرك القارئ في الحكم على ذلك الحديث. ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سكينة جرير والفرزدق وجميل وكثيّر ونصيب، فمكثوا أيامًا، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال، هأنذا. فقالت: أنت القائل:

هُمَـا دلَّتَـانِي مِـنْ ثَمَـانِينَ قَامَـةً   كَمَا انْحَطَّ بَازٌ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهْ [1]

---

(١) البازي: ضرب من الصفور.

فلمـا اسْـتَوَتْ رِجْـلايَ بالأَرض قالتـا أَجَـــيٌّ يُرَجَّـــى أَم قَتِيــــلٌ نُحَـــاذِرُه
فقلتُ ارفَعوا الأَمْرَاسَ لا يَشْعُروا بنا وأَقبلــتُ في أَعجــازِ لَيــلٍ أَبَادِرُهْ (١)
أُبادِرُ بَـــوابَيْنِ قَـــدْ وُكِّـــلا بِنَـــا وأحمـرَ مِـنْ ساجٍ تَـبُصُّ مَسَـامِرُهُ (٢)

قال: نعم! قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك؟ هلا سترت عليك وعليها؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك!

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت: أيكم جرير؟ قال: هأنذا. قالت: أنت القائل:

طَرَقَتْـكَ صـائدةُ القلـوب وَلَـيْسَ ذَا وَقْـــتَ الــزيارةِ فَـــارْجِعِي بِسَـــلاَمِ
تُجْـرِي السِّـواكَ عَلَـى أغـرَّ كأنَّـهُ بَـــرَدٌ تَحَـــدَّرَ مِـــن مُتُـــونِ غَمَـــامِ

قال: نعم! قالت: أولًا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف!! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت: أيكم كثيّر؟ فقال: هأنذا؛ فقالت: أنت القائل:

وأَعْجَبَـــنِي يا عَـــزُّ مِنْـــكِ خَلاَئِـــقٌ كِـــرامٌ إذَا عُـــدَّ الْخَلاَئِـــقُ أَرْبَـــعُ
دُنُـوُّكِ حَـتى يَـدْفَعَ الْجَاهِـلَ الصِّـبَا ودَفْعُـكِ أَسْـبَابَ الْمُـنى حِـينَ يَطْمَـعُ
فَـــوَاللهِ مَـــا يَـــدْرِي كَـــرِيمٌ مُمَاطِـــلٌ أَيَنْسَـــاكِ إِذْ بَاعَـــدْتِ أَوْ يَتَصَـــدَّعُ

قال: نعم! قالت: ملحت وشكلت! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نصيب؟ قال: هأنذا. قالت: أنت القائل:

---

(١) الأمراس: الحبال.

(٢) تبص: تلمع.

وَلَـــوْلاَ أَن يُقَـــال صَـــبَا نُصَـــيْبٌ   لَقُلْـــتُ بِنَفْسِـــيَ النشَـــأَ الصِّـــغَّارُ
بِنَفْسِـــي كـــلَ مَهْضُـــومٍ حَشَـــاها   إِذَا ظُلِمَـــتْ فَلَـــيْسَ لَهَـــا انْتِصَـــارُ

قال: نعم، فقالت: ربيتنا صغارًا، ومدحتنا كبارًا! خذ هذا الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك:

أَلا لَيْـــتَ شِـــعْرِي هَـــلْ أَبِيـــتَنَ لَيْلَـــةً   بِـــوَادِي الْقُـــرَى إِنِّي إذًا لَسَـــعِيدُ [1]
يَقولـــوُن جَاهِـــدْ يا جَمِيـــلُ بِغَـــزْوَةٍ   وأَيُّ جَهـــادٍ غَيْـــرَهنَّ أُرِيـــدُ
لِكُـــلِّ حَـــديثٍ بَيْـــنَهُنَّ بَشَاشَـــةٌ   وَكُـــلُّ قَتِيـــلٍ عِنْـــدَهنَّ شَـــهيدُ

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتم ولم تحرص إلا على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درسًا ما كان أحوجهم إليه –كما ذكر أستاذنا المهدي – وإنما هو حديث صريح في الإبانة عن حرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا نرى كيف عقبت على قول جرير:

طَرَقَتْـكَ صـائدةُ القلـوب وَلَـيْسَ دَا   وَقْـــتَ الـــزيارةِ فَـــارْجِعِي بِسَـــلاَمِ

إنها قالت له: أولًا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف، وفيك ضعف!

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع: «ادخلي بسلام»، ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل!

---

(١) وادي القرى: هو وادي بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

ثم ما معنى هذه الجملة «أنت عفيف، وفيك ضعف» أما والله إني لأحب أن يعفيني القارئ من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون!

وقد رضيت السيدة سكينة عن تلك الفتاة اللعوب، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه، ويسخر لصباه، وتنفر حتى تتقطع بالغويّ أسباب المنى والمطامع والتي لا تزال تلعب حتى يغلب المحب على أمره، فما يدري أيصدف وينسى، أم يُسمي وهو متيم مجروح الفؤاد.

وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل [١] ، وأنه بلغ بذلك غاية البيان.

وما الذي أعجبها في شعر نصيب؟ أعجبها أنه رباهن صغارًا، ومدحهن كبارًا! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع؛ ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهن بشاشة وقتلاهن شهداء!

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

أَلا لَيْتَني أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُثَيْنَةُ لاَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلاَمُهَا

قال: نعم! قالت: رحم الله صاحبك إن كان صادقًا في شعره.

ألا تراها رضيت بما رضي الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويروع حين فزعت وروعت من أجله صاحبتاه؟

٥

ونستطيع أيضًا أن لا نبالي بأحكام المتأدبين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية: كالفقهاء والمتصوفة، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العرف، والمألوف، والمستحسن من خصال الناس، فقد قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصّرك مواقع رشدك، وعواقب غيّك.

---

(١) شكل على وزن فرح: من الشكل بالكسر، وهو رقة الغزل.

فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد، والنهي عن الغي، والتنفير من طاعة الهوى. مع أن من الكلام ما يهوي بصاحبه إلى أعماق الجحيم، وهو في الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان.

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ثم قال بلهجة جدية: لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصل في النهي عن العبث بالنساء.

٦

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية، وأريد النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه:

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى المأَمونُ بالّدينِ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِيلُ

فغضب لذلك ولوى وجهه مع أن هذا البيت يصور مطامع كثير من النفوس، التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه، ولكن نفس المأمون الوثابة الطماحة لم ترض عن هذه المنزلة، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة.

قلت لك: إن الشعر قد يساير الأغراض الدينية، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية، وعندي لهذا شاهد بديع، وهو قول بعض في دم جماعة من عبيد الراح:

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمُو لَمْ يُنْكِر الْكَلْبُ أَنّي صاحب الدار
لكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحُ الْمِسْكِ يَفْغَمُني وَعَنْبَرُ الهِنْدِ أُذْكِيهِ على النار
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ ريحي حِينَ أَبْصَرَنِي وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزِّق والقار

فهذا نهي عن الخمر، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي:

وَدَعِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتى كَيْفَ يَسْعى فِي جُنُونِ

لأن هذا ينقصه ما يبني عليه الشعر من رائع الخيال.

وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق، فنقول: على أني قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر البليغ معه نظرية «الفن للفن»؛ لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلاق أم تربية الأذواق [1].

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب «النثر الفني».

الفصل الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد: كالتعصب للقديم أو الجديد والتشيع بالأفكار الدينية، أو الصوفية، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء.

والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل؛ لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء.

١

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول، والشاعر أبصر بالشعر من سواه، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر، وكان في حكمه من الخاطئين، وإليك البيان:

كان ابن الرومي مسرفًا في التطير، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوذ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع على جار له كان نازلًا بإزائه، وكان أحدب، يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح الباب! فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يشرف من فيه على الهلاك! وعلم معاصروه بإفراطه في التطير، فأقبل عليه أحدهم وأنشده:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهرَ يُؤذِن صَرْفُهُ ... بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وبَيْنَ الْحَبَائِبِ

رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّنْتُهَا علَى ... رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا ... فَأَيَّامُـــــهُ مَحْفُوفَـــــةٌ بِالْمَصَـــــائِبِ
فَخـذْ خِلْسَـةً مَـنْ كُـلِّ يَـوْمٍ تَعِيشُـهُ ... وَكُـنْ حَـذِرًا مَـنْ كَامَنَـات الْعَوَاقِـبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكرَ الْفَأْل والزَّجْرِ وَاطَّرِحْ ... تَطَيُّـــرَ جَـــارٍ أَوْ تَفَـــاؤُلَ صَـــاحِبِ

فبقي ابن الرومي باهتًا ينظر إليه، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ هذه الأبيات.

أفيحسب القارئ أن مثل هذه القطعة – وهي وسط في ألفاظها ومعانيها – كانت تشغل مثل ابن الرومي، وتظفر باحتلال قلبه، لولا بغضه للتطير، وملله من تلك الوسوسة التي كدرت عليه موارد الحياة؟

إن الناقد مفروض فيه البرء من جميع الأغراض؛ لأن النقد نوع من القضاء، فإذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمه طعمة للظنون، وسواء في ذلك الأفكار الدينية، والنزعات الجنسية، والاتجاهات العقلية التي تصبغ التفكير بلون خاص.

٢

إن الشعر الوسط قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس، ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوسط إلى منزلة الشعر الجيد، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رهطه وطمع في أن تلد له غلامًا، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول، وإذا هي ترقص ابنتها، وهي تقول:

مَـــــا لأَبِي حَمْـــــزَةَ لاَ يَأْتِينَـــــا ... يَظَـــلُّ فِي الْبَيْـــتِ الَّـــذِي يَلِينَـــا
غَضْـــبَانَ أَنْ لا نَلِـــدَ الْبَنِينَـــا ... تَاللهِ مَـــا ذَلِـــكَ فِي أَيْـــدِينَا
وإِنَّمَـــا نَأْخُـــذُ مَـــا أُعْطِينَـــا ... ونَحْـــنُ كَـــالزَّرْعِ لِزَارِعِينَـــا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء، فقبلها وقبل ابنتها، وقال: ظلمتكما ورب الكعبة.

فأنت ترى أن هذه أبيات عادية في ألفاظها ومعانيها، ولكن لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه، وراضته بعد جموحه: رجل ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجه وابنته، والشرارة الضئيلة كافية لإحراق الهشيم! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات، وإنما هي شاهد «على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق» (١) .

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام؛ لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس، وصور العقول.

٣

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة قومية، أو حزبية، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا للفصل بين شعراء الأحزاب، وإنك لتجد أمثلة ذلك منثورة هنا وهناك: حين ترجع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد.

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده:

نَفْسِي فِداءُ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ إِذَا ... أَبْدَى النَّواجِذَ يَوْمٌ عَارِمٌ ذَكَرُ (٢)
الْخَائِضُ الْغَمْرَةَ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ ... خَلِيفَةُ الله يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
فِي نَبْعةٍ مِنْ قُرَيْش يَعْصِمُونَ بَهَا ... مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُشدٌ على الحقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أُنُفٌ ... إِذَا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَرُوا
لاَ يَسْتَقِلُّ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمُو ... وَلاَ يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦.

(٢) العارم: الشديد، والنواجز: الأنياب.

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ... وَأَوْسعُ النَّاسِ أَحْلاَمًا إِذَا قَدَرُوا [1]

هُمُ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَاحَ إِذَا ... قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعافِينَ أَوْ قَتَرُوا

بَنِي أُمَيَّةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ ... تَمَّتْ فَلاَ مِنَّةٌ فِيهَا وَلَا كَدَرُ

أقول: لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال: أأنادي في الناس أنك أشعر العرب؟ فقال الأخطل: حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين!

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية، فقد كان الأخطل سليط اللسان، خبيث الهجاء، وكان عبد الملك قد استعان به على لذع من يناوئه من رجال السياسة وشعراء الأحزاب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان ما رووا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملامحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره حراص، ولكن السياسة، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس!.

ولو أن ابن رشيق تنبه لهذا الغرض لما ظن أن المسلمين سكنوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الإسلامية حين قال:

وَلَسْتُ بِصَائم رَمَضَانَ طَوْعًا ... وَلَسْتُ بآكِل لَحْمَ الْأَضَاحي

وَلسْتُ بزاجر عَنْسًا بُكُورًا ... إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ للنَّجَاحِ [2]

وَلَسْتُ مُنَادِيًا أَبَدًا بِلَيْلٍ ... كَمِثْلِ الْعَيْرِ حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ

وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا ... وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلَجِ الصبَاحِ [3]

---

(١) شمس: جمع شموس وهو الصعب المراس.

(٢) العنس: الناقة الصلبة.

(٣) الشمول: هي الخمر التي تعصف بالعمل كما تعصف بالنبات ريح الشمال.

وَلَسْــتُ بِصَــائم رَمَضَــانَ طَوْعًــا   وَلَسْــتُ بآكِــل لَحْــمَ الْأَضَــاحي

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه؛ ولذلك قال: «ومن الفحول المتأخرين الأخطل، واسمه غياث بن غوث، وكان نصرانيًّا من تغلب، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادم عبد الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي، وهو تقي مسلم». ثم قال: «وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبي سفيان، وقيل: بل بأخته هند بنت معاوية، ولولا شعره لقتل دون أقل من ذلك، وقد رد على جرير أقبح رد، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم، ما لا ينجو مع مثله علوي فضلًا عن نصراني».

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافيًا لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره، ولكن دفاعه عن بني أمية، وهجاءه لخصومهم، كانا سببًا في تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء.

٤

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثر شعر منصور النميري، ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر، ولا العلم للعلم، وإنما يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت النميري من الرشيد، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الحظوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ومنافرته لآل علي بن أبي طالب، فقد ذكروا أنه قال في تسفيههم هذه الأبيات:

بَــني حَسَــن وَقُــلْ لِبَــني حُسَــينٍ   علــيكم بِالسَّــوَاء مِــنَ الْأُمُــورِ

أَمِيطُــوا عَنكُمُــو كَــذِبَ الْأَمَــاني   وأحلامًــا يَعِــدْنَ عِــدَاتِ زُورِ

تُسَــمُّونَ النَّــبِيَّ أَبًا وَيأبى   مِــنَ الْأَحْــزَابِ سَــطْرٌ في سُــطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّي. ويذكرون أن الرشيد قال له: ما عدوت ما في نفسي ثم أمره أن يدخل بيت

المال فيأخذ ما أحب، كما قال صاحب زهر الآداب، مع أن الآية وجهًا غير هذا الوجه، وتأويلًا غير هذا التأويل.

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله:

آلُ النَّـــــبِيّ وَمَــــــنْ يُحِبُّهُمُــــــو   يتَطَــــامَنُونَ مَخَافَـــةَ الْقَتْــــلِ [١]
إِلاَّ مصـــــــالِيتَ يَنْصُـــــــرونَهُمُو   مــــنْ أُمَّـــةِ التَّوْحَيـــدِ فِي أَزْلِ [٢]
أَمِـــنَ النَّصــــارَى وَالْيَهـــودُ وَمَــــنْ   بِظُبَـا الصَّــوَارِمِ وَالْقَنَـا الـذُّبْلِ [٣]

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله. فمضى الرسول فوجده قد مات. فقال الرشيد: لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها [٤] !

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنة حين تسيطر عليه حزبية، أو قومية، ولولا أني أعرف في شعراء العصر ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مسايرة الأحزاب، خوفًا من النقد والموازنة تحت وحي الأغراض، ولهم العذر في هذا الدهاء، فإن الأمة التي تكاد تصدق أكثر ما يقال، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حسابًا لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية، والشخصية السياسية؛ فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزبًا غير الحزب الذي أناصره، وأكون في الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب، أو فنان.

---

(١) يتطامنون: يسكنون.

(٢) الأزل: الشدة.

(٣) المصاليت: جمع مصلت، وهو المقدام، والقنا الذبل: هي الظماء إلى الدم، والمفرد ذابل، ويجمع أيضًا على ذوابل.

(٤) في كتاب: «المدائح النبوية في الأدب العربي». فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء في حب أهل البيت.

الفصل الثالث

أنفس الشعراء

١

قد رأيت أن الموازنة نوع من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذًا أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره؛ ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدي «رسالته» إلى جيل خاص في قطر خاص، ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروق، وهو لم يعك معك ولا لك، وإنما خضع في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزومان والمكان.

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبته، وقد نال منها العفاء:

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عشْرِينَ حِجَّةً   فَلأيا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ [(١)]

وهو يرى أن هذا وصف ضئيل للدروس والعفاء، وذلك غفلة ظاهرة فإن منازل الأعراب تعفو وتدرس في أقل من عشرين سنة، فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود؟

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله:

بانَت سُعادُ فَقَلبِي اليَومَ مَتبولُ   مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إذ رَحَلوا   إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

---

(١) لأيا عرفتها، وعرفتها بعد لأي: أي بعد مشقة، وهو تعبير جاهلي لم يحيه في العصر الحديث إلا المنفلوطي رحمه الله. والحجة: السنة.

وذلك أن هذه القصيدة أنشدت في حضرة النبي ﷺ فمن الأدب أن لا تبدأ بالنسيب؛ وهذا أيضًا خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد العربية المستملحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى ينسب كعب إلى ما هو منه براء.

٢

وكان الجاحظ يقول: لا أعرف شعرًا يفضل قول أبي نواس:

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرى ... وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ ... وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

فَلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَلِلْمَاءِ ما دارَتْ عَلَيْهِ الْقَلانِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر، فقال: «فصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى، فإنه لا كبير كلفة فيه؛ لأن أبا نواس رأى كأسًا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة، فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماءً يسيرًا، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلًا بقدر القلانس التي على رءوسها، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر».

فانظر كيف صغرت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان: «حكاية حال مشاهدة البصر». مع أنه إنما عظم لذلك في عين الجاحظ.

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينة:

وَلَو أَنَّنِي أَستَغْفِرُ الله كُلَّمَا ... ذَكَرْتُكِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبُ [(١)]

---

(١) ابن الدمينة: شاعر رقيق النسيب، وهو صاحب هذا البيت النفيس:

واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية)، وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية، وأنه قال هذه الكلمة العذبة، قبل أن يوجد التكلف في الفقه، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء!

ومن النقاد من فضل قول مسلم بن الوليد:

تظلَّـمَ الْمَـالُ وَالْأَعْـداءُ مِـنْ يَـدِهِ ... لاَ زَالَ لِلْمَـالِ وَالأَعْـدَاءِ ظَلاَّمَـا

واستقبح قول أبي نواس:

بُـحَّ صَـوْتُ الْمـال مِمَّـا ... مِنْـكَ يَشْـكُو ويصِـيحُ

استنادًا إلى أن المال لا صوت له. وهذا أيضًا خطا: لأن أبا نواس قريب العهد بمال الأعراب، ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكين الجزار عند قدوم الضيفان.

٣

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يعنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

فقد أنكروا على شوقي قوله:

ارْفعـي السِّـتْرَ وحيـي بِالْجَبِـينْ ... وَأَرِينَـا فَلَـقَ الصُّـبْحِ الْمُبِـينْ

وَقِفِـي الهَـوْدَجَ فينـا سَـاعَةً ... نَقْتَـبِسْ مِـنْ نُـورِ أُمِّ الْمُحْسِـنِينْ

وَاتْرِكِـي فَضْـلَ زِمَامِيْـهِ لَنَـا ... نَتَنَـاوَبْ نَحْـنُ وَالـرُّوحُ الْأَمِـينْ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في

وإني لأستحييك حتى كأنما ... علي بظهر الغيب منك رقيب

ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم ...

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محجوب:

لَكُـــــمْ فِي الْخُـــــطِّ سَـــــيَّارَهْ   حَـــــدِيثُ الْجَـــــارِ وَالْجَـــــارَهْ

واستخفوا كلمة: «حديث الجار والجارة». وفاتهم أن الدكتور محجوب يسكن في حي قد لا يعرف أهله غير الخيل، والبغال، والحمير!

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم:

أَمْشِـــــي يُـــــرَنِّحُنِي الْأَسَـــــى   وَالبُـــــؤسُ تَـــــرْنِيحَ الشَّـــــرَابْ

لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظًا يرى هذه المناظر في الصباح والمساء [1] .

واستضعفوا قول مطران في رثاء إسماعيل صبري:

شُـــــهُبٌ تَبِـــــينُ فَمَـــــا تَئُـــــوبُ   فَكَأَنَّهَـــــا حَبَـــــبٌ يَـــــذُوبُ

أَرَأَيْـــــتَ فِي كَـــــأْس الطِّـــــلا   دُرَرًا وَقَـــــدْ صَـــــعِدَتْ تَصُـــــوبُ

هُـــــو ذَاكَ فِي لُجِّ الـــــدُّجَى   طَفْـــــوُ الـــــدَّرَارِي وَالرُّسُـــــوبُ

لاَ فَـــــرْقَ بَـــــيْنَ كَبِيرِهَـــــا   وَصَـــــغِيرِهَا فِيمَـــــا يَنُـــــوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب، بالحبب حين يذوب، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران؛ لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه الممراح.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء مُحَمَّد تيمور:

ضَـــرَبُوا الْقِبَـــابَ عَلَـــى الشَّـــبَابْ   وَثَـــــوَوْا إِلَى يَـــــوْم الْحِسَـــــابْ

هَمَـــــدُوا وَكُـــــلُّ مُحَـــــرَّك   يوْمًـــــا سَيَسْـــــكُنُ فِي التُّـــــرَابْ

---

(١) عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل.

نَزَلُــوا عَلَــى ذِئْــب الْبلَــى فَتَضــيَّفُوا شَــرَّ الــذِّئَابْ
وَكَــأَنَّهُمْ صَــرْعَى كَــرىَ بِالْقَــاعِ أَوْ صَــرْعَى شَــرَابْ
فَــإِذَا صَــحَوْا وتَنَبَّهُــوا فَــالله أَعْلَــمُ بِالْمَــآبْ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال، وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية:

مَــا أَنْــتِ يَا دُنْيَــا أَرُؤْيَا نَائــمٍ؟ أَم لَيْــلُ عُــرْسٍ؟ أَمْ بِسَــاطُ سُــلافِ
نَعْمَــاؤُكِ الرَّيْحَــانُ إِلَّا أَنَّــهُ مَسَّــتْ حَوَاشِــيهِ نَقِيــعَ زُعَــافِ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه: لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال: أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

أُنظُــرْ إليــهِ كَــزَوْرَقٍ مِــنْ فِضــةٍ قَــد أَثْقَلَتْــهُ حَمُولَــةٌ مَــنْ عَنــبَرِ

فقال له زدني، فأنشده:

كَــأن آذَرْيُونَهَــا غِــبَّ سَمَــاءٍ هَامِيــهْ
مَــدَاهنٌ مِــنْ ذَهَــبٍ فِيهَــا بقَــايا غَاليــهْ

فصاح: وا غوثاه! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ذلك إنما يصف ماعون بيته؛ لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وَقَـدْ نَشَـرتْ أَيْـدِي الْجَنُـوب مَطَارِفًا مِنَ الجَوّ دُكْنًا والحَوَاشِي عَلَى الْأَرضِ
يُطَرّزُهــا قَــوْسُ السَّــحَابِ بأَخْضَــر عَلــى أَحْمَــر في أَصــفَر إِثْــرَ مُبْــيَضّ
كَــأَذْيَالِ خَــوْدٍ أَقْبَلَــتْ فِي غَلاَئِــل مُصَــبَّغَةٍ والْــبَعْضُ أَقْصــرُ مِــنْ بَعْــضِ

وقولي في صانع الرقاق:

مـا أَنْـسَ لا أنْـسَ خَبَّـازًا مَـرَرْتُ بـهِ ... يـدحو الرَّقَاقَـةَ مِثْـلَ اللَّمـحِ لِلبَصـر

مَــا بــيْنَ رُؤْيَتَهـــا فِي كَفِّــهِ كُــرةً ... وَبَــيْنَ رُؤْيَتِهـــا قَـــوْرَاءَ كَـــالْقَمَر

إِلَّا بِمَقْـــدَار مَـــا تَنْـــدَاحُ دَائِـــرَةٌ ... فِي لُجَّـةِ الْمـاءِ يُلْقَـى فِيـهِ بِالْحَجَـرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومس؛ لأنه استطاع تشبيه الآذريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز؛ لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتيحت لكل من الشاعرين، ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن نعمد إلى الشاعر وتسير أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

٤

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية؛ لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بداوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح السموم في مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته:

فتـــاةٌ كَـــأَنَّ رُضَـــابَ الْعَبـــيرِ ... بِفِيهـــا يُعَـــلُّ بِـــهِ الزَّنْجَبِيـــلُ

بأقل من قول الشريف الرضي:

يَبسِـــمْنَ عـــن بَـــرَد الفَحَـــامِ وبـــرْدِهِ ... رَيَّانَ يُغْبَـــقُ بِالْمُـــدَامِ ويُصـــبَحُ

ولا يفضلهما من قال: «كأني ألتقط من فيها حب الرمان»؛ لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغض النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حب الرمان، أحلى ما تعطر به الثنايا في الحاضرة، ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه:

أَنــتَ كَالْكَلْــبِ فِي حِفَاظِــكَ للــودِّ وكــــالتَّيْسِ في قـــــرَاعِ الخُطُــــوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جاسي اللفظ بادي الخيال؛ لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصرًا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة، فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها:

عُيُـونُ الْمهَـا بَـيْنَ الرُّصـافَةِ وَالجْسْـرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مَنْ حيْثُ أَدْري وَلاَ أَدْري

أَعَـدْنَ لِيَ الشَّـوْق الْقَـدِيمَ وَلَمْ أَكُـنْ سَـلَوْتُ وَلَكِـنْ زِدْنَ جمـرًا عَلَـى جمْـرِ

سَــلِمْنَ وأَسْــلَمْنَ الْقُلُــوبَ كَأَنَّمَــا تُشَـكُّ بِأَطْـرَافِ الْمُثَقَّفَـةِ السُّـمْرِ (١)

خَلِيلــيّ مَــا أَحْلَــى الْهَــوَى وَأَمَــرَّهُ وَأَعْـــرَفَنِي بالحُلْـــوِ مِنْـــهُ وبِالْمُـــرّ

بِمَـا بَيْنَنَـا مِـنْ حُرْمَـةٍ هَـلْ عَلِمْتُمَـا أَرَقَّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

والخلاصة: أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة، ويقارن بين إدراك وإدراك، بغض النظر عن الفروق الموضعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور. وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية: يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه: بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، ليسبُر كما قلت، أغوار نفسه؛ وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

(١) المثقفة السمر : هي الرماح

الفصل الرابع

شعراء الأحزاب

١

ويجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف، وعلى الأخص إذا مرت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية، أو فتنة من الفتن السياسية، فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب، وثانيهما من الحزب المغلوب، ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع، وتبقي العصبية الحزينة على ما ترك شاعر الأكثرية من الغث والسمين، والويل كل الويل للمغلوب!

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية: وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة الراشدة، استنادًا إلى ندرة ما روي من شعر ذلك العهد، وقلة من عرف فيه من الشعراء.

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى الشعر والشعراء لتريثوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس، فقد كان الشعر في زمن البعثة قويًّا وعزيزًا، وكان الشعراء في كثرة وعزة، ولكن النبي ﷺ رأى أكثرهم من معارضيه، فعمد إلى إخفات صوتهم، وكان ما أراد.

فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية:

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت قالوا: يا رسول

الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أننا شعراء، هلكنا! فأنزل الله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا.

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم (١) .

ومعنى ذلك أن الشعر لا يذم إلا إن أعدت به حملة على النبوة، وإلا فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره: أين حسان بن ثابت؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك! قال: احدا! فجعل ينشد ويصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده، فقال ﷺ: لهذا أشد عليهم من وقع النبل، وروي أيضًا أنه قال له: اهجهم! فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام، في غلس الظلام! وكذلك كان حسان يقول لأهل مكة:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَداءُ (٢)

يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُصْغِياتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ (٣)

تَظَلُّ جيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ (٤)

فَإِمّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

وَإِلّا فَاصْبِرُوا لِجِلادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ الله فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَقَال الله قَدْ يسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُها اللِّقَاءُ (٥)

لَنَا في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

---

(١) راجع أسباب النزول.

(٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المخصب.

(٣) الأسل: الرماح، ومفردها أسلة، والأعنة جمع عنان، وهو اللجام.

(٤) متمطرات: مسرعات، وتلطمهن النساء. تمسح ما عليهن من الغبار.

(٥) العرضة بالضم: الهمة.

وَجِبرِيـــــلٌ أَمِـــــينُ الله فِينَـــــا وَرُوحُ الْقُـــدْسِ لَـــيْسَ لَـــهُ كِفَـــاءُ

أَلَا أَبْلِـــــغْ أَبَا سُـــــفيَانَ عـــــنِّي مُغَلغَلَـــةً فَقَـــدْ بَـــرِحَ الْخَفَـــاءُ [1]

بِأَنَّ سُـــــيُوفَنَا تَرَكَتْـــــكَ عَبْـــــدًا وَعَبْـــدُ الـــدَّارِ سَـــادَتُهَا الْإِمَـــاءُ

هَجَـــوْتَ مُحَمَّـــدًا فَأَجَبْـــتُ عَنْـــهُ وَعِنْـــــــدَ الله فِي ذَاكَ الْجَـــــــزَاءُ

أَتَهْجُـــوهُ وَلَسْـــتَ لَـــهُ بِكُـــفْءٍ فَشَـــرُّكُمَا لخَيْرِكُمَـــا الْفِـــدَاءُ

وإنما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان؛ لأنها تمثل خصومة ذلك العهد أصدق تمثيل، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء الرسول، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حسن القول وظلمة الارتياب، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول:

فَلَـوْ كَـانَ مُوسَـى صَـادِقًا مَـا ظَهَرْتُمُـو عَلَيْنَـــا وَلكِـــنْ دَوْلَـــةٌ ثُمَّ تَـــذْهَبُ

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاءً مبرمًا على من عارضه من شعراء قريش، وشعراء اليهود: لأن الدين في نفسه أعز من أن يهادن أعداءه أو يفتر عن حرب خصومه من الشعراء، وكذلك باد وانقرض ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد منهم الآثار الأدبية والفنية، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأييد، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة، لم تلونها الأغراض والأهواء، وأقول: الأغراض والأهواء؛ لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام من الوجهة الروحية، والعقلية والاجتماعية.

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطم الأركان، مهدم الجوانب، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان، ثم جاء الإسلام، فلم يجد غير أنقاض من

---

(١) المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد.

الهمم، وأطلال من العزائم، وخرائب من العقول والقلوب؟

هيهات هيهات!

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية؛ لترى كيف تقارعت الحجج، وتصاولت البراهين؛ ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال: فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ. وبعنف الخصومة حين قال: وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا. وبسحر البيان حين قال: أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ وبشدة المكر حين قال: وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ. وبرجاحة العقل حين قال: فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ.

٢

ونعود فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لدد شعراء اليهود، وتوثب شعراء المشركين، أثرت تأثيرًا عميقًا في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بغض الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب: إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر فقال: نسكوا نسكًا أعجميًّا! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان – وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء – فقال:

نُبِّئْــتُ أَنَّ فَتَــاةً كُنْــتُ أَخْطُبُهَــا ... عُرقُوبُهَـا مِثْلُ شَـهْرِ الصَّـوْمِ فِي الطُـولِ

ثم قام فأمّ الناس!

وسئل ابن عباس: هل الشعر من رفث القول؟ فأنشد:

وَهُـــنَّ يَمْشِـــينَ بنَـــا هَمِيسَـــا ... إِنْ تَصْـــدُقِ الطَّيْـــرُ ننـــك لَمِيسَـــا

وقال: إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة!

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أتقول الشعر في فقهك وورعك؟ فأجاب: لا بد للمصدور أن ينفث!

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة:

شَقَقْتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ هَوَاكِ فَلِيمَ فَالْتَأَمَ الفُطُورُ
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَة فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي بَسِيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ ولا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

ورأيناهم يزعمون أن الإمام الشافعي قال:

ولَوْلاَ الشِّعْرُ بالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة؛ لأنه فيما يرون ليس من الأمور ذوات البال!

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالي: «وأما الشعر فكلام حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح». وهذا كله من أثر الحملة التي وجهت إلى الشعر والشعراء.

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد، والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بد من حياة الفنون، وكذلك نهضوا داعين إلى رواية الشعر وإجارة الشعراء، ولكنهم لم يدعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل، وإنما دعوا إليه باسم الدين، فقالوا: إن النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة، وقد أصيبت إصبعه في إحدى المواقع:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصبَعٌ دَميتِ وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ

وحبروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء: فنسبوا لأبي بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها:

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بالرِّمَاحِ الدَّمَائِثِ أَرِقْتَ أَوَامْرٍ فِي الْعَشِيرَةِ حَادِثِ

ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات، ونسبوا إلى عليّ طائفة من القصائد، ونقل الفيروزآبادي عن المازني وصوبه الزمخشري أنه لم يصح أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين:

تِلْكُم قُرَيْشٌ تَمَنّانِي لِتَقْتُلَنِي فَلا وَرَبِّك ما بَرُّوا ولا ظَفِروا

فَـإِنْ هَلَكْـتُ فَـرَهْنٌ ذِمَّـتِي لَهُمـو　　بِـذاتِ وَدْقَـين لا يَعْفـو لَهـا أثَـرُ

وقال ابن رشيق بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة:وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزًا، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طويت، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به.

وحسب الشعر هوانًا أن تقول: إنه مباح!

أفترى بعد هذا البيان أن مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلًا وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود؟ كيف، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة؛ ولنصل بها إلى علم اليقين، فقلما تنفع الظنون.

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا تخطيت عهد النبوة، وانحدرت إلى عهد بني أمية، أو عصر بني العباس: هناك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية، وشعراء الأمويين في عصر بني العباس، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية، ومنازعهم السياسية، وأكتفي الآن بمثال واحد، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال:

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه إلى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات:

أيا منـزِلًا بالـدَّيْرِ أصْـبَح خَالِيًـا　　تَلاَعَـبُ فِيـهِ شَمْـأَلٌ وَدَبُـورُ

كَأَنَّـكَ لَمْ يَسْـكُنْكَ بِـيضٌ أَوانِـسٌ　　وَلَمْ تَتَبَخْتَـرْ في فِنَائِـكَ حُـورُ

وَأَبْنَـاءُ أَمْـلاَكٍ عَبَاشِـمُ سَـادَةٌ　　صَـغِيرُهُمُو عِنْـدَ الأَنَامِ كَبِـيرُ

إِذَا لَبِسُـوا أَدْرَاعَهُـمْ فَعَـوَابِس　　وَإِنْ لَبِسُـوا تِيجَـانَهُمْ فَبُـدُورُ (١)

---

(١) العنابس: الأسود

علـى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللِّقَاءِ ضَرَاغِمٌ ... وَأَنَّهُمُو يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ

لَيَالِي هِشَامٌ بالرُّصَافَةِ قَاطِنٌ ... وَفِيكَ ابنه يَا دَيْرُ وَهْوَ أَمِيرُ

إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالخِلاَفَةُ لَدْنَةٌ ... وَأَنْتَ طَرِيبٌ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ

وَرَوْضُكَ مُرْتَاضٌ وَنَوْرُكَ نَيِّرٌ ... وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ

بَلى فَسَقَاكَ الْغَيْثُ صَوْبَ سَحَائِب ... عَلَيْكَ بَهَا بَعْدَ الرَّوَاحِ بُكُورُ

تَذَكَّرْتُ قَوْمِي خالِيًا فَبَكَيْتُهُمْ ... بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ

لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمُو ... لَهُمْ بِالَّتِي تَهْوَى النُّفُوسُ يَدُورُ

فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ ... وَيُطْلَقَ مِنْ ضِيقِ الوَثَاقِ أَسِيرُ

رُوَيْدَكَ إِنَّ الدَّهْرَ يَتْبَعُهُ غَدٌ ... وَإِنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت: فارتاع المتوكل عند قراءها واستدعى الديراني وسأله عنها، فأنكر أن يكون علم من كتبها، فهم بقتله، فسأله الندماء فيه، وقالوا: ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة. فتركه ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح بن زنباع الجذامي من أخوال ولد هاشم بن عبد الملك.

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور، وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد.

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريبًا من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ.

الفصل الخامس

نفسية الناقد

١

قلت فيما سلف: إن الموازنة نوع من القضاء، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن ينزه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يبرئ نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء.

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تسيطر عليه الحاسة الفنية، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع، وآنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد – ولعالم الأدب أيضًا رسوم وتقاليد – فتقدم إلى الموازنة وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين.

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال:

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة، ومن يؤبه إليه في علم الشعر، مجلس بعض الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحتري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثرًا لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأت قولًا أنحيت فيه على البحتري إنحاءً أسرفت فيه، واقتدحت زناد الرجال: فتكلم وتكلمت، وخضنا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوت في جميعها غلوًّا شهده جميع من حضر، وخضنا في أفانين في المجلس، وكانوا جلة الوقت وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام أن يبتدئ، ولا أن يخرج، ولا أن يختم، ولو لم يكن للبحتري عليه من الفضل إلا

حسن ابتدائه، ولطف خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليم له، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدة؟

ثم أقبل عليَّ فقال: أين يُذْهب بك عن ابتدائه:

عَارَضْنَنا أصُلاً فَقُلْنا الرَّبْرَبُ ... حَتَّى أضَاءَ الأُقْحُوانُ الأشْنَبُ [1]

واخضَرّ مَوْشِيٌّ البُرُودِ وقَدْ بَدا ... مِنْهُنّ دِيبَاجُ الخُدودِ المُذْهَبُ

وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول:

أدَارَهُمُ الْأولَى بِدارَةِ جُلْجُلٍ ... سَقَاكِ الْحَيَا رَيْحانُهُ وَبَوَاكِرُهُ

وَجَاءَكِ يَحكِي يُوسفَ بْنَ مُحَمَّد ... فَرَوَّتْكِ رَيَّاهُ وجَادَكِ مَاطِرُهْ

وأنَّى لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول:

إلَيْكَ الْقَوافِي نَازعَاتٍ شَوارِدًا ... يُسَيَّرُ ضَافِي وَشْيِهَا وَيُنَمْنَمُ

وَمُشْرِقَة فِي النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُها ... بَهَاءً وَحُسْنًا أنَّهَا لَك تُنْظَمُ

وقوله في هذا المعنى:

ألسْتُ الْمُوالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِد ... هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

ثناءً تَخَالُ الرَّوْضَ فيهِ مُنَوّرًا ... ضُحًى وتَخالُ الوَشْيَ فيه مُنَمْنَما

ولقد تقدم البحتري الناس كلهم في قوله:

لَوْ أن مُشْتاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ ما ... في وُسْعِهِ لَسَعَى إلَيْكَ المِنْبَرُ

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاورة التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار «نفسية» الحاتمي صاحب هذا الحديث، فإنا نجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظرته للبحتري، وتفضيله

(١) الأشنب: من الشنب بفتحتين، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان.

إياه أبي تمام، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحتري ليقتدح زناد خصمه وأنه غلا في المماثلة غلوًّا شهده جميع من حضر، وأنه اضطر خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء، ولا الخروج، ولا الانتهاء، إلى آخر ما قال.

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة، وهي مصحوبة بهذا العمد، ومسبوقة بذلك الإصرار؟ ثم قال: «وكنت ساكتًا إلى أن استتم كلامه، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك عصبية عليَّ لا على أبي تمام؛ لأني كنت كالشحا معترضًا في لهواتهم، وأسر كل واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومئ به إلى استيلاء الوجل عليّ، فلما استتم كلامه، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعقع له بالحصى، أو تقرع له العصا، لا إله إلا الله! استنت الفصال حتى القرعى! هل هذه إلا عوان مقترعة، قد تقدم أبو تمام إلى سبك نضارها، وافتضاض أبكارها: وجرى البحتري على وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها».

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين، وإنما هي مقارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه، وأن يفوز بإعجاب الحاضرين، ألا ترى كيف فطن الحاتمي إلى رضا الجماعة عن فوز البحتري، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام، وكيف أسر كل واحد منهم إلى صاحبه مشيرًا إلى استيلاء الوجل عليه، ثم انظر كيف غضب وكيف ثار: لترى أنه لم يغضب للحق، وإنما غضب لنفسه ولم ينتصر للأدب، وإنما انتصر لهواه.

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطبًا الدار:

وَجَاءَكِ يَحكِي يُوسفَ بْنَ مُحَمَّد ... فَرَوَّتْكِ رَيَّاهُ وجَادَكِ مَاطِرُهْ

مأخوذ من قول أبي تمام:

وبُيُوتُهَا في الْقَلْبِ نُؤْيٌ شَفَّهُ ... وَلَهٌ بِطَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلَّفِ

وَكَأَنَّمَا اسْتَسْقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ ... مِنْ سَوْمِهِنّ مِنَ الْحَيَا في زُخْرُفِ

وأن البحتري أخذ قوله:

لَـوْ أن مُشْـتاقًا تَكَلَّـفَ فَـوْقَ مـا　　في وُسْـعِهِ لَسَـعَى إلَيْـكَ الِمنْبَـرُ

من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل أحد لفظًا رشيقًا ومعنى دقيقًا:

دِيمَـةٌ سَمْحَـةُ الْقِيَـادِ سَـكُوبُ　　مُسْـتَغيثٌ بِهـا الثَّـرَى المَكْـروبُ

لَـوْ سَـعَتْ بُقْعَـةٌ لإِعْظَـامِ نُعْمـى　　لَسَـعَى نَحْوَهـا الْمَكـانُ الجَـديبُ

وأن قوله في صفة القوافي:

يُسيَّرُ ضَافِي وَشْيَها وَيُنَمْنَمُ

وقوله في صفتها:

ثنـاءً تَخَـالُ الـرَّوْضَ فيـهِ مُنَـوِّرًا　　ضُـحًىً وتَخـالُ الوَشْـيَ فيـه مُنَمْنَمـا

إنما أخذه من قول أبي تمام:

حَلُّـوا بَهـا عُقَـدَ النَّسـيمِ وَنَمْنَمـوا　　مِـنْ وَشْـيها نَثـرًا لَهـا وَقَصـيدا

ومن قوله الذي أبدع فيه:

وَوالله لا أنْفَـكُّ أهْـدي شَـوارِدًا　　إلَيْـكَ تَحَمَّلْـن الثَّنَـاءَ الْمُـبَجَّلا

تَخَـالُ بِـهِ بُـرْدًا عَلَيْـكَ مُحَبَّـرًا　　وَتَحْسَـبُهُ عِقْـدًا عَلَيْـكَ مُفُصَّـلا

ألَـذَّ مِـنَ السَّـلْوَى وَأطيَـبَ نَفْحَـةً　　مِـنَ المِسْـكِ مَفْتـونًا وأيْسَـرَ مَحْمَـلا

أخَـفَّ عَلَـى قَلْـبي وَأثْقَـلَ قيمـةً　　وَأقْصَـرَ في قَلْـبِ الجَليسِ وأطْـوَلا

وأن قول البحتري:

هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصرًا عن استيفاء إحسانه حيث يقول:

أصِـخْ تَسْـتَمِع حُـرَّ الْقـوافي فإنَّهـا　　كَواكِـبُ إلَّا أنَّهُـنَّ سُـعُودُ

ولا يُمْكِـنُ الإخْـلاقُ مِنْهـا فإنَّمـا　　يَلَـذُّ لِبـاسُ البُـرْدِ وهْـوَ جديـدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمي أنه قال لمناظره:فهذه خصال صاحبك فيما عددته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره، ونشرت مطوي أسراره. حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة، ووديعة منتزعة.

والعناد ظاهر في هذا الكلام.

ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته، ونماذج من حسن تخلصه، ولطف اقتضابه، وبراعة وصفه للقوافي، فاستحسن ابتداءه إذ قال:

لا أنْـــتِ أنْـــتِ ولا الـــدِّيارُ دِيارُ   حَـــفَّ الْهَـــوى وَتَقَضَّـــتِ الأَوْطـــارُ

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدئ بمثل ابتدائه حيث يقول:

طَلَـلَ الْجَميـعِ لَقَـدْ عَفَـوْتَ حميـدا   وَكَفَـى عَلَـى رُزْئـي بَـذاكَ شـهيدا

دِمَـنٌ كـأنَّ الْبَـيْنَ أصْـبَحَ طَالِبًـا   دَينًـا لَـدَى آرامِهـا وَحقـودا

وحيث يقول:

مـا في وقوفِـك سـاعَةٌ مِـنْ باسِ   نَقْضـي حقـوقَ الأرْبُـعِ الأدْراسِ

فَلَعَـلَّ عَيْنَـكَ أنْ تَجـودَ بِـدَمْعِها   وَالـدِّمْعُ مِنْـهُ خـاذِلٌ وَمواسـي

واستملح اقتضابه حين قال:

الحَـقُّ أبْلَـجُ والسُّـيوفُ عَـوارِ   فَحَـذارِ مِـنْ أسْـد الْعَـرينِ حَـذارِ

واستجاد تخلصه إذ يقول:

إنَّ الَّـذي خلـق الْخلائِـقَ قاتَهـا   أقْواتَهـا لتَصَـرُّفِ الأحْـرَاسِ

فـالْأَرْضُ مَعْـروفُ السَّـماءِ قِـرًى لَهـا   وَبَنُـو الرَّجـاءِ لَهُـمْ بَنـو العَبَّـاسِ

القَـوْمُ ظِـلُّ اللهِ أسـكَنَ دِينَـه   فِـيهمْ وهُـمْ جبَـلُ الْمُلـوكِ الرَّاسـي

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطع أحد وصفها به فقال:

جَاءَتْـكَ مِـنْ نظْـمِ اللِّسَـانِ قِـلادَةٌ   سِمْطـاَنِ فيهَـا الُّلؤلُـؤ المكْنُـونُ

إنْسِيَّةٌ وَحْشِيَّةٌ كَثُرَتْ بَهَا		حَرَكَاتُ أَهْلِ الأرضِ وَهْيَ سَكون
يَنْبوعُهَا خضِلٌ وَحَلْيُ قَرِيضِها		حَلْيُ الْهُدَى وَنسيجُها مَوْضونُ
قدْ حَاكَهَا صَنَعُ الضّمِيرِ يَمُدُّهُ		حَسَبٌ إذَا نَضَبَ الكلَامُ مَعِينُ
أمَّا المعانِي فهْيَ أَبْكارٌ إِذَا		نُصَّتْ وَلَكِنَّ الْقَوَافِيَ عُونُ

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي، وهو طويل ذكره برمته صاحب الآداب، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحتري والإصرار على كبت منافسه، وظهوره عليه، وظفر به، وانظر كيف يقول في ختام الحديث: «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا، أو شيئًا منه إلى السرقة والاختلاس؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحتري، أو أشعار المحدثين في عصره، من قبله؟ فعيي عن الجواب قصورًا، وأحجم المساجلة تقصيرًا، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين، وكان يومًا مشهودًا» (١) .

٢

وهذا النوع من النقد لا قيمة له، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور مناهج القدماء، فقد كان بشار يقول: أنا أشعر الناس، فإذا سئل في ذلك أجاب بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر، ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس. وكانوا يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق؛ ثم يفضلون جريرًا لأنه قال:

إن الَّذينَ غدَوْا بِلُبِّكَ غادَروا		وَشَلًا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي		مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى ولَقِينَا

---

(١) ومع هذا التحامل كان الحاتمي من أئمة النقد الأدبي. انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني كتاب «النثر الفني»؛ لترى قيمة هذا الناقد، وتعرف ما له وما عليه.

فإذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذّ الفرزدق؟ أجابوك: الفرزدق في فسوقه وفجوره، لم يجد التشبيب كما أجاده جرير في تحرجه وعفافه.

وقد يقولون: جرير أشعر؛ لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم يبكها إلا برائية جرير في امرأته، وهي القصيدة التي مطلعها:

لـــوْلا الحَيَـــاءُ لهـــاجَني اسْـــتِعْبارُ وَلــزُرْتُ قَبْـــرَكِ وَالْحَبِيـــبُ يُـــزارُ

وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله:

قِفـا نبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبيـبٍ وَمَنْـزِلِ بِسِـقْطِ اللّـوى بَـيْنَ الـدَّخولِ فحَومْـلِ

وقالوا: إنه بكى واستبكى وذكر الأحبة في بيت واحد!!

وقدم آخرون النابغة الذبياني لقوله:

نُبِّئْـــتُ أنَّ أبا قـــابوسَ أوْعَـــدَني وَلا قـــرَارَ عَلـــى زأرٍ مِـــنَ الأسَـــدِ

أو لقوله:

فإنَّــكَ كاللَّيْــلِ الَّــذي هــوَ مُـدْرِكِي وإنْ خِلْـتُ أَنَّ المُنْتـأى عَنْـكَ واسِـعُ

ومنهم من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار:

أنا واللهِ أشْـــتَهي سِـــحْرَ عَيْنيـــ ـــكِ وَأخْشـــى مَصـــارعَ الْعُشَّـــاقِ

وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبي ذؤيب الهذلي:

والـــنَّفْسُ راغِبـــةٌ إذا رَغَّبْتَهـــا وَإذا تُـــرَدُّ إلى قليـــلٍ تقْنَـــع

٣

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر غير ذلك المنهج الذي يرتكز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم يعنون حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة؛ ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم والوضع

الجديد، وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء، فلم يجد وجهًا لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ، فرد عليه الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ، فحافظ إبراهيم مخطئ في نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة، وهو مصيب في نظر علام سلامة لقربه من المعجم!

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة، والفقرة، واللفظة، لا يقدم ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء، فلا يمكن أن تصبح الخطة، أو الرسالة، أو القصيدة جيدة: لأن ألفاظها جميعًا مختارة، ولا أن تمسي سقيمة؛ لأن فيها ألفاظًا نابية، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يعنى به الكاتب، والشاعر، والخطيب، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية: «الصور الشعرية». وحين أتكلم عن إعجاز القرآن.

وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي ترتكز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء، فإن كان في ريب مما أسلفناه فليجب على هذا السؤال: أيرضيه أن أقول: إن شوقي أشعر الناس لقوله:

وطَــني لَــوْ شُــغِلْتُ بِالْخُلْــد عنْــهُ ... نَازعَتْــنِيْ إليْــه في الْخُلْــد نفْســي

ومطران أشعر الناس لقوله:

بنــاتِ الــدَّهْرِ عــوجي لا تَهــابي ... خــلا الْــوادي مِــنْ الأسْــدِ الْغِضَــابِ

وحافظ أشعر الناس لقوله:

عَمِلْــتُمْ عَلــى عِــزِّ الْجَمــادِ وَذُلِّنــا ... فــأغْلَيْتُمُو طِينًــا وَأرْخصْــتُمُو دَمَــا

إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطة المبهمة؛ لأنها تبيح لمثلي أن يزعم أنه أشعر الناس؛ لأنه يقول:

بَقيَّــةٌ مِــنْ صِــباكَ الغــضّ باقِيَــةٌ ... وَجَــذْوَةٌ مِــنْ غَرامــي وَقْــدُها باقــي

تَعَــالَ نُحْــي شــهِيدَ اللَّهْــوِ ثانِيَــةً ... وَنصْــرَع الْهَــمَّ بَــيْنَ الكــاسِ والسَّــاقي

الفصل السادس

الحاسة الفنية

١

هذا تعبير حديث يقابل: «سلامة الذوق». أو: «الذوق السليم» في عرف المتقدمين، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق؛ لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجده في التعبير القديم، وهي ترجمة لكلمة **sens** التي يراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز، أو قوة الإدراك، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة: «الذوق». فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص.

وقد بينا في البحث الأول: أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر؛ بل لأنه طرق موضوعًا يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه، أو قرأه جميلًا من الوجهة الفنية، ثم ضربنا لذلك الأمثال.

والآن نعود إلى «الحاسة الفنية» بشيء من التفصيل: فنذكر كيف عَوّل عليها المتقدمون من رجال البيان، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنال، ثم نميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة، التي لا تظهر ظهورًا جليًّا إلا حين نمعن في الخفاء.

٢

يرى صاحب المثل السائر «أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وأن الدربة والإدمان أجدى على القارئ نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا،

وأنهما يريانه الخير عيانًا، ويجعلان عسره من القول إمكانًا، وكل جارحة منه قلبًا ولسانًا». ويقول لقارئ كتابه: «فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطأك، وما مَثَلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفًا، ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال» [(١)] .

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تورث القارئ «الذوق» ولا تمنحه «الحاسة الفنية». وإنما يكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوق له: كما لا ينفع السيف من لا قلب له.

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الإِنْسَانُ طاقتهُ مـا كُـلُّ ماشِـيةٍ بالرَّحْـلِ شِمْـلالُ [(٢)]

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوق لجمال القول وسحر البيان. أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال – كما يفعل رجال اللغة والرواية – فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان في عمله واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فلتة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا يجد سبيلًا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ... ولا سبب لذلك فيما يرى إلا أن المبرد لم يعن بدرس أسرار البلاغة، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية، والنحو، والتصريف. ومن هنا لم يحسن الاختيار.

قال الجاحظ: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت، لا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومُحَمَّد بن عبد الملك الزيات.

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسره ابن رشيق، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب

---

(١) ص ٣ من المثل السائر.

(٢) الشملال، الناقة الخفيفة.

على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان؛ لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء، لا من طريق النقل، والفرق بين الوجهتين بعيد، ومن ثم كان الكتاب: «أرق الناس في الشعر طبعًا، وأملحهم تصنيفًا، وأحلاهم ألفاظًا وألطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم من التكلف» (١) . وكانوا يرونهم دهاقين الكلام، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين، كقول إبراهيم بن العباس الصولي:

ابْتـــــداءٌ بِالتجَـــــنِّي   وَاقْتِضــــــاءٌ بِالتَّظْـــــنِّي
وَاشْـــــتِفاءٌ بِتجَنِّيـــــ   ـــــكَ لأعْـــدائِكَ مِـــنِّي
بأبي قُــــلْ لي لِكـــــيْ أعْ   ـــلمَ لمْ أعْرَضْـــتَ عَـــنِّي
قــــدْ تَمَـــنَّى ذاكَ أعْـــدا   ئِـــي فقـــدْ نالُـــوا التمَـــنِّي

وكقول مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات:

قــــامَ بِقلْــــبي وَقعَــــدْ   لَمَّـــا نَفَـــى عَـــنِّي الجَلــدْ
يا صـــاحِبَ الْقصْـــرِ الّـــذي   أسْـــهرَ عَيْـــنِي وَرَقــدْ
وَاعَطَشْـــــي إلىَ فــــمٍ   يَمْـــجُ خَمْـــرًا مِـــنْ بَـــرَدْ
إنْ قُسِـــمَ النَّـــاسُ فحَـــسْ   ـــبي بِـــكَ مِـــنْ كُـــلِّ أحَـــدْ

وكقول ابن رشيق:

قـــدْ أحْكمـــتْ مِـــنِّي التَّجـــا   ربُ كُـــلِّ شْـــيءٍ غـــيْرَ جـــودي
أبــدًا أَقُــولُ لـــئِنْ كسْبـــ   ـــتُ لأقْبِضـــنَّ يَـــدَيْ شـــديد
حَــــتَّى إذا أثْرَيْــــتُ عُــــدْ   ـــتُ إلى السَّـــمَاحَةِ مـــنْ جَديـــد

(١) عبارة صاحب «العمدة» في أشعار الكتاب.

إِنَّ الْمُقَــــــام بِمِثْـــــــل [1] لِي لا يـــــتمُّ مَـــــعَ الْقُعُـــــود
لا بُـــــدّ لي مِـــــنْ رِحْلـــــةٍ تُـــدْنِي مِـــنَ الْأَمَـــل الْبَعِيـــد

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمَّد المهدي يقول: «كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح، ولا يجول في ميدان فسيح من المعاني، ولا يقدر الأشياء قدرها، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكمًا غير مزعزع ولا مدافع».

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب)، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب، ويدنيه من الفهم الصحيح.

٣

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدعيها جميع الناس، وإنما كانت عزيزة المنال؛ لأننا نزن بها البيان، والبيان كالجمال كثير التعقيد. ألا ترى أنك لا تعتد برأي من يحسب البياض نصف الحسن، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان: معقد وبسيط، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس، والذي يعرف بتناسب الأعضاء، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذه التي يهش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال. أما الجمال المعقد – وما أروع الجمال المعقد – فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود، وسحر العيون، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك، يرجع إلى دقائق من الحس، وغرائب من الملاحة، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال.

حدثني بربك كم في هذه «الأعداد» التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللفتة،

---

(١)

والخطرة، والمشية؟، وكن فيهم ممن يتخطى سواد العين، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز وألغاز، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد!!

وكم فيهم يعذر أبا الأسود إذ يقول:

أَبَى الْقلْـــبُ إلَّا أُمَّ عمـــروٍ وَحُبَّهـــا   عَجُـوزًا وَمَــنْ يُحْبِـبْ عَجـوزًا يُفنَّــدِ

كبُــرْدِ اليَمَــانِي قــدْ تقــادَمَ عَهْــدُه   وَرُقْعَتُــهُ مــا شِــئْتَ في العَــيْنِ والْيَــدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضري حين قال:

فــوَالله مــا أدري أزيــدَتْ مَلاحَــةً   وحُسْنًا عَلى النِّسْوانِ أمْ لَيْسَ لي عَقْلُ

وهو الذي صدق في وصفه أبي نواس إذ يقول:

يَزِيـــــدُك وَجْهُـــــه حُسْـــــنًا   إذا مَـــــا زِدْتَـــــهُ نظـــــرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه معقد وبسيط. أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس كقول طرفه بن العبد:

سَتُبْدي لـكَ الأيَّامُ مـا كُنْـتَ جاهِلًا   وَيأتِيــكَ بِالأَخْبَــارِ مَــنْ لَمْ تُــزَوِّدِ

وكقول لبيد:

ألا كُــلُّ شْــيءٍ مــا خــلا الله باطِــلُ   وَكُـــلُّ نعـــيمٍ لا مَحَالـــةَ زائِـــلُ

وكقول شوقي:

وَإنَّمــا الأُمَــمُ الأَخْــلاقُ مــا بَقِيَــتْ   فــإنْ هُمــو ذَهَبَــتْ أَخْلاقُهُــمْ ذهبــوا

ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير، كقوله تعالى: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، وكقوله عز شأنه: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وكقوله تبارك اسمه: قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يستخدم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود، وما إلى ذلك مما تحدد به العلاقات بين الأمم والأفراد، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه: «إن من البيان لسحرًا». والذي قيل فيه: «شيئان لا نهاية لهما: البيان والجمال». وفي الناس من يفتنه إشراق الديباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القد الرشيق.

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فلست أريد اللبس والغموض المعقد، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم، والأسلوب الجميل، قوة في التأثير يحار في تعليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول؟

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبصر فيها بالنبي ﷺ وهو إذ ذاك غلام مراهق، فقال لمن حضر من القوم: إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبوءة، وتارة بعيني عذراء خفرة، فلو أن نظرته الأولى كانت سهمًا لانتظمت أفئدتكم فؤادًا فؤادًا، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيمًا لأنشرت أمواتكم! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفسن ويظهر أيضًا أن الجمال لا يعقد إلا حين تعقد النفس، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطخب فيه الأمواج، أو كالميدان تشتجر فيه الرماح أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان، ومن يدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ... فما نظن أن صواحباته قطعن أيديهن، وعذرن فيه امرأة العزيز: لإسالة خده، وسواد شعره، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تضمر ما تضمر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة السحارة، القهارة، تلك النفس المفردة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد تمزيق القلوب. وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل أينظر بعيني لبوءة، أم بعيني عذراء خفرة؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان يعده لحمل الرسالة، ويرشحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها

يرن في أجواز الوجود.

وللبيان المعقد مثل هذا النصيب من بعد الغور، ودقة المدلول، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن إليه القلوب، وتحار في تعليله العقول، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم يقرؤه الخاصة فيفتتنون به، ويحارون في تعليل حسنه، ثم لا يحسن واصفهم إلا أن يقول: هذا هو السحر الحلال.

٤

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان: فهو تارة يرتكز على سمو الخيال، كقول بعض الحكماء: «من غمس يده في مال السلطان، فقد مشى بقدمه على دمه». ففي هذه الكلمة من روعة التخييل، وحسن التصوير، ما يدهش العقول، ويحير الألباب. وكقول أرطاة بن سهية المري:

فلَوْ أنَّ ما نُعْطي مِنَ المالِ نبْتغِي ... بِهِ الْحَمْدَ يُعْطي مِثْلَهُ زاخِرُ الْبَحْرِ
لظلَّتْ قَراقيرٌ صِياَمًا بِظاهِرٍ ... مِنَ الضَّحْلِ كانتْ قَبْلُ في لُجَجٍ خُضْرِ[1]

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بشعة مخيفة يهابها الوهم وتتحاماها الظنون، فهو يذكر أن البحر الزاخر، الذي يجن ما يجن، ويظهر ما يظهر، والذي يروعك منظره، ويهولك مخبره، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صبابات من الماء، وقد كانت قبل في لجج رهيبة السواد، وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد، وإن عز البحر عن النظائر، وجل عن الأشباه.

ومن رائع الخيال قول أبي نواس:

ألا لا أرَى مِثْلي امْتَرَى الْيوْمَ في رَسْمِ ... تَغَصُّ بِهِ عَيْني وَيَلْفِظُهُ وهْمِي

(١) القراقير السفن: والمفرد قرقور على وزن عصفور، وصيام السفن: ركودها والضحل: الماء القليل لا عمق له، واللجج الأخضر: هي السود.

أَتَـتْ صُـوَرُ الأَشْـياءِ بَيْـنِي وَبَيْنَـهُ فَظَـنِّي كـلا ظَـنٍّ وَعِلْمـي كـلا عِلْـم

فأنت تراه، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء، وغيره الدروس حتى ارتاب فيه، وغصت به عينه، ولفظه وهمه، ثم أغرقك في بحر من التخيل حين قال:

أَتَـتْ صُـوَرُ الأَشْـياءِ بَيْـنِي وَبَيْنَـهُ فَظَـنِّي كـلا ظَـنٍّ وَعِلْمـي كـلا عِلْـم

وعليك أن تستوعب هذا المعنى، فقد فتحت لك الباب.

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني:

إذا مـا عَلَـتْ مِنَّـا ذُؤَابَـةَ شـاربٍ تَمَشَّـتْ بـه مَشْـي المُقَيَّـدِ في الْوَحْـلِ

وكان يقول قاتله الله! ما كفاه أن جعله مقيدًا حتى جعله في وحل! وهذا كما ترى أبدع ما يصور به النشوان.

ولا تنس القرآن، فإنه غاية الغايات في روعة الخيال، وانظر قوله تعالى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة، ورأى كيف يكون هوج الريح، وجنون الموج، وعسف الظلام، وكم في الحياة من أهوال!

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء، وهذا أحسن تأويل لكلمة: «المطمع الممتنع» فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عز عليك وامتنع، وإليك قول ابن الدُّمينة يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة، وبالصلابة حين يجور اللائمون:

وكـوني عَلَـى الْواشـينَ لـدَّاء شَـغْبَةً كمـا أنا بِالْواشـي ألَـدُّ شـغوبُ
وَكُـونِي إذا مـالُوا عَلَيْـكِ صَـلِيبَةً كمـا أنا إنْ مـالوا عَلـيَّ صَـليبُ

فهذا كلام سهل، يسكن إليه القلب، وتخلد إليه النفس، ولكنه يعز على من يرومه، ويطول على من يسمو إلى محاكاته. ومثله في بساطته ودقته قول بعض الأعراب:

إذا اجْتمَـعَ الجـوعُ المُـبَرِّحُ وَالْهَـوَى عَلَـى الرَّجُـلِ المِسْـكينِ كـادَ يَمـوتُ

وهي فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين.

وأظرف منه قول الآخر، وقد تمردت عليه امرأته وضريت على إيذائه:

يا رَبِّ إنْ قَتَلْتَهَا فعُدْ لَهَا ... فَلَنْ تَمُوتَ أو تُجِيدَ قتْلَهَا

فقد مثلها بالحية النضناض، التي يُقتلها المرء تقتيلًا، ثم لا تزال تبدو لعينيه، وكأنها تسعى.

٥

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين: من شاعر، أو كاتب أو خطيب، فإن هناك نفوسًا خطرة قد تضلك وقد تهديك حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر، وقد رأى تجمع الأعداء وتوثبهم:

وَقُلْتُ لِزيْدٍ لا تُتَرْتِرْ فَإِنَّهُم ... يَروْنَ الْمَنايا دونَ قَتْلِكَ أوْ قتْلي

فإنْ وَضعوا حَرْبًا فَضَعْها وَإِنْ أبَوْا ... فَعُرْضَةُ عَضِّ الحْربِ مِثْلُك أو مِثلي

وَإنْ رَفعوا الحْرْبَ الْعَوَانَ الَّتي تَرَى ... فَشُبَّ وُقُودَ الحْرْبِ بِالْحَطَبِ الجَزْلِ

فهذه النفس المعقدة في أغراضها ومراميها هي التي وقفتك موقف الحيرة أمام هذه الأبيات، فأنت ترى فتى شجاعًا مقدامًا لم تنسه شجاعته، ولا إقدامه ما يحيط به من عظائم الأخطار، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء، وإلى شب وقودها بالحطب الجزل إن أبوا إلا القتال، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال.

وانظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء:

وَقُلْتُ لِغَلَّاقٍ بِعِرْنانَ ما تَرَى ... فما كادَ لي عَنْ ظَهْرِ واضِحَةٍ يُبْدي

تَبَسَّمَ كَرْهًا وَاسْتَبَنْتُ الَّذي بِهِ ... مِنَ الحَزَنِ الْبادي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

إذا المَرْءَ أعْراهُ الصَّديقُ بَدَتْ لَهُ ... بِأَرْض الأعادي بَعْضُ أَلْوانِها الرَّبْدِ

٦

وتلك أيها القارئ خواص يراد بها التقريب لا التحديد، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تدق حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ. والآمدي يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية، وبالجاريتين البارعتين في الجمال السليمتين من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلًا كبيرًا، بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته، وكذلك الشعر كما يقول الآمدي، قد يتقارب البيتان الجيدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود: إن كان معناهما واحدًا، وأيهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفًا [1] .

وحكى إسحاق الموصلي قال: سألني مُحَمَّد الأمين عن شعرين متقاربين وقال: اختر أحدهما. فاخترت فقال: من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان؟ فقلت: لو تفاوتا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان.

والطبيعة في كلام إسحاق هي ما نريده من الحاسة الفنية. وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث.

---

(١) انظر تفصيل رأي الآمدي في الجزء الثاني من كتاب: «النثر الفني».

الفصل السابع

خطر الإبهام والغموض

١

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسسًا على قواعد واضحة صريحة لا إبهام فيها ولا غموض؛ ليظفر الناقد باقتناع القارئ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان.

وأخطر ما يعرف للنقد والمماثلة أن يعمد الموازن إلى التعابير المصبوبة في قوالب المجاز، فإنها بئس الأداة في الفصل بين الشعراء، كأن يقول: «هذا شعر أبدت صدوره متونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديه، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه واتساع رسومه، وتسطير كفوفه، وتحبير حروفه، وحكى العقد في التئام فصوله وانتظام وصوله، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشذره، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصلة، وشحذت مدارس الأدب فواصله».

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشيء في وصف الشعر الجميل، وهو صاحب هذه المنظومة:

الشِّـعْرُ مَـا قَوَّمْـتَ زَيْـغَ صُـدُورِهِ وشـدَدْتَ بالتَّهـذيبِ أَسْـرَ مُتونِـهِ
وَرأَيْـتَ بالإِطْنـابِ شَـعْبَ صُـدوعِه وَفَتَحْـتَ بِالإِيجـاز عُـوْرَ عُيونِـهِ
وَجَمَعْـتَ بَـيْنَ قَريبِـهِ وَبَعيـدِهِ وَوَصَـلْتَ بَـيْنَ مُجَمّـهِ ومَعَينِـهِ
وَعَهِـدْتَ مَنْـهُ لكـلِّ أمْـرٍ يَقْتَضـي شَـبَهًا بـهِ فَقَرَنْتَـهُ بِقَرينِـهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون، كما عنوا بمنظومته الأخرى التي يقول فيها:

إِنَّمَــا الشِّــعْرُ مَــا تَنَاسَــبَ في النَّظْــ ـــم وإنْ كــانَ في الصِّــفَاتِ فُنُــونا
فَــأَتَى بَعْضُـــهُ يُشَـــاكِلُ بَعْضًـــا قَــدْ أَقَامَــتْ لَــهُ الصُّــدورُ المُتُــونا
كُــلُّ مَعْــنىً أتاكَ مِنْــهُ عَلَــى مــا تَتَمَـــنَّى لَـــوْ لَمْ يَكُـــنْ أَنْ يَكــونا
فَتَنَـــاهَى مِـــنَ البَيَـــانِ إِلَى أَنْ كـــادَ حُسْـــنًا يَبِـــينُ للنَّاظِرِينـــا
فَكَـــأَنَّ الأَلْفَـــاظَ فِيــهِ وُجــوهٌ وَالمَعَـــاني رُكِّـــبْنَ فِيــهَ عُيــونا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغني في تحديد الموصوف: بل يلقي عليه أستارًا من اللبس والغموض، فإنه لا قيمة لمدح الشعر بتقويم زيغ صدوره، وشد أسر متونه، والجمع بين قريبه وبعيده، والوصل بين مجمه ومعينه، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم بها المتكلفون.

٢

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في إحدى مقاماته إذ قال: «جلسنا يومًا نتذاكر الشعر والشعراء، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذ مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال: أصبتم عذيقه، ووافيتم جذيله، ولو شئت للفظت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم، ويردي العصم، فقلت: يا فاضل ادن فقد منيت، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال: سلوني أجبكم، واستمعوا أعجبكم.

قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسيًا، ولم يجد القول راغبًا، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائبًا.

قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق؟ قال: جرير أرق شعرًا، وأغزر غدرًا والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وجرير أوجع هجوًا، وأشرف يومًا والفرزدق أكثر رومًا، وأكرم قومًا، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: «المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر في المعاني حظًّا، والمتأخرون ألطف صنعًا، وأرق نسجًا».

ولو عدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوسًا لكل موصوف، فكل شاعر فيما أظن: «ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب». ومن اللبس أن نقول في وصف شاعر: «هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها»، أو أن تقول: «إنه أمتن صخرًا أو أكثر رومًا». ومن المجازفة أن تقول: «المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر في المعاني حظًّا». وقد ظرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وُكناتها من خواص اللصوص، وهذا بالطبع لا يقدح في سمو تلك العبارة إلا حين ترسل بلا تقييد، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال:

وَقَدْ أغْتَدِي وَالطَّيْرُ في وُكْنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوابِدِ هيْكَلِ

على أن هذا البيت لا يدل على أن: «صاحبة أول من اغتدى والطير في وكناتها»، كما قال بديع الزمان.

٣

وقال ابن دريد: سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال: إن جد أحسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يلقى الكلام على عواهنه لا يبالي من أين أخذه.

قلت: فبشار بن برد؟ قال: نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه، على أن في شعره خللًا كبيرًا.

قلت: فمروان بن أبي حفصة؟ قال: شاعر راض عن نفسه، يستحسن كل ما جاء منه، معجب لا يرى أن أحدًا يتقدمه، كثير الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صنعة.

قلت: فمسلم بن الوليد؟ قال: خليج صاف ينزع من بحر كدر، كالزند، يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت: فأبو العتاهية؟ قال: غثاء جم، واقتدار سهل، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت: فعباس بن الأحنف؟ قال: يلقي دلوه في الدلاء، فيغترف الصفو أحيانًا والحمأة أحيانًا، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت: فسلم الخاسر؟ قال: مقل مداح، شعره ديباج وعهن، يموه الرديء حتى يشبه الجيد.

قلت: فأبو الشيص؟ قال: جده كله فيه حلاوة وبشاعة، كالسدرة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع.

قلت: فعلي بن جبلة؟ قال: بحاث عن الكلام الفخم، والمعنى الرائع، لا ينال مرتبة القدماء، ويجل عن منزلة النظراء.

قلت: فأبو تمام؟ قال: مسيل كثير الغثاء، غزير الغمار، جم النطاق، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال.

قلت: فعبد الصمد بن المعذل؟ قال: خراج ولاج: يعتسف تارة ويهتدي أخرى.

قلت: فعلي بن الجهم؟ قال: كلام رصين، ومسلك وعر، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت: فبكر بن النطاح؟ قال: تشبه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولدين فأسهب، فهو الساقط بين القرينين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بيانًا لبعض خصائص الشعراء، ولكنا نستنكر أن تحدد شاعرية شاعر بأنه: «خراج ولاج، يعتسف تارة ويهتدي أخرى»، أو بأنه: «خليج صاف ينزع من بحر كدر»، أو بأنه: «لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء».

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين، ولم يسلم منه الجاحظ على بصره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنه: «ملس المتون ليس له عيون»، وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى معنى محدود.

٤

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل في حين إن الموازنة لا يراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الأغراض، وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكتابه، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر: «لو كان طيرًا يغرد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء».

ونجد محمدًا السباعي يصف شكسبير بأنه: «منحة الطبيعة وجائزة الدهر». ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول:

مــا ثُغــورُ الزَّهْــرِ في أكمامِهــا ضــاحِكات مِــنْ بُكــاءِ السُّــحُبِ

نَظَــمَ الــوسْمِيُّ فيهــا لُؤلُــؤًا كثنــايا الغِيــد أوْ كالحَبَــبِ

عِنْــدَ مَــنْ يَقْضــي بأَبْهَــى مَنْظــرًا مِــنْ مَعَانِيــهِ الَّــتي تَلْعَــبُ بِي

بَسَــمَتْ لِلــذِّهْنِ فَاسْــتَهْوَتْ نُهَــى مُغــرم الفَضْــل وصَــبّ الأَدبِ

ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش: «لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدي سواء».

وقوله في المرحوم قاسم أمين: «ما رأيت باطلًا أشبه بالحق من باطله». وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاب البيان.

٥

إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات:

(١) أن يذكر حياة من يوازن بينهم من الشعراء، وأن يعين ما في حياة كل شاعر من

ألوان الشدة، أو صنوف الرخاء.

(٢) وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال.

(٣) وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يريد وزنه ونقده.

(٤) وأن يحدد الصفات التي اشترك فيها من يوازن بينهم، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني، والألفاظ، والأساليب، ويوازن بين القصائد والمقطوعات، والأبيات اليتيمة.

(٥) وأن يدقق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة، ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذي سبق إليه، وكيف هذبه، وكيف بسطه، حين يجود أخذه، وتلطف سرقته، وكم في الشعراء من سارق لطيف!

(٦) وأن يعد ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع، وما أجاد أخذه، وما ابتكره وما انفرد به، فقد يبتكر الشاعر المعنى، ثم يغلب عليه حين يقصر في تأديته، وقد يبتكر المعنى، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء.

(٧) وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد وحين يختلفان في ذلك.

(٨) وأن يبين أسباب السبق، وأسباب التخلف، مع التعمق في استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس، ولفتات القلب، ونوازع الوجدان.

(٩) وأن يعد ما لكل شاعر من المعاني الموضعية، التي اقتضاها زمانه ومكانه والمعاني الإنسانية، التي تصلح لجميع الناس، على تباين الأمكنة واختلاف العصور.

(١٠) وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من: «الصور الشعرية». وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان.

الفصل الثامن

الصور الشعرية

١

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، ألقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراة، فساعدني ذلك على تحديد، وضبط المراد منه، وكشف ما يعتوره من الغموض، وإلى القارئ البيان:

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف «المرئيات» وصفًا يجعل قارئ شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود والذي يصف «الوجدانيات» وصفًا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد.

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف، فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح:

صَـهْباءُ تَبْـني حَبَـابًا كُلَّمـا مُزِجَـتْ ... كأنّـــهُ لُؤلُـــؤٌ يَتْلُـــوهُ عِقْيـــانُ

كانـتْ عَلَـى عَهْـدِ نُـوحٍ في سَـفينَتِهِ ... مِـنْ حَـرّ شَـحنَتِها والأرْضُ طوفـانُ

فَلَـمْ تَـزَلْ تَعجُـمُ الـدّنيا وتعجُمُهـا ... حَـتى تَخَيَّرَهـا للخَـبْءِ دُهْقـانُ

فَصـانَها في مَغـارِ الأرْضِ فاخْتَلَفـتْ ... عَلَـى الدَّفينَـةِ أزْمـانٌ وأزْمَـانُ

ببَلْـدَةٍ لَمْ تَصِـلْ كَلْـبٌ بِهـا طُنُبًـا ... وَلا خِبـاءُ وَلا عَـبْسٌ وذُبْيـانُ

لَيْسَـتْ لِـذُهْلٍ ولا شَـيْبانِها وَطَنًـا ... لكِنَّهـا لبَـني الْأَحْـرارِ أوْطـانُ

أرْضٌ تَبَـنَّى بِهـا كِسْـرى دَسَـاكِرَهُ ... فَمـا بِها مِـنْ بـني الأعْـرابِ إنْسـانُ

وَمـا بِهـا مِـنْ هَشـيمِ العُـرْبِ عَرْفَجـةٌ وَلا بِهـا مِـنْ غِـذاءِ العُـرْب خُطْبـانُ
لكِـــنْ بِهـــا جُلُّنَـــارٌ قَـــدْ تَفَرَّعَـــهُ آسٌ وكلَّلـــــــه وردٌ وسوســـــــانُ

ولو عرضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عرضت على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية لوصفت على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظ لها من الروعة، ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الخمر، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس؟ كلا! لم يصنع شيئًا من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حبابًا كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة، وأن عهدها بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحدثان، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان، ولم يكفه ذلك بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار، والورد، والآس والسوسان.

إذًا أخطأ أبو نواس حين غلا في الإشادة بعتق الصهباء؛ لأن عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البينة على أنها من عهد الطوفان، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود، فقد يكفيهم أن توصف بالقدم، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي:

لَطُفَـتْ فَقَـدْ كـادتْ تَصـيرُ مُشـاعةً في الجـوِّ مِثـل شُـعاعِها ونسِـيمِها

أو كما قال ابن المعتز:

جَـرْت حركـاتُ الـدَّهْر فَـوق سُـكونِها فَـدابتْ كـذَوْبِ التبرْ أخْلصهُ السَّبْكُ
فَقَـدْ خَفِيـتْ مِـنْ صَـفْوِها فَكَأَنَّهـا بَقـايا يَقـينٍ كـاد يُدْرِكُـهُ الشَّـكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئًا غير وصف الخمر، ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما

للعرب من طنب وخباء، وما بأرضهم من عرفج وخطبان.

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس، فما تظن أحدًا يستنكر قول البحتري في وصف الشمول:

بِكْــرٌ تَقَــدَّمتِ الزَّمَــانَ بغَرْسِــها ... إنْ كـان قَبْـل الـدَّهْرِ شـيءٌ يُغْـرسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم، وأنه في ذلك غير مسبوق أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغًا؛ ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب؟ إن هذا لبعيد!

ولا ننكر أن الصفة الغالية لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل، فقد تكون الراح جبارة قهارة، وهي في مبعة الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الخير اليقين.

٢

وللنظر قول أبي نواس من كلمة ثانية:

دَعْ عَنْـكَ لَـوْمي فَـإنَّ اللَّـوْمَ إغْـراءُ ... ودَاوِني بالَّـتي كانَـتْ هـيَ الـدَّاءُ

صَـفْراءُ لا تَنْـزِلُ الأحْـزانُ سَـاحَتَها ... لَـوْ مَسَّـهَا حَجَـرٌ مَسَّـتْهُ سَـرَّاءُ

قامــتْ بإبْرِيقِهــا واللَّيْــلُ مُعْتكــرٌ ... فَـلاحَ مِـنْ وجْههـا في الْبَيـت لألاءُ

فأرْسـلَتْ مِـنْ فَـمِ الإبْريـق صـافيَة ... كَأنَّمَــا أخْــذُها بالعَــيْنِ إغْفَــاءُ

جَفَّـتْ عَـنِ المـاءِ حَـتَّى مـا يُلائِمُهـا ... لَطافَـةً وَجَفـا عَـنْ شَـكْلِها المـاءُ

فلَـوْ مَزَجْـتَ بهـا نُـوراً لَمَازَجَهـا ... حَـتَّى تَوَلَّـدَ أنْـوارٌ وأَضْـواءُ

وهذه صورة شعرية للراح، ألم فيها الشاعر بصفاتها المختلفة، أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعًا من الإغراء، واستصرخ الساقي ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع يذكر أنها

صفراء اللون، وأن الحزن لا يحل لها ساحة، وأن الحجر لو مسها مسته السراء، وأنها حين قامت بإبريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لألاء، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذاب الفرات، فإن عجز المصطبح أو المغتبق عن شربها صرفة فليمزجها بالنور فإنه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما تتولد الأنوار والأضواء.

٣

وقد يلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثاني لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن احداهما في الواصف وأخراهما في الموصوف؛ لأن الشاعر لا يصف شيئًا إلا متأثرًا بحسنه أو قبحه، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال، وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقي مثلًا، وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصّرَ في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عُنين:

وِمُدامـــةٍ لَمْ يُبْــقِ طـــولُ ثَوائِهـــا ... في خِــــدْرِها إلّا ومـــيضَ شُـــعاعِ
مِــنْ كــفٌ مَصْــقولِ الْعــوارِضِ آنِــسٍ ... يَرْنـــو بِمُقْلـــةِ جُـــؤْذَرٍ مُـــرْتاعِ
وقفــتْ عَــوارِضُ صُــدْغِهِ في خَــدِّهِ ... حَيْــرَى وبانــتْ في القُلــوبِ سَــواعِ
راضــتْ خلائِقَــهُ العُقــارُ وبــدَّلتْ ... نَـــزق الصـــبِّا بِمـــوَفَّرٍ مِطْـــواعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء إنما هي تشبيب، ومثلها قول البحتري، وقد صرعت نديمه الصهباء:

ونـــدِيمٍ حُلُـــوِ الشـــمائِلِ كالدِّيـــ ... ـــنارِ مَحْـضِ النِّجـارِ عَـذْبِ المصـفَّى
بِـــتُّ أسْـــقيهِ صَـــفْوةَ الـــرَّاحِ حَـــتى ... وَضَـــعَ الكـــأسَ مـــائِلًا يَتَكَفَّـــا

قُلْتُ عَبْدَ العزيزِ نَفْديكَ نَفْسي! قال لَبَّيْكَ! قُلْتُ لَبَّيْكَ أَلفَا!
هاكها! قال هاتِهَا! قُلْتُ خُذْها قال لا أسْتَطيعُها، ثُمَّ أغْفَى

وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة، وليس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق.

٤

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسامع، ألا ترى أن قول بعض الأندلسيين:

أخافُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنَيْ رقيبِي وَمِنْ عَيْني وعيْنِك والزَّمانِ
ولَوْ أنِّي وضعْتُك في عُيوني إلَى يوْمِ القْيامةِ ما كفاني

أقل تأثيرًا في النفس من قول ابن الرومي:

أعانِقُهُ والنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وهلْ بَعْد العِناقِ تَدانِ
وألْثمُ فاهُ كيْ تَزول حَرارَتِي فَيشْتَدُّ ما ألقَى مِن الْهَيمانِ
وَلَمْ يَكُ مِقْدارُ الَّدي بِي مَن الجوى لِيرْوِيَهُ ما تلْثمُ الشَّفتانِ
كأنَّ فُؤْادي ليس يَرْوي غَليلَهُ سِوى أنْ يَرى الروحْينِ يَمْتَزِجانِ

لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء، وتنقل بالقارئ السامع من حال إلى حال، وذكر أمورًا فطرية يشعر بمثلها كل متيم مشغوف، ثم علل شرهه في صبوته بخطر لوعته وفرط حواه، وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكينه في النفوس، وفي تحليل المعاني وتعليلها يتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء.

الفصل التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئًا عما أريده من الصور الشعرية، ولكنه شيء يسير لا يغني في إماطة اللثام عن هذا الفن الجديد، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية، والتمثيل المعروف في علم البيان، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية، وهو خطأ مبين.

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس؛ لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية في تحقيق غاية البيان، ولنضرب لذلك الأمثال.

١

من الحكم المأثورة قول أبي الدرداء: «من لك بأخيك كله». يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكًا لأخيه. هذا هو أصل المعنى، وتلك هي صورته الأصلية، فلننظر كيف بسطه بشار بن برد حين قال:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمور مُعاتِبًا ... صَديقَكَ لَمْ تَلْقَ الْذي لا تُعاتِبُهُ
فَعِشْ واحِدًا أو صِلْ أخاك فإنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهُ
إذا أَنْتَ لَمْ تَشْربْ مِرارًا عَلَى الْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأيُّ النَّاسِ تَصْفو مَشارِبُهْ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة: «من لك بأخيك كله». كلمة مبهمة لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد: ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور

فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه؛ لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وأنك مضطر إلى إحدى اثنتين: إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب «مرارًا» على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود؟!

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملأ للقلب، من كلمة أبي الدرداء، وإليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى:

وكَمْ صَاحِبٍ كالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُه ... أَبى بَعْدَ طُولِ الغَمْزِ أَن يَتَقَوَّما
تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظاهِرًا مُتَبَلِّجًا ... وَأَدْمَجَ دوني باطِنًا مُتَجَهِّما
فَأَبْدَى كَرَوْضِ الحَزْنِ رَقَّت فُروعُهُ ... وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الخِدارِيّ مُظْلِما
وَلَو أَنَّني كَشَّفتُهُ عَنْ ضَميرِهِ ... أَقَمْتُ عَلَى ما بَيْنَنا اليَوْمَ مَأتَما
فَلا باسِطًا بِالسُّوءِ إن ساءَني يَدًا ... وَلا فاغِرًا بِالذَّمِّ إنْ رابَني فَما
كَعُضْوٍ رَمَتْ فيهِ اللَّيالي بِقادِحٍ ... وَمَنْ حَمَلَ العُضْوَ الأَليمَ تَأَلَّما
إذا أَمَرَ الطِّبُّ اللَّبيبُ بِقَطْعِهِ ... أَقولُ عَسَى ضَنًّا بِهِ وَلَعَلَّما
صَبَرْتُ عَلى إيلامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ ... وَمَنْ لامَ مَنْ لا يرْعَوي كان أَلوَمَا
هِيَ الْكَفُّ مَضٌّ تَرْكُها بَعْدَ دائِها ... وَإن قُطِعَت شانَتْ ذِراعًا وَمِعْصَما
أَراكَ عَلَى قَلْبي وَإنْ كُنْتَ عاصِيًا ... أَعَزَّ مِنَ القَلْبِ المُطيعِ وَأَكْرَما
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَينِ لَجَّ بِها القَذَى ... فَلا تَنْجَلي يَوْمًا وَلا تَبْلُغُ العَمَى
دَعِ المَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى ما ذَمَمْتَهُ ... وَلا تَنْشُرِ الدَّاءَ العُضالَ فَتَنْدَما
إذا العُضوُ لَمْ يُؤْلِمْكَ إلّا قَطَعْتَهُ ... عَلى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلا دَمَا
وَمَنْ لَمْ يُوَطِّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الأَذَى ... تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلَّ وَأَعْظَما

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف الرضي، وانظر

كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبهه بالرمح الذي زاغت كعوبه، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج، وتغافل عن باطنه المتجهم، وكيف مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتمًا أي مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه، ثم انظر كيف صور هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بقادح، والذي يؤلم حمله، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضٌّ بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضي، عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لج بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة:

دَعِ المَـرْءَ مَطْـوِيًا عَلَـى مـا ذَمَمْتَـهُ ... وَلا تَنْشُـرِ الـدَّاءَ العُضَـالَ فَتَنْـدَما

إِذا العُضـوُ لَمْ يُؤْلِمْـكَ إِلّا قَطَعْتَـهُ ... عَلـى مَضَـضٍ لَمْ تُبْـقِ لَحْمًـا وَلا دَمَـا

وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة يشار أولًا، وكلمة الشريف الرضي ثانيًا، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ؟

٢

رثى مويلك المزموم امرأته أم العلاء فقال:

أُمْـرُرْ عَلَـى الجـدثِ الّـذِي حلّـتْ بِـهِ ... أمُّ الْعَـلاءِ فنادِهـا لـوْ تَسْـمَعُ

أنىّ حللْـتِ وكُنْـتِ جـدَّ فروقـةٍ ... بلـدًا يمُـرُّ بـهِ الشُـجاعُ فيفْـزَعُ

صـلّى عليْـكِ اللهُ مِـنْ مَفْقـودَةٍ ... إذْ لا يُلائِمُـكِ المكـانُ الْبَلْقَـعُ

فَلقـدْ تَرَكْـتِ صـغيرةً مرْحومـةً ... لَمْ تـدْرِ مـا جـزَعٌ عَلَيْـكِ فتَجْـزَعُ

فَقَـدَتْ شمائِـلَ مِـنْ لِزامِـكِ حُلْـوَةً ... فَتبِيـتُ تُسْـهِرُ أَهْلَهَـا وَتُفَجِّـعُ

وَإذا سَمِعْـــتُ أنينَهـــا في لَيْلِهـــا   طُفِقَـتْ عَلَيْـكِ شـئونُ عَيْـني تـدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح إلى عالم الفناء، وهي بعد التحليل ترجع إلى فكرتين:

الأولى: التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع.

والثانية: الأسف على ما لقيت طفلتها من فقد شمائلها الحلوة.

وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئًا من الوضوح، وأن يعمد في الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبثه؛ لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير.

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات:

أَلَا مَـنْ رَأَى الطِّفْـلَ المُفـارِقَ أُمَّـهُ   بُعَيْـدَ الكَـرَى عَيْنَـاهُ تَبْتَـدرانِ

رَأى كـلَّ أُمٍّ وَابْنَهـا غَيْـرَ أُمِّـهِ   يَبيتـانِ تَحْـتَ اللَّيْـلِ يَنْتَجِيـانِ

وَباتَ وَحيـدًا في الْفِـراشِ تَحُثُّـهُ   بَلابِـلُ قَلْـبٍ دَائِـمِ الْخَفَقَـانِ

أَلا إنَّ سَـجْلًا واحـدًا قـدْ أَرَقْتُـهُ   مِـنْ الـدَّمْع أوْ سَـجْلَيْنِ قـدْ شَـفَيَانِي

فَـلا تَلْحَيـاني إنْ بكيْـتُ فإنَّمـا   أُداوي بِهَـذا الـدَّمْع مـا تَـرَيانِ

وإنَّ مَكـانًا في الثَّـرَى خُـطَّ لَحْـدُهُ   لِمَـنْ كـانَ في قلْـبي بكُـلِّ مَكَـانِ

أحـقُّ مَكـانٍ بِالـزِّيارَةِ والْهَـوَى   فَهـلْ أنْتُمـا إنْ عُجْـتُ مُنْتَظِـرانِ

فَهَبْـني عَزَمْـتُ الصَّـبْرَ عَنْهـا لأنَّـني   جَليـدٌ فَمَـنْ بِالصَّـبْرِ لابْـنِ ثَمَـانِ

ضعيفِ الْقُوَى لا يَعْرِفُ الْأجْرَ حِسْبَةً   ولا يأْتَسـي بِالنَّـاس في الْحَـدَثانِ

ألا مَـنْ أُمنِّيـهِ المُـنَى فَأعِـدُّهُ   لِعَثْـرةِ أيامـي وَصَـرْفِ زَمـاني

أَلا مِـنْ إذا مـا جئْـتُ أَكْـرَمَ مَجْلِسـي   وَإنْ غِبْـتُ عنْـهُ حـاطَني وَرَعـاني

فَلَـمْ أرَ كالْأَقْـدارِ كَيْـفَ يصـبنَني   ولا مِثْـلَ هَـذا الـدَّهْرِ كَيْـفَ رَمـاني

فإذا وازنا بين هذه القطعة وبين تلك وحدنا في الأخيرة صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجع في أمه، والرجل المفجع في زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله:

رَأى كــــلَّ أُمّ وَابْنَهـــا غَيْـــرَ أُمّـــهِ ... يَبيتـــانِ تَحْـــتَ اللَّيْـــلِ يَنْتَجَيـــانِ

وَباتَ وَحيـــدًا في الْفِـــراشِ تَحُثُّـــهُ ... بَلابِـــلُ قَلْـــبٍ دَائِـــمِ الْخَفَقَـــانِ

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسي، وتأمل كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الوفق، وما للرجل من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه، وكم في الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف!

وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينة من قوله في تلك الفقيدة الغالية:

أَلا مِـنْ إذا مـا جئْـتُ أَكْـرَمَ مَجْلِسـي ... وَإِنْ غِبْـتُ عنْـهُ حـاطَني وَرَعـاني

وأحب لو أعاد القارئ النظر في هذين البيتين:

وإِنَّ مَكـانًا في الثَّـرَى خُـطَّ لَحْـدُهُ ... لِمَـنْ كـانَ في قلْـبي بكُـلِّ مَكَـانِ

أحـــقُّ مَكـــانٍ بِالـــزّيارَةِ والْهَـــوَى ... فَهـــلْ أَنْتُمـــا إِنْ عُجْـــتُ مُنْتَظِـــرانِ

فإنهما غاية في تمثيل الحنو على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل!

٣

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر ما يغني عن القطيعة، وذلك قوله:

وَيَا رُفْقَـــةً مَـــرَتْ بِجَرْعَـــاء مالِـــكٍ ... تَـــؤُمُّ الحِمَـــى أنضـــاؤُها والْمطَاليـــا

نَشَـــــــدْتكُمُو باللهِ إلّا نشَـــــــدتُمُو ... بِـــهِ شُـــعْبَةً أَضْـــلَلْتُها مِـــنْ فُـــؤادِيا

وقُلْـــــتُمْ لِحَـــــيٍّ نازلِـــــين بِقُرْبِـــــهِ ... أَقـــامُوا بـــهِ واسْـــتَبْدلوا بجَـــواريا

رُوَيْــدَكُمُو لا تَسْــبِقوا بِقطِيعــتي	صُـروفَ اللّيـالي إنَ في الـدّهْرِ كافيـا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول:

فأَكْرِمْ أخاكَ الدَّهْرَ ما عِشْتُما مَعًا	كَفَــى بِالْمَمَــاتِ فُرْقــةً وَتَنَائيــا
إذا زُرْتُ أرْضًا بَعْد طُول اجْتِنابِها	فَقَـدْتُ صَـديقي والْـبِلادُ كمـا هيـا

وللنظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال:

أقْلِــلْ عِتَابَــكَ فالْبَقَــاءُ قَلِيــلُ	والــدَّهْرُ يَعْــدِلُ تارَةً وَيَمِيــلُ
لَمْ أبْـكِ مِـنْ زَمَـنٍ ذَمَمْـتُ صُـروفَهُ	إلَّا بَكيْــتُ عَلَيْــهِ حــين يَــزولُ
وِلكُــلّ نائبَــةٍ ألَمَّــتْ مُــدَّةٌ	ولِكُــلّ حــالٍ أقْبلْــت تحْويــلُ
والْمُنْتَمــون إلَى الْإخــاءِ جَماعَــةٌ	إنْ حُصِّــلوا أَفْنَــاهُمُ التَّحْصــيلُ
وَلَعَــلَّ أحْــداثَ الْمنِيَّــة والــرَّدى	يَوْمًــا سَتصْــدعُ بَيْنَنــا وَتَحــولُ
فَلَــئِنْ سَــبَقْتُ لَتَبْكــينَّ بِحَسْــرةٍ	وَليَكْثُــرَنَّ عَلَــيَّ مِنْــكَ عَويــلُ
وَلَــتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِــصٍ لَــكَ وامِــقٍ	حَبْــلُ الْوَفــاءِ بِحَبْلِــه موْصــولُ
وَلَـئِنْ سَـبَقْتَ ولا سَـبَقْتَ لَيَمْضـيَنْ	مــنْ لا يُشــاكِلُهُ لَــدَيَّ خليــلُ
وَلَيَــذْهَبَنَّ بَهــاءُ كُــلّ مُــروءَةٍ	وَلَيُفْقَــدَنَّ جَمالُهــا المــأْهولُ
وأرَاكَ تَكْلَــفُ بِالْعِتَــابِ وَوِدُّنَا	صــاف عَلَيْــهِ مِــن الْوفــاءِ دَليــلُ
وُدٌّ بَــدا لِــذوي الْإِخــاءِ جَمالُــهُ	وَبَــدَتْ عَلَيْــهِ بَهْجَــةٌ وَقَبــولُ
وَلَعَــلَّ أيَّامَ الْحَيَــاةِ قَصــيرَةٌ	فَعَــلامَ يَكْثُــرُ عَتْبُنــا وَيَطــولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليله: فإنا نراه ابتدأ بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحر في الدنيا قليل، وبأن من الحزم ألا ينجنى المرء على صديق لا ذنب له، فقد تصدع بينهما أحداث المنية، أو عاديات الليالي.

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعته فيه، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف. وانظر كيف دق ولطف في قوله:

وَلَـئِنْ سَـبَقْتَ – ولا سَـبَقْتَ – لَيَمْضـيَنْ   مـــنْ لا يُشـــاكِلُهُ لَـــدَيَّ خليـــلُ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعًا أدق من هذا ولا أظرف. وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف، وأبرع من أبيات الطغرائي، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه: من رد صديقه إلى شرعة الإلفة، وصرفه عن موارد الصدود.

٤

أراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاد، وصدقهم في اللقاء، فقال:

ولَمْ أرَ مِثْــلَ الحَـــيِّ حَيّــا مُصَــبَّحًا   ولا مِثْلَنَـــا يَـــوْم الْتَقَيْنَـــا فَوَارِسَـــا
أكَـــرَّ وأحْمَـــى للحَقيقَـــةِ مِنهُمُـــو   وَأضـرَبَ مِنَّـا بِالسُّـيوفِ الْقوانِسَـا (١)
إذَا مَــا شَــدَدْنَا شَــدَّةً نَصَــبُوا لنَــا   صُـدُورَ المَذَاكِي والرِّماحَ المَدَاعِسَا (٢)
إذَا الخَيْـلُ جالَـتْ عَـنْ صَـرِيعٍ نُكُرُّهَـا   عَلَـــيْهِمْ فَمَـــا يَـــرْجِعْنَ إلا عَوَابِسَـــا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة: ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى، وتمكينه، في النفس، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني:

أَلَا حُيِّيـــــتِ عَنَّـــــا يَا رُدَيْنَـــــا   نُحَيِّيهــــا وإنْ كَرُمَـــــتْ عَلَيْنَـــــا
رُدَيْنَـــةُ لَـــوْ رَأَيْـــتِ غَـــدَاةَ جِئْنـــا   عَلَـــى أضَـــمَاتِنَا وَقَـــدِ احْتَوَيْنَـــا (٣)

(١) جمع قونس: وهو أعلى الرأس.

(٢) من الدعس: وهو الطعن.

(٣) الأضمات: الأحقاد، والاحتواء: خلو الجوف من الطعام.

فأرْسَـــــلْنَا أبا عَمْـــــرٍو رَبِيئـــــا فَقَـــالَ ألا انْعَمُـــوا بالقَـــوْمِ عَيْنَـــا
وَدَسُّـــوا فَارِسًـــا مِـــنْهُمْ عِشَـــاءً فَلَـــمْ نَغْـــدِرْ بفَارِسِـــهِمْ لَـــدَيْنَا
فَجَـــاءُو عَارِضَـــا بَـــرِدًا وجِئْنَـــا كَمِثْـــلِ السَّـــيلِ نَرْكَـــبُ وَازِعِينَـــا
تنَـــــــادَوا يا لَبُهْثَـــــــةَ إذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَـــا أحْسِـــني ضَـــربًا جُهَيْنَـــا
سَمِعْنَـــا دَعْـــوَةً عَـــنْ ظَهْـــرَ غَيْـــبٍ فَجُلْنَـــــا جَوْلَـــــةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَـــــا
فلمَّـــــا أنْ تَواقَفْنَـــــا قَلـــــيلًا أنَخْنَـــا للكَلاكِـــلِ فارْتَمَيْنَـــا [1]
فلمَّـــا لَمْ نَـــدَعْ قَوْسًـــا وَسَـــهْمًا مَشَـــيْنَا نَحْـــوَهُمْ وَمَشَـــوْا إلَيْنَـــا
تَلألُـــؤَ مُزْنَـــةٍ بَرَقَـــتْ لأَخْـــرَى إذَا جَحَلُـــوا بأسْـــيَافٍ رَدَيْنَـــا [2]
شَـــدَدْنا شَـــدَّةً أُخْـــرَى فَجَـــرُّوا بأرْجُـــلِ مِـــثْلِهِمْ وَرَمَـــوْا جُوِيْنَـــا [3]
وكَـــانَ أخـــي جُـــوَيْنٌ ذا حِفَـــاظٍ وكَـــانَ القَتْـــلُ للفِتْيَـــانِ زَيْنَـــا
فَـــآبوا بالرِّمَـــــاحِ مُكَسَّـــرَاتٍ وأُبْنَـــا بالسُّـــيوفِ قَـــد انْحَنَيْنَـــا
وباتـــوا بالصَّـــعِيدِ لهُـــمْ أُحَـــاحٌ وَلَـــوْ خَفَّـــتْ لَنَـــا الكَلْمَـــى سَـــرَيْنَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل. وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق، ونراه في الوقت نفسه صادقًا فيما يقول، إذا لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه، أو رميه بالغلو والإسراف، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول:

وكَـــانَ أخـــي جُـــوَيْنٌ ذا حِفَـــاظٍ وكَـــانَ القَتْـــلُ للفِتْيَـــانِ زَيْنَـــا

وأي فتى لا يتمنى أن يرمي بنفسه في سعير تلك الحرب التي يقول فيها هذا الفتى

---

(١) الكلاكل: الصدور.

(٢) حجل: تربث في مشيه على رجله، وردى: أسرع.

(٣) جوين: هو أحو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالي.

النبيل، وهو فيما يقول غير ظنين:

تنَـــــادَوا يا لَبُهْثَـــــةَ إذْ رَأَوْنَا ... فَقُلْنـــا: أحْسِـــني صَـــبْرًا جُهَيْنَـــا

سَمِعْنَـا دَعْـــوَةً عَـــنْ ظَهْـــرَ غَيْـــبٍ ... فَجُلْنَــــا جَوْلَـــــةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَـــا

فلمَّـــــا أنْ تَواقَفْنَـــــا قَلـــــيلًا ... أَنَخْنَـــــا للكَلاكِـــــلِ فارْتَمَيْنَـــا

تَلأَلـــؤَ مُزْنَـــةٍ بَرَقَـــتْ لأَخْـــرَى ... إذَا جَحَلُـــوا بأسْـــيَافٍ رَدَيْنَـــا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعاني، فلا يزال يبدأ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد، وجحود الحب، فقد افتن في هذا المعنى ووضع له صورًا عديدة، فتارة يعتذر عن هجره فيقول:

الله يَعْلَـــمُ مَـــا أرَدْتُ بِهَجْـــرِكُمْ ... إلَّا مُصَـــانَعَةَ الْعَـــدُوِّ الكاشِـــحِ

وَعَلِمْـــتُ أَنَّ تَباعُـــدي وَتسَـــتُّري ... أَدْنَى لِوَصْـــلِكِ مِـــنْ دُنُـــوٍّ فاضِـــحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود:

سَـــأَهْجُرُ إلْفِـــي وَهِجْرانُهَـــا ... إذا مَـــا الْتَقَيْنَـــا صُـــدودُ الخُـــدودْ

كِـــلانا مُحِـــبٌ وَلكِنَّنَـــا ... نُـــدافِعُ عَـــنْ حُبِّنَـــا بِالصُّـــدودْ

وتارة يعلل الكتمان فيقول:

سَأَسْـــتُرُ والسَّـــتْرُ مِـــنْ شِـــيمَتِي ... هَـــوَى مَـــنْ أُحِـــبُّ بِمَـــنْ لا أُحِـــبْ

ولا بُـــد مِـــنْ كَـــذِبٍ في الهـــوى ... إذا كـــان دَفْـــعُ الأَذَى بالكَـــذِبْ

وحينًا يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول:

قَـدْ سـحَبَ النَّـاسُ أَذْيالَ الظُّنون بنـا ... وفَـــرَّق النَّـــاسُ فينـــا قَـــوْلَهُمْ فِرَقـــا

فجاهِـــلٌ قَـــدْ رَمَـــى بِالظَّـــن غَيْرَكُمـــو ... وَصـــادقٌ لـــيْسَ يـــدْري أَنَّـــهُ صَـــدَقا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال:

كَـذبْتُ عَلَـى نَفْسـي فحَـدّثْتُ أَنّـني ... سَـلَوْتُ لِكيْمـا يَنْكِـرُوا حـينَ أصْـدُقُ

وَمـا مِـنْ قِلـىً مِـنِّي وَلا عَـنْ مَلالَـةٍ وَلَكِنَّـــني أُبْقــي عَلَيْـــكِ وَأُشْـــفِقُ
عُطَفْــتُ عَلَــى أسْــرَارِكُمْ فكَسَــوْتُها قَمِيصًــا مِــنَ الكِتمَــانِ لا يَتَخَــرّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى، فقد مهدت له السبيل [1] .

(١) ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب: (مدامع العشاق).

الفصل العاشر

اختلاف الصور الشعرية

١

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد بن خالد ذكره له، ووشى به إليه:

قـالوا: جَزِعْـتَ فقُلْـتُ إِنَّ مُصِيبَةً (١) جَلَّـــتْ رَزِيَّتُهــا وَضــاقَ المَــذْهَبُ
كَيْــفَ الْعَــزاءُ وَقَــدْ مَضَــى لِسَــبيلِهِ عَنَّــا فَوَدَّعَنــا الأَحَــمُّ الأَشْــهَبُ
دَبَّ الوُشــــاةُ فَأَبْعَــــدوهُ وَرُبَّمــــا بَعُـدَ الْفَـتَى وَهـوَ الحَبيـبُ الأَقْـرَبُ
لِلَّهِ يَـــوْمَ غَـــدَوْتَ عَـــنّي ظاعِنًـــا وَسُـلِبْتُ قُرْبَـكَ أَيَّ عِلْـقٍ أسْـلُبُ
الآنَ إِذْ كَمَلَـــتْ أَداتُـــكَ كُلُّهـــا وَدَعـا العُيـونَ إِلَيْـكَ لَـوْنٌ مُعْجِـبُ
وَاخْتـيرَ مِـنْ سِـرِّ الحَدائِـدِ خَيْرُهـا لَـكَ خالِصًـا وَمِـنَ الحُلِـيّ الأَغْـرَبُ
وَغَـــدَوْتَ طَنَّـــان اللِّجـــامِ كَأَنَّمـــا في كُـلِّ عُضْـوٍ مِنْـكَ صَـنْجٌ يُضْـرَبُ
وَكَــأَنَّ سَــرْجَكَ إِذْ عَــلاكَ غَمامَــةٌ وَكَأَنَّمــا تَحْــتَ الغَمامَــةِ كَوْكَــبُ
وَرَأى عَلَــيَّ بِــكَ الصَّــديقُ مَهابَــةً وَغَــدا العَــدُوُّ وَصَــدْرُهُ يَتَلَهَّــبُ
أَنْسَــاكَ؟ لا بَرِحَــتْ إِذنَ مَنسِــيَّةً نَفْسـي وَلا زالَـتْ بِمِثْلِـكَ تُنْكَـبُ

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعرية لحصان لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحتري:

---

(١) إن – هنا – حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وَأغَــرَّ فِي الــزَّمَنِ الْبَهِــيمِ مُحَجَّــلٍ | قَـدْ رُحْـتُ مِنْـه علـى أغـرَّ مُحَجَّـلِ
كالْهَيْكَـــــلِ المَبْـــــنِي إلاَّ أنَّـــــهُ | في الحُسـنِ جـاءَ كَصـورةٍ في هَيْكَـلِ
وَفِي الضُّــلوعِ يَشُــدُّ عقْــدَ حِزامِــهِ | يَــوْمَ اللِّقــاءِ عَلــى مُعِــمٍّ مُخْــوِلِ
أَخْوالُــــهُ لِلرُّسْـــــتُمين بفـــــارِسٍ | وَجُـــدودُهُ لِلتُّبَّعِـــين بِمَوكِـــلِ [1]
يَهْـوِي كَمـا تَهْـوَى العُقـابُ وَقـدْ رَأَتْ | صَـيْدًا وَيَنْتصِـبُ انْتِصـابَ الْأجْـدَلِ
ذَنَـبٌ كمـا سُـحِبَ الرّشـاءُ يـذُبُّ عَـنْ | عُــرْفٍ، وَعُــرْفٌ كَالْقِنــاعِ المسْــبَلِ
ذهِـبٌ الأعـالي حيْـث تـذْهبُ مُقْلَـة | فيـــه بناظِرهـــا حَديـــدُ الأسْـــفَل
صـــافِي الْأدِيمِ كأنَّمـــا عُنيـــتْ بـــهِ | لِصَــفاءِ نِقْبَتِــهِ مَــداوِسُ صَــيْقلِ [2]
وَتـــراهُ يَسْـــطعُ فِي الْغُبـــارِ لهيبُـــهُ | لـــوْنًا وشـــدًّا كـــالحَرِيقِ المُشْـــعَلِ
هَـــزِجُ الصَّـــهيل كَـــأنَّ فِي نَغماتِـــهِ | نَـــبراتِ مَعْبَـــد في الثّقيـــلِ الأوَّلِ
ملــكَ العُيــونِ فــإِنْ بَــدا أعْطَيْتَــهُ | نَظَــرَ المَحِــبِّ إلى الحَبيــبِ المُقْبِــلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية، ومتى عرفنا أن الشاعر الأول: وصف حصانه وهو جازع محزون، وأن الشاعر الثاني: وصف حصانه وهو فرح مختال، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق، فقد ابتدأ ابن الزيات فشرح حزنه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته «ظروف» ابن الزيات، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ألا تراه يقول:

الْآنَ إذْ كَمُلَـــتْ أدَاتُـــكَ كُلُّهـــا | وَدَعـا العُيـونَ إليْـك لـوْنٌ مُعْجِـبُ

---

(١) موكل على وزن مقعد: حبل أو حصن، وفرس ربيعة بن غزالة السكوني. «قاموس».

(٢) الصيقل: شحاذ السيوف، والمداوس جمع مدوس، وهو المصفله

وَاخْتـيرَ مِـنْ سِـرِّ الحَدائِـدِ خَيْرُهـا ... لَـكَ خالِصًـا وَمِـنَ الحُلِـيِّ الأَغْـرَبُ

وَغَـدَوْتَ طَنَّـان اللِّجـامِ كَأَنَّمـا ... في كُـلِّ عُضْـوٍ مِنْـكَ صَـنْجٌ يُضْـرَبُ

وهذا النمط في التعبير كان شائعًا في الرثاء لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء:

الْآنَ لَمَّـا صِـرْتَ أَكْمَـلَ مَـنْ مَشَـى ... وَافْتَـرَّ نابُـكَ عَـنْ شَـباةِ القـارِحِ

وَتَكامَلَـتْ فِيـكَ الشَّـمائِلُ كُلُّهـا ... وَغَـدَوْتَ رَبَّ مَـدائحٍ وَمَنـائِحِ

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين؛ ليكشف عن سر التميمة التي رزأه بها ابن خالد عدوه اللدود، وإلا فما معنى قوله:

وَكَـأَنَّ سَـرْجَكَ إِذْ عَـلاكَ غَمامَـةٌ ... وَكَأَنَّمـا تَحْـتَ الغَمامَـةِ كَوْكَـبُ

وَرَأى عَلَـيَّ بِـكَ الصَّـديقُ مَهابَـةً ... وَغَـدا العَـدُوُّ وَصَـدْرُهُ يَتَلَهَّـبُ

وكان ذلك؛ لأن ابن الزيات محنق مغيظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو، الذي سد عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برذونه الجميل.

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وأنه اختار له من الحديد سره، ومن الحلي أغربه، وأنه طنان اللجام، وأن سرجه كالغمامة، وهو من تحته كالكوكب، وأنه يكبت العدو، ويسر الصديق.

وهذه أوصاف لا تماثل ولا توازن بأوصاف البحتري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجَّل، وأنه في تكوينه:

كالْهَيْكَـلِ المَبْنِـي إلاَّ أنَّـهُ ... في الحُسْـنِ جـاءَ كَصـورةٍ في هَيْكَـلِ

وأنه وافي الضلوع، وأنه أصيل: أخواله في بلاد الأكاسرة، وأجداده في بلاد التبابعة، وأنه يهوي هوي العقاب حين الصيد، ثم ينتصب انتصاب الأجدل، وأنه براق الجوانب: تتوهم في جبينه البدر، وفي أرساغه الجوزاء، وأن ذنبه لطوله كالرداء المسحوب، وأنه صافي

الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل، وأنك تحسب بريق سنابكه في الغبار نارًا يعلوها دخان، وأنه هزج الصهيل حتى لتحسب في نغماته نبرات معبد في صوته الرخيم، وأنه ملك العيون، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل.

وليس عجبًا أن يجيد البحتري هذه الإجادة في وصف جواد كان يهتك بغرته ظلمة الليل، وينحدر به في الفضاء، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة الشماء. أما ابن الزيات فهو حريب سليب، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة، التي أججت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء.

٢

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة عند شاعرين، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية، فقد أكثر منه الشعراء، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته:

وَأَرَّقَـــني بِالـــرَّيِّ نَـــوْحُ حَمَامَـــة ... فَنُحْـتُ وذُو الشَّـجْوِ الغَرِيـب يَنُـوحُ
عَلَـى أَنَّهَـا ناحَـتْ ولَمْ تُـذْرِ دَمْعَـةً ... ونُحْـتُ وأَسْـرابُ الـدُّمُوعِ سُـفُوحُ
وناحَـتْ وفَرْخاهـا بِحَيْـثُ تَراهُمـا ... وَمِـنْ دُونِ أَفْراخِـي مَهامِـهُ فِـيحُ [1]

وتجد قول ابن الدمينة:

أَلَا يَا حَمَامَـاتِ اللِّـوَى عُـدْن عَـوْدَةً ... فَـــإِنّي إِلَى أَصـــوَاتِكُنَّ حَـــزِينُ
فَعُـدْنَ فَلَمَّـا عُـدْنَ كِـدْنَ يُمِتْنَـني ... وَكِـــدْتُ بأَشْـــجانِي لَهُـــنَّ أُبِـــينُ
فَلَـمْ تَـرَ عَيـنِي مِـثْلَهُنَّ بَواكِيًـا ... بَكَـيْنَ وَلَمْ تَـذْرِفْ لَهُـنَّ عُيـونُ

ونجد قول ديك الجن:

---

(١) فيح: جمع أفيح، وهو الواسع العريض.

حَمَـــائِمُ وُرْقٌ في حِمَـــى وَرَقٍ خُضْـــرِ لهـا مُقَـلٌ تُجْـرِي الـدُّمُوعَ ولا تَجْـرِي
تَكَلَّفْــنَ إِسْــعادَ الغَرِيبَــةِ إنْ بَكَــتْ وإنْ كُنَّ لا يَدْرينَ كيفَ جَوَى الصَّدرِ
لهـا حُـرَقٌ لَـوْ أَنَّ خَنْسـاءَ أَعْوَلَـتْ بِهِـنَّ لأَدَّتْ حَـقَّ صَـخْرٍ إلى صَـخْرِ
فقلتُ لِنَفْسي ها هُنا طَلَبُ الأَسَى ومَعْدِنُــهُ إنْ فــاتَني طَلَــبُ الصَّــبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محلم، وأبيات ابن الدمينة، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحًا إذا قابلناها بقول الطغرائي من قصيدة طويلة:

أَيْكِيَّــةٌ صَــدَحتْ شَــجْوًا عَلَـى فَـنَنٍ فأشْـعَلَتْ مـا خَبـا مِـنْ نارِ أشْـجاني
ناحتْ وما فَقَدتْ إِلْفًا ولا فُجِعَتْ فَــــذَكَّرَتْنِيَ أَوْطــــاري وَأَوْطــــاني
طَلِيقَــةٌ مِــن إِســارِ الْهَــمِّ ناعِمَــةٌ أضْـحَتْ تُجَـدِّدُ وَجْـدَ الْموثَـقِ الْعَـاني
تشَّــبَّهَتْ بِيَ في وَجــدي وفي طَـرَبي هَيْهـاتَ مـا نَحْـنُ في الحـالَيْنِ سِيّانِ
مــا في حَشــاها ولا في جَفْنِهَــا أثــرٌ مِـن نارِ قَلْـبِي ولا مِـن مـاءِ أجْفـاني
يا رَبَّـــةَ الْبانَـــةِ الْغَنَّـــاءِ تَحْضُـــنُها خَضْـرَاءُ تَلْتَـفُّ أَغْصـانًا بِأغْصـانِ
إِنْ كــان نَوْحُــكِ إِسْــعادًا لِمُغْــتَرِبٍ ناءٍ عَــنِ الْأَهْــلِ مَمْنُــوٍّ بِهِجْــرانِ
فَقارِضِــيني إذا مــا اعْتــادَني طَـرَبٌ وَجْــدًا بِوَجْــدٍ وسُــلْوانًا بِسُــلْوانِ
أوْ لا فَقَصْــرَكِ حَــتَّى أسْــتَعينَ بِمَــنْ يَعْنِيــهِ شــأْني وَيَأْسُــو كَلْــمَ أحْـزَاني
مـا أنتِ مِنِّي ولا يَعْنيكِ مـا أخَـذَتْ مِـنِّي الهُمـومُ ومـا تَـدْرينَ مـا شـاني
كِلِــي إِلَى الغَـيْمِ إِسْـعادِي فَـإِنّ لَـهُ دَمْعًـــا كَـــدَمْعي وَإِرْنانًا كَــــإِرْناني

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجع الحزين، وقد هاجته الحمامة الباكية، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب، وتهيج الوجدان، وانظر كيف يقول:

طَلِيقَــةٌ مِــن إِســارِ الْهَــمِّ ناعِمَــةٌ أضْـحَتْ تُجَـدِّدُ وَجْـدَ الْموثَـقِ الْعَـاني

وهذا غاية في وصف الحزن، واليأس من السلوان، فإن وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساه، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمائم الشاديات، فإن فيه شيئًا من الراحة لأنس الحزين بالحزين.

ولك أن تذكر أن هنا شيئًا من اختلاف الصورة، فإن أبا محلم يأسى لغربته، ويتفجع لبعد أطفاله، في حين إن الحمامة تبكي وقد جمع بينها وبين أفراخها غصن واحد، فماذا تبغي وقد وقاها الله تبديد الشمل وفرقة الأحباب!

وابن الدمينة يراجع حمامات اللوى، ويسألهن العودة، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسراره حين بكين بجانبه، وإن لم تذرف لهن عيون، وديك الجن يردد معنى قريبًا من معنى ابن الدمينة، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة، وسلك مسلكًا يدل على عنايته بتحديد ما يقول.

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف: فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق.

الفصل الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعًا من الاستعارة التمثيلية، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث.

١

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من عدة أمور متحققة أو متخيلة، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة، فيكون لبعضها موارد حقيقية، ولأكثرها موارد خيالية.

وللأمثال –كما قال المرحوم أستاذنا المهدي – أربعة أضرب:

الأول: ما له مورد حقيقي كمواعيد عُرقوب في قول كعب بن زهير:

كانَـتْ مَواعيـدُ عُرْقُـوبٍ لَهـا مَـثَلًا   وَمـــا مَواعيـــدُها إِلّا الْأَباطيـــلُ

الثاني: الخيالي الممكن، وهو ما نسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان أن صبيًّا كان يستحم في نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبي: «يا هذا! خلصني من الموت ثم لُمْني!».

الثالث: الخيالي المستحيل، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجًا على المأمون، فسير إليه جيشًا ظفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين! أتسمع مثلًا خطر على بالي؟ فقال: قل، فأنشأ يقول:

زَعَمـوا بأَنَّ الصَّـقْرَ صـادَفَ مَـرَّةً ... عُصـفورَ بـرٍّ سـاقهُ التَقْـديرُ

فَـتَكَلَّمَ الْعُصْـفورُ تَحْـتَ جَناحِـهِ ... والصَّـقْرُ مُـنْقضٍّ عليْـه يطـيرُ

إِنِّي لِمِثْلِـكَ لا أُتَمِّـمُ لُقْمَـةً ... وَلَـئِنْ شـويتُ فـإنني لحقـيرُ

فتهـاونَ الصَّـقْرُ المُـدِلُّ بِصَـيدِهِ ... كَرَمًـا وَأَفْلَـتَ ذلِـك العُصْـفورُ

الرابع: الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل، وهو ما جمع بين الناطق وغيره، كحديث الحية والأخوين: فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا فيه حية تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته. فقال أخوه: والله ما في الحياة خيرٌ بعده، ولأطلبن الحية. فلما لقيها وهم يقتلها قالت: ألا ترى أني قتلته وندمت على ما كان مني! فهل لك في الصلح، فأدعك في هذا الوادي آمنًا، وأعطيك دية أخيك كل يوم دينارًا؟ فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله. فلما أحس الغنى قال: كيف ينفعني هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخي! فعمد إلى فأس فأحدَّها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدينار وتوعدته فخاف شرها، وقال: هل لك أن نتعاهد على المودة كما كنا؟ فقالت: لا! لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت عليَّ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي وجدت عليك! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة:

وَإِنِّي لَأُلْقَـى مِـنْ ذَوِي الضِّغْنِ مِنْهُمـو ... وَما أَصْبَحَتْ تَشْكو مِن الْوجْد ساهرةْ

كَمـا لَقِيَـتْ ذاتُ الصـفا مِـنْ حَليفِهـا ... وَمـا انْفَكَّـتِ الأَمْثالُ في النـاس سـائرةْ

فَقالَـتْ لَـهُ أَدْعـوكَ لِلْعَقْـلِ وافِيًـا ... وَلا تَغْشَـيَنِّي مِنْـك بالظُّلْـمِ بادرةْ (١)

فَواثَقَهـا بِاللهِ حـينَ تَراضَـيا ... فَكانَـتْ تَديـهِ الْمـالَ غِبًّـا وَظـاهِرَه

فَلَمَّـا تَـوَفَّى العَقْـلَ إلاَّ أَقَلَّـهُ ... وَجـارَتْ بِـهِ نَفْـسٌ عَـنِ الحَـقّ جـائِرَةْ

تـذكرَ أَنَّ يَجْعَـلُ اللهُ فُرصَـةً ... فَيُصْـبحَ ذا مـالٍ وَيَقْتُـلَ واتِـرهْ

---

(١) العقل – هنا – هو الدية.

فَلَمَّـــا رأى أنْ ثَمَّـــرَ اللهُ مالَـــهُ وَأثَّـــلَ مَوْجـــودًا وَسَـــدّ مَفـــاقِرَهْ

أَكَـبَّ عَلَـى فَـأسٍ يُحُـدّ غُرابُهَـا مُـــذَكَّرَة مَـــتْنَ المَعـــاوِلِ باتِـــرَهْ

فَقـامَ لَهـا مِـنْ فَـوْقِ جُحْـرٍ مُشَـيَّدٍ لِيَقتُلَهـــا أو تُخْطِـــئَ الكَـــفُّ بادِرَه

فَلَمَّـــا وَقاهـــا اللهُ ضَـــرْبَةَ فَأسِـــهِ وَلِلْـــبِرّ عَـــيْنٌ لا تُغَمِّـــضُ ناظِـــرَه

فَقـــالَ تَعـــالَيْ نَجْعَـــلِ اللهَ بَيْنَنـــا عَلَـى مـا لِنـا أوْ تُنْجِـزِي لِيَ آخِـرَهْ

فَقالَـــتْ يَمـــينُ اللهِ أفْعَـــلُ إنَّـــني رَأَيْتُـــكَ غَـــدَّارًا يَمينُـــكَ فـــاجِرَهْ

أَبَى لِيَ قَبْـــرٌ لا يَـــزالُ مُقـــابِلي وضَـربةُ فَـأسٍ فَـوْقَ رَأْسِـي فَـاقِرَة

٢

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية، من ذلك قوله تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ

فإن هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير حال الأبرار والفجار، وما لهؤلاء من الخزي، وما لأولئك من النعيم.

وأصرح من هذا قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا.

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق، وإنما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء.

وكذلك قوله – عز وشأنه – قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ.

فإن الغرض تصوير القدرة الإلهية، وما لها من السلطان المطلق في الأرض والسماء. وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصد بها الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع المخيف، ثم تراه يتبع ذلك بقوله:

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

هذا في الترهيب، ثم قوله في التشويق إلى دار النعيم:

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ

قال صاحب الطراز: ومن التمثيل الرائق قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ. وقوله: وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

فهم لإعراضهم عن الدين، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول، وبلوغ الغاية في الصد والنكوص، ممثلون بحال من جعل على قلبه كنان فهو لا يفقه ما يقال له، ولا يرعوي لقبوله، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدي إليه، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال.

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت، وقرن بعضها إلى بعض [1].

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل، وإنما يعنيني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث، وإن كان في ذاته نوعًا من التصوير لما فيه من روعة الخيال.

٣

ويمكن أن يقال: إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض، فقوله تعالى: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ تمثيل يراد به تقرير معنى خاص: هو قدرة الله. أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) راجع أسرار البلاغة.

قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فإنه لا شك في أن هذا تصوير للغرض، لا للمعنى، والمعنى جزء من الغرض، فإن هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضًا كليًّا يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان.

٤

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين:
وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

وأحب أن يذكر القارئ أني أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد.

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك، والقرآن لا يرى غضاضة في التكرار حين يحتاج إليه، بل يراه واجبًا محتوم الأداء وإنك لتجده في هذه الآيات يبدئ ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم، والدعوة إلى تعذيبهم، وإذلالهم. وتقتيلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية. ألا تراه يوصي بالرفق حين يقول:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ. ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجر من جوانبه الدماء، فيقول: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. ثم لا يكفيه هذا بل يقول: اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ثم لا يكفيه هذا بل يقول: لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ. ثم يعود فيقول: {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}. ثم يثور فيقول: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ

وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

وأود أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال، وكانت هذه الغضبة التي تقبض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية، لا إثم فيها ولا عدوان. أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أني أجعل من القرآن صورًا شعرية، وإن لم يكن النبي ﷺ من الشعراء، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذه بالقوة والجبروت.

٥

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عز شأنه:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

اتل هذا أيها القارئ مرة وثانية وثالثة، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع؟ وهل تجد أخف منه على السمع، وأحب منه إلى القلب، وأرفق منه بالنفس؟ ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما يتغلغل في صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد؟؟

٦

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه:

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ *

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

وأنا أستطيع إيراد المئات من الصور الشعرية في القرآن، لو سمح الوقت، ولكن هيهات! فليكتف القارئ بذلك، وليعلم أن في هذا المنهج غناء أي غناء، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء، فإن التأثير يرتكز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب. وكم في خطب علي بن أبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة، التي تسكن إليها شوارد النفوس!

الفصل الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض، والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان.

١

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت: لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس!

ونحن في تعويلنا على «الصور الشعرية» التي تمثل الأغراض، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة، والأخيلة الرائعة، التي تأتي في تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعاني أصدق تمثيل.

أما اللفظ المختار فكقول كثيّر:

بِأَبِي وأُمِّـــي أَنْـــتِ مِـــنْ مَظْلومَـــةٍ ... طَــبِنَ الْعــدُوُّ لَهَــا فَغَــيَّرَ حالَــه [(١)]

لـوْ أَنْ عَـزَّةَ خَاصَـمَتْ شَمْسَالضُّـحى ... في الحُسْـنِ عِنْـد موفَّـقٍ لَقَضَـى لَهَـا

وَسَـــعَى إِلَيَّ بصَـــرْمِ عَـــزَّةَ نِسْـــوةٌ ... جَعَـــلَ المليـــكُ خُـــدودَهُنَّ نِعالَهَـــا

وهذه أبيات عادية ولكن كلمة «موفق» في قوله:

لــــــوْ أَنْ عَــــــزَّةَ خَاصَـــــــمَتْ ... في الحُسْـنِ عِنْـد موفَّـقٍ لَقَضَـى لَهَـا

---

(١) طبن بمعنى فطن، وهو طبن، وطبنت النار: دفنتها لئلا تطفأ في الطابون، وهو مدفنها. وأهل مصر يسمون المخبز: «الطابونة» ولذلك أصل فصيح.

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل؛ لأنه يري أن يخيل إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بد من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلا حين يلتبس الحق، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسناء أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال.

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل:

تَطـاول حـتَّى قُلْـتُ لـيْسَ بمُـنْقضٍ   وَلـيْسَ الّـذي يرْعَـى النُّجـوم بآئـب

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء، وصور الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يئوب، وفي أوبته صرف هذه النجوم.

اذكر هذا ثم تعالى ننظر: أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله الحديث؟ كلا! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات:

كِليـني لِهَـمٍّ يا أُميْمَـة ناصِـبٍ   وَلَيْـلٍ أُقاسـيه بَطـيءِ الْكَواكِـبِ

تَطـاول حَـتَّى قُلْـتُ لـيْسَ بِمُـنْقضٍ   وَلـيْس الّـذي يرْعـى النُّجـومِ بآئـب

وَصـدْرٍ أراح اللَّيْـلُ عَـازب همْـه   تَضـاعف فيـهِ الحُـزْنُ مِـنْ كُـلَّ جانِـب

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته، فقد تحدث عن همه الممض الموجع، وليله الذي طال بطوله بثه وشجاه، وصدره الذي أراح الليل ما عزب من همه، وهذا أيضًا خيال رائع: فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهارًا، ثم تراح ليلًا إلى الحظيرة، وكذلك يشغل المرء عن همومه بالنهار، فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد.

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس:

أَلا أَيُهـا اللَّيْـلُ الطَّويـلُ أَلا انْجَـلِ   بصُـبْحٍ ومـا الْإِصْـباحُ مِنْـك بِأَمْثَـلِ

وإن قال العتبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب [(١)] .

وفي مثل الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري:

فِي لَيْلِ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعرضُ والطُّولُ ... كأنَّما لَيْلُه باللَّيل مَوْصولُ

لا فارقَ الصُّبْح كَفِّي إنْ ظَفِرْتُ بهِ ... وإنْ بَدتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجيلُ

لِساهِرٍ طالَ في صُولٍ تَمَلْمُلُه ... كأنَّه حَيَّةٌ بالسَّوْطِ مَقْتولُ

متى أرى الصبحَ قَدْ لاحَتْ مَخايِلُهُ ... واللَّيْل قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرابيلُ

لَيْلٌ تَحَيرَ ما يَنْحَطُّ في جِهَةٍ ... كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الأَرْضِ مَشْكولُ

نُجومُهُ رُكَّدٌ لَيْستْ بِزائِلَةٍ ... كَأَنَّما هُنَّ في الجوِّ الْقَناديلُ

ما أَقْدَرَ اللهَ أنْ يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ ... مَنْ دارُهُ الحزْنُ مِمَّنْ دارُهُ صولُ

اللهُ يَطْوي بِساطَ الْأَرْضِ بَيْنَهُما ... حَتَى يُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وهوَ مأهُولُ

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحًا بين المعنى والغرض، ففي كل بيت معنى خاص، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض، فليس هناك ريب في أن قوله:

لا فارقَ الصُّبْح كَفِّي إنْ ظَفِرْتُ بهِ ... وإنْ بَدتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجيلُ

فيه معنى جميل، وخيال رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة. وكذلك قوله:

لَيْلٌ تَحَيرَ ما يَنْحَطُّ في جِهَةٍ ... كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الأَرْضِ مَشْكولُ

فيه خيال يخلب العقول، وأي خيال أروع من حيرة الليل، وتقييده فوق متن الأرض بشكال! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفردًا لا سابق له ولا لاحق، فأي تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة اليتيم!

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء مُحَمَّد بن منصور بن زياد:

---

(١) ص١٦٦ ح ٣ من الطبعة الأولى

أَنْعــى فَــتىَ الْجُــودِ إِلى الْجُــودِ		مــا مِثــلُ مَــنْ أَنَعَــى بِمَوْجــودِ
أَنْعــى فَــتىً مَــصَّ الثَّــرَى بَعْــدهُ		بَقيَّـــةَ الْمـــاء مِـــنَ الْعُـــودِ
وانْــثَلَمَ المجْــدُ بِــهِ ثُلْمَــةً		جَانِبُهـــا لَـــيْس بِمَسْـــدودِ
فَــالآنَ تُخْشَــى عَثَــراتُ النَّــدَى		وصــوْلَةُ الْبُخْــلِ عَلَــى الجُــودِ

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خيال رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد.

٢

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب الثكل برشد طريف بن أبي وهب العبسى، فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض:

فَفــي الْيــأَسِ ناهٍ والْعــزاءُ جَميــلُ		تُــرابٌ وزَوْراءُ المقــامِ دَحــولُ (١)
نَحــاهُ لِلَحْــدٍ زِبْرِقــانٌ وخالِــدٌ		وَأَيُّ فَــتى وارُوهُ ثُمَّــتَ أَقْبَلَــتْ
وَظَلَّــتْ بِي الْأَرْضُ الْفَضــاءُ كَأَنَّمــا		وَشَــدَّ إِلَيَّ الطَّــرْفَ مَــنْ كــانَ طَرْفُــهُ
لَــئِنْ كــانَ عَبْــدُ الله خَلَّــى مَكانَــهُ		عَلَـى حـين شَـيْبِي بالشَّـبابِ بَـديلُ
وإِنْ مَــسَّ جِلْــدي نَهْكَــةٌ وَذُبــولُ		إِلَى حَالَــةٍ أُخْــرَى وَسَــوْفَ تَــزولُ

فقد تنقل الشاعر من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع، ومن الجزع إلى العزاء، فإنك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول:

أَرابــعُ مَهْــلًا بَعْــضَ هــذَا وأَجْمِلِــي		فَفــي الْيــأَسِ ناهٍ والْعــزاءُ جَميــلُ

(١) الدحول: هي الحفرة الغامصة.

ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول:

وَشَــدَّ إِلَيَّ الطَّـرْفَ مَـنْ كـانَ طَرْفُـهُ   لِعَهْــدِ عُبَيْــدِ الله وَهــوَ كَليــلُ

ثم يعود فيقول:

وَمــا حالَــةٌ إِلَّا سَتُصْــرَفُ حالُهــا   إِلَى حَالَــةٍ أُخْــرَى وَسَــوْفَ تَــزولُ

وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال.

٣

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمذاني [١] إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحبري، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأعراض، وانظر قوله في وصف العلم:والعلم أطال الله بقاء القاضي شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهام ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللحام، ولا يورث عن الأعمام ولا يكتب للئام، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيبًا ومن التوفيق مطرًا صيبًا، ومن الطبع جوًّا صافيًا، ومن الجهد روحًا دائمًا، ومن الصبر سقيًا نافعًا، والعلم علق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص على من زكا زرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه. فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالعناء، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكأس؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ثم لا ينشب إلا في الصدر وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ، ثم لا يغفله إلا شرك الحفظ، وبحر لا يخوضه الملاح ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يتسنم إلا بخطا الفكر، وسماء لا

(١) راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية في الجزء الأول والثاني من كتاب (النثر الفني).

تصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد، أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب أترابه، ثم يلبس دنيته؛ ليخلع ديبته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله؛ ليطيل حباله، ويبدي شقاشقه، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، ليخفي طمعه، ويغشي محرابه؛ ليملأ جرابه، ويكثر دعاءه؛ ليحشو وعاءه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالمًا، ويقعد حاكمًا! هذا إذا المجد كالوه بقفزان!

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد: هو أن العلم شيء عزيز لا يباله بعد الجهد إلا كرام النفوس [1] .

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئًا من الضعف، ولكنه لن ينكر على الكاتب أنه أفصح عن غرضه، وبلغ دعوته، بل وصل بها إلى قرار القلوب. وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعاني في النفس، والوصول إلى التأثير الذي هو غاية البيان.

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه:وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى؟ وما ظنك بدار عمارتها حراب الدور وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك في رجل يعادي الله في الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر أهل السمت وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردي لا يغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين

---

(١) وهذا لا ينافي أن عرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري.

العهود والشهود؟! وما زلت أبغض حال القضاء طبعًا وحيلة، حتى أبغضتهم دينًا وملة، وألعنهم دربة حتى لعنتهم قربة، بما شاهدت من هذا الحيري وقاسيت، وعانيت من حطبه وخبطه ما عانيت.

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار، وفي جميع العصور؛ لأن نزعات الإنسانية واحدة، أو كأنها واحدة في الخير والشر. والوصف الصادق يعذب ويستملح في كل قطر وفي كل جيل.

٤

ولك أن تتخطى النثر المحبر إلى الكلمات المأثورة التي جادت بها البديهة؛ لترى كيف تكون المعاني والأغراض.

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمني يزيد الرقاشي وقد تمنى بحضرته قوم فقال: أتمنى كما تمنيتم؟ قالوا: تمنه! قال: «ليتنا لم نخلق، وليتنا إذا خلقنا لم نعص، وليتنا إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذا بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد».

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج: «ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهم بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليته إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه».

وفي هاتين الأمنيتين وصف دقيق لحيرة النفس الإنسانية التي ما زالت تكد وتكدح في استكناه أسرار الغيب، ثم سقطت صريعة الإعياء، بعد مرارة الإخفاق!

وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة «ليتنا لم نخلق!»، وهي أول نفثة يجود بها المكروب، ثم أخذ يجيل نظر الحيرة، ويتمنى إذ خلق لو وقاه الله المعصية، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت، إلى آخر ما قال.

وقيل لبعض العرب: أي شيء تتمنى، وأي شيء أحب إليك؟ فقال: لواء منشور،

والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!

وهذه صورة يبسم لها القارئ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر، وقد قيل له، أجزعت من الموت؟ وقد صلى ركعتين فأطال، وكان أمر بقتله. فأجاب «إن أجزع فقد أرى كفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا، وقبرًا محفورًا».

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب!

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك: إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه. قال هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته، ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون عيبًا، الناصح جيبًا. قال: فإني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى: إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا، والأمة كسفًا وخسفًا. وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك: فإن أعظم الناس عند الله غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك. قال: أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك!

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني يتكون منها غرض واحد. وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق بين المعاني والأغراض.

وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد الأصول [1] .

---

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف، وهي فصول كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يضيف المؤلف إلى هذه الطبعة ما جد له من الآراء في مدى عشر سنين. ولكنا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى: لأن كتاب «النثر الفني» انته؟؟ كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية، وليس من الحزم أن ننقل هنا ما سجلناه هناك.

الفصل الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينّا في الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر في الناقد الموازن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي تعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: هو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضه أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس، إلخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة؛ لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشعر نوعًا من السباق في عالم البيان.

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحصري: «يا ليل الصب متى عده» ودالية شوقي «مضناك جفاه مرقده»، فإن لهاتين القصيدتين أثرًا في أندية الأدب ومجالس الغناء ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظًا، وأشرف معنى، وأسمى خيالًا.

والحُصْري [(١)] – بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خالة أبي إسحاق

---

(١) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى «الحصر» وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المئة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف، وتوفي بها رحمه الله سنة ٤٨٨ وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر [١] ، وهو القائل:

أَقُــولُ لَــهُ وَقَــدْ حَيَّــا بِكَــأْسٍ ... لَهَــا مِــنْ مِسْــكِ رِقَّتِــهِ خِتَــامُ

أَمِــنْ خَــدَّيْكَ تُعْصَــرُ قَــالَ كَــلّا ... مَــتَى عُصِــرَتْ مِــنَ الْــوَرْدِ الْمُــدامُ

ويقول ابن بسام في وصفه: «على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمآن إلى الماء».

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيرًا بأسرار اللغة العربية، فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عونًا على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق، وله كلف بمعارضة القدماء، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشئون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين، إذ كان النسيب هو

(١) راجع وفيات الأعيان.

السبب فما يرجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود [1] .

قصيدة الحصري

يَا ليْـــلُ الصَّـــبُّ مَـــتَى غَـــدُهُ ... أقِيَـــامُ السَّـــاعةِ مَوْعِـــدُهُ
رَقَـــدَ السُّـــمَّارُ فأَرَّقَـــهُ ... أسَـــفٌ لِلْبَـــيْنِ يُـــرَدِّدُهُ
فَبَكَـــاهُ الـــنَّجْمُ وَرَقَّ لَـــهُ ... مِمَّـــا يَرْعـــاهُ وَيَرْصُـــدُهُ
كَلِـــفٌ بِغَـــزالٍ ذِي هَيَـــفٍ ... خَـــوْفُ الْواشـــينَ يُشَـــرِّدُهُ
نَصَـــبَتْ عَيْنـــايَ لَـــهُ شَـــرَكًا ... في النَّـــوْمِ فَعَـــزَّ تَصَـــيُّدُهُ
وَكَفَـــى عَجَبًـــا أَنِّي قَـــنصٌ ... لِلسِّـــربِ سَـــبانِي أغْيَـــدُهُ
صَـــنَمٌ لِلْفِتْنَـــةِ مُنْتَصِـــبٌ ... أهْـــواهُ ولا أتَعَبَّـــدُهُ [2]
صـــاحٍ وَالخَمْـــرُ جَـــنَى فَمِـــهِ ... سَـــكْرانُ اللَّحْـــظِ مُعَرْبِـــدُهُ
يَنْضُـــو مِـــنْ مُقْلِتِـــهِ سَـــيْفًا ... وَكَـــأَنَّ نُعَاسًـــا يُغْمِـــدُهُ
فَيُرِيـــقُ دَمَ الْعُشَّـــاقِ بِـــهِ ... وَالْوَيْـــلُ لِمَـــنْ يَتَقَلَّـــدُهُ
كَـــلاّ لاَ ذَنْـــبَ لِمَـــنْ قَتَلَـــتْ ... عَيْنَـــاهُ وَلَمْ تَقْتُـــلْ يَـــدُهُ

●●● ●●●

يا مَـــن جَحَـــدَتْ عَيْنـــاهُ دَمِـــي ... وَعَلَـــى خَدَّيْـــهِ تَـــوَرُّدُهُ
خَـــدَّاكَ قَـــد اِعْتَرَفـــا بِـــدَمِي ... فَعَـــلامَ جُفونُـــكَ تَجْحَـــدُهُ
إِنِّي لَأُعيـــذُكَ مِـــنْ قَتْلِـــي ... وَأَظُنُّـــكَ لاَ تَتَعَمَّـــدُهُ

---

(١) للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف، وقد كتب عنه فصولا أخرى نقد بها مذاهبه الشعرية والاجتماعية، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (البدائع).

(٢) الصنم: هو التمثال، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب، وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق.

بِاللهِ هَـــبِ الْمُشْـــتاقَ كَـــرَىً ... فَلَعَـــلَّ خَيالَـــكَ يُسْـــعِدُهُ
مــا ضَــرَّكَ لَــوْ دَاوَيْــتَ ضَــنَىً ... صَـــبٍّ يُـــدْنيكَ وتُبْعِـــدُهُ
لَمْ يُبْـــقِ هَـــواكَ لَـــهُ رَمَقًـــا ... فَلْيَبْـــكِ عَلَيْـــهِ عُـــوَّدُهُ
وَغَـــدًا يَقْضِـــي أوْ بَعْـــدَ غَـــدٍ ... هَـــلْ مِـــنْ نَظَـــرٍ يتَـــزَوَّدُهُ
يا أهْـــلَ الشَّـــوْقِ لَنـــا شَـــرَقٌ ... بِالـــدَّمْعِ يَفـــيضُ مَـــوْرِدُهُ
يَهْـــوَى الْمُشْـــتاقُ لِقـــاءَكُمُو ... وصُـــروفُ الـــدَّهْرِ تُبَعِّـــدُهُ

•••

مـــا أحْلَـــى الوَصْـــلَ وأَعْذَبَـــهُ ... لَـــــوْلا الأَيَّامُ تُنَكِّـــــدُهُ
بِالبَـــيْنِ وبِالْهِجْـــرانِ فَيـــا ... لَفُـــؤَادِي كَيْـــفَ تَجَلُّـــدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْـــناكَ جفـــاهُ مَرْقَـــدُهُ ... وبكـــاهُ ورحَّـــمَ عُـــوَّدُهُ
حَـــيْرانُ القَلْـــبِ مُعَذَّبُـــهُ ... مَقْـــروحُ الجَفْـــنِ مُسَـــهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَفًـــــا إِلَّا رَمَقًـــــا ... يُبْقيـــهِ عَلَيـــكَ وَتُنْفِـــدُهُ
يَسْـــتَهْوي الـــوُرْقَ تَأَوُّهُـــهُ ... وَيُـــذيبُ الصَـــخْرَ تَنَهُّـــدُهُ
وَيُنـــاجي الـــنَّجْمَ وَيُتْبِعُـــهُ ... وَيُقـــيمُ اللَيْـــلَ وَيُقعِـــدُهُ
وَيُعَلِّـــمُ كُـــلِّ مُطَوَّقَـــةٍ ... شَـــجَنًا فِي الـــدَّوْحِ تُـــرَدِّدُهُ
كَـــمْ مَـــدَّ لِطَيْفِـــكَ مِـــنْ شَـــرَكٍ ... وَتَأَدَّبَ لا يَتَصَـــــــــــــيَّدُهُ
فَعَســـاكَ بِغُمْـــضٍ مُسْـــعِفُهُ ... وَلَعَـــلَّ خَيالَـــكَ مُسْـــعِدُهُ
الحُسْـــنُ حَلَفْـــتُ بِيوسُـــفِهِ ... وَالسُّـــورَةِ إِنَّـــكَ مُفْـــرَدُهُ
قَـــد وَدَّ جَمالَـــكَ أَو قَبَسًـــا ... حَـــوْراءُ الخُلْـــدِ وَأَمْـــرَدُهُ

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ … يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تشْهدُهُ
جَحَدَت عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمي … أَكَذلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهودي إِذْ رَمَتا … فَأَشَرْتُ لِخَدِّكَ أُشْهِدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجيدِكِ أَشْرَكُهُ … فَأَبى وَاسْتَكْبَرَ أَصْيَدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوامَكَ أَعْطِفُهُ … فَنَبا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
سَبَبٌ لِرِضاكَ أُمَهِّدُهُ … ما بالُ الخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
بَيْني فِي الحُبِّ وَبَيْنَكَ ما … لا يَقْدِرُ واشٍ يُفْسِدُهُ
ما بالُ الْعاذِلِ يَفْتَحُ لي … بابَ السُّلوانِ وَأوصِدُهُ
وَيَقولُ تَكادُ تُجَنُّ بِهِ … فَأَقولُ وَأوشِكُ أَعْبُدُهُ
مَوْلايَ وَروحي فِي يَدِهِ … قَدْ ضَيَّعَها سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ … وَحنَايَا الْأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ
حُسَّادي فِيهِ أعْذِرُهُمْ … وَأَحَقُّ بعُذْري حُسّدهْ
قَسَمًا بِثَنايا لُؤْلُئِها … قَسَمَ الْياقوتُ مُنَضَّدُهُ
وَرُضابٍ يُوعَدُ كَوْثَرُهُ … مَقْتولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ … لَوْ كانَ يُقَبَّلُ أَسْوَدُهُ
وقَوَام يَرْوِي الْغُصْنُ لَهُ … نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفنِّدُهُ
وَبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلَدي … وَعَوادي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
ما خُنْتُ هَواكَ وَلا خَطَرَتْ … سَلْوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولًا ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل، وطيف الخيال، وخمر الرضاب، وسيف المقلة، وجناية العين، وحمرة الخد،

واستعطاف الحبيب، وفناء المحب. ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضني، وطيف الخيال، وجمال المحبوب، وجناية العين، وحسن القد والجيد، ودقة الحصر، والصبر على الوشاة، وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذًا أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول:

يَا لَيْـــلُ الصَّـــبُّ مَـــتَى غَـــدُهُ   أقيَـــامُ السَّـــاعةِ مَوْعِـــدُهُ
رَقَـــدَ السُّـــمَّارُ فأَرَّقَـــهُ   أسَـــفٌ لِلْبَـــيْنِ يُـــرَدِّدُهُ
فَبَكَـــاهُ الـــنَّجْمُ وَرَقَّ لَـــهُ   مِمَّـــا يَرْعَـــاهُ وَيَرْصُـــدُهُ

ونجد شوقي يقول:

مُضْـــناكَ جفـــاهُ مَرْقَـــدُهُ   وبكـــاهُ ورحَّـــمَ عُـــوَّدُهُ
حَـــيْرانُ القَلْـــبِ مُعَذَّبُـــهُ   مَقْـــروحُ الجَفْـــنِ مُسَـــهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَقًـــا إِلَّا رَمَقًـــا   يُبْقيـــهِ عَلَيـــكَ وَتُنْفِـــدُهُ
يَسْـــتَهْوي الـــوُرْقَ تَأَوُّهُـــهُ   وَيُـــذيبُ الصَـــخْرَ تَنَهُّـــدُهُ
وَيُنَـــاجي الـــنَّجْمَ وَيُتْبَعُـــهُ   وَيُقَـــيمُ اللَيْـــلَ وَيُقعِـــدُهُ
وَيُعَلِّـــمُ كُـــلِّ مُطَوَّقَـــةٍ   شَـــجَنًا في الـــدَّوْحِ تُـــرَدِّدُهُ

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية، لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي:

مُضْـــناكَ جفـــاهُ مَرْقَـــدُهُ   وبكـــاهُ ورحَّـــمَ عُـــوَّدُهُ

أرق من خطاب الليل في قول الحصري:

يَا لَيْـــلُ الصَّـــبُّ مَـــتَى غَـــدُهُ   أقيَـــامُ السَّـــاعةِ مَوْعِـــدُهُ

وقول شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه:

حَـــــيْرانُ القَلْـــــبِ مُعَذَّبُــــــهُ مَقْـــــروحُ الجَفْـــــنِ مُسَـــــهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَفًـــــــا إِلَّا رَمَقًـــــــا يُبْقيــــــهِ عَلَيــــــكَ وَتُنْفِـــــدُهُ
يَسْـــــتَهْوي الـــــوُرْقَ تَأَوُّهُـــــهُ وَيُـــــذيبُ الصَـــــخْرَ تَنَهُّـــــدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري:

رَقَـــــدَ السُّـــــمَّارُ فأَرَّقَـــــهُ أسَـــــفٌ لِلْبَـــــيْنِ يُـــــرَدِّدُهُ

وقول شوقي:

وَيُنَـــــاجي الـــــنَّجْمَ وَيُتْبَعُـــــهُ وَيُقـــــيمُ اللَيْـــــلَ وَيُقعِـــــدُهُ

أقرب في صدقه إلى الواقع من قول الحصري:

فَبَكَـــــاهُ الـــــنَّجْمُ وَرَقَّ لَـــــهُ مِمَّـــــا يَرْعـــــاهُ وَيَرْصُـــــدُهُ

وقول الحصري في تصيد الطيف:

نَصَـــــبَتْ عَيْنـــــايَ لَـــــهُ شَـــــرَكًا فِي النَّـــــوْمِ فَعَـــــزَّ تَصَـــــيُّدُهُ
وَكَفَـــــى عَجَبًـــــا أَنِّ قَـــــنصٌ لِلسِّـــــربِ سَـــــبابِي أغْيَـــــدُهُ

أبرع من قول شوقي:

كَـــمْ مَـــدَّ لِطَيْفِـــكَ مِـــنْ شَـــرَكٍ وَتَأَدَّبَ لا يَتَصَـــــــــــــــــيَّدُهُ
فَعَســـــاكَ بِغُمْـــــضٍ مُسْـــــعِفُهُ وَلَعَـــــلَّ خَيالَـــــكَ مُسْـــــعِدُهُ

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة، وهي تمنع الطيف: فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الأشراك.

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله:

كَـــمْ مَـــدَّ لِطَيْفِـــكَ مِـــنْ شَـــرَكٍ وَتَأَدَّبَ لا يَتَصَـــــــــــــــــيَّدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن، وإن

الحسن لمهيب الجناب [١] .

ويروقني قول شوقي:

مَـــــوْلايَ وَروحــــــي في يَـــــدِهِ   قَـــدْ ضَــــيَّعَها سَـــلِمَتْ يَـــدُهُ
نَاقـــوسُ الْقَلْـــبِ يَـــدُقُّ لَـــهُ   وَحنَـــــايَا الْأَضْـــلُعِ مَعْبَــــدُهُ
حُسَّــــــادي فِيــــهِ أعْـــــذِرُهُمْ   وَأَحـــــقُّ بعُــــذْري حُسّـــــدهْ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه، في ظلمه وعدوانه، ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن، إن قضى الله أن نصلي له، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق، والهوى – كما قيل – إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول:

قَـــــد وَدَّ جَمالَـــــكَ أَو قَبَسًــــا   حَـــــوْراءُ الخُلْـــــدِ وَأَمْــــرَدُهُ

فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال.

وقول الحصري:

صـــاحٍ وَالخَمْـــرُ جَـــنَى فَمِـــهِ   سَــــكْرانُ اللَّحْـــظِ مُعَرْبِـــدُهُ

أروع وأبدع من قول شوقي:

وَرُضَـــــابٍ يُوعَـــــدُ كَـــــوْثَرُهُ   مَقْتـــــولُ الْعِشْـــــقِ وَمُشْـــــهَدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر المثال،

---

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر:

حمـــى نفســـه الحســـن أضـــعاف مـــا   حمـــى نفســـه الجمـــر لمـــا التهـــب

وفيه وحده صورة شعرية رائعة، وما رددته إلا فتنت به فتنة جديدة وظهر لي منه معنى جديد، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه، ولا حد لقدرته على تصريف القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة «جنى» في قوله:

صـــاحٍ وَالخَمْـــرُ جَـــنَى فَمِـــهِ		سَـــكْرانُ اللَّحْـــظِ مُعَرْبِـــدُهُ

وما هذه العربدة يا صاح؟ إنها الأشراك التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل من ورده العذب الجميل!

وقول شوقي:

جَحَـــدَت عَيْنـــاكَ زَكِـــيَّ دَمـــي		أَكَـــذلِكَ خَـــدُّكَ يَجْحَـــدُهُ

قَـــدْ عَـــزَّ شُـــهودي إِذْ رَمَتـــا		فَأَشَـــرْتُ لِخَـــدِّكَ أُشْـــهِدُهُ

أرق من قول الحصري:

يا مَـــن جَحَـــدَتْ عَيْنـــاهُ دَمِـــي		وَعَلَـــى خَدَّيْـــهِ تَـــوَرُّدُهُ

خَـــدَّاكَ قَـــد اِعْتَرَفـــا بِـــدَمِي		فَعَـــلامَ جُفونُـــكَ تَجْحَـــدُهُ

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئًا من الحسن، وزاده تمكينًا في النفس، على ما فيه من الابتذال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول:

لَمْ يُبْـــقِ هَـــواكَ لَـــهُ رَمَقًـــا		فَلْيَبْـــكِ عَلْيـــهِ عُـــوَّدُهُ

وَغَـــدًا يَقْضِـــي أوْ بَعْـــدَ غَـــدٍ		هـــل مِـــنْ نَظَـــرٍ يتَـــزَوَّدُهُ

ولا نجد هذه النغمة المحزنة في قصيدة شوقي، وإنها لتذكرنا بهذا البيت الحزين:

وَأَرَى الأَيَّامَ لا تُـــدْنِي الَـــذي		أَرْتَجِـــي مِنْـــك وتُـــدْنِي أجَلـــي

مظان الضعف

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري:

صَـــنَمٌ لِلْفِتْنَـــةِ مُنْتَصِـــبٌ أهْـــواهُ ولا أتَعَبَّـــدُهُ

لأن كلمة «الصنم» كلمة غير شعرية [1] . والعرب تستملح «الدمية» في وصف المرأة الجميلة والدمية هي الصورة المنقشة من الرخام، والجمع دمي، قال بعض الأعراب:

وَإِنِّي لأُهْـدَي بالْأَوانِـس كالـدُّمَى وَإِنِّي بأَطْـراف الْقنـا للعُـوبُ

وَإِنِّي عَلَـى مـا كـانَ مِـنْ عُنْجُهِيّـتي ولوْثـة أعْـرابيّتي لأُديـبُ

وكذلك أستضعف قول الحصري:

مـا أحْلَـى الوَصْـلَ وأَعْذَبَـهُ لَـوْلا الأيَّامُ تُنَكِّـدُهُ

بِالبَـيْنِ وبِالْهِجْـرانِ فَيـا لَفُـؤَادِي كيْـف تَجَلُّـدُهُ

وأضعف منه قول شوقي:

بَيْـني في الحُـبِّ وَبَيْنَـكَ مـا لا يَقْدِرُ واشٍ يُفْسِدُهُ

مـا بالُ الْعـاذِلِ يَفْـتَحُ لي بابَ السُّلوانِ وَأوصِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين، وهو لا يزيد شيئًا عن الصوت العامي المشهور «كيد العواذل كايدني بس اسمع شوف».

وكذلك لا قيمة لقوله:

وَبِخَصْـرٍ أَوْهَـنَ مِـنْ جَلَـدي وَعَـوادي الْهَجْـرِ تُبَـدِّدُهُ

وهي مبالغة مردودة؛ لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال:

وقَـوَام يَـرْوِي الْغُصْـنُ لَـهُ نَسَـبًا وَالـرُّمْحُ يُفنِّـدُهُ

---

(١) لكثرة ما ورد في ذم الأصنام، وقد أشرنا في هامش سلف إلى أن هذه الكلمة لا تزال حية على ألسنة أهل المغرب، وهم يقولون: «صنم» حيثما يشيرون إلى التمثال.

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال:

إِنّي لَأُعيـذُكَ مِـنْ قَتْلِـي وَأَظُنُّـكَ لاَ تَتَعَمَّـدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء، لا خيال شعراء!

روعة الخيال

وإنه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع، وإنا لنستجيد قول الحصري:

يَنْضُـو مِـنْ مُقْلتِـهِ سَـيْفًا وَكَـأَنَّ نُعَاسًـا يُغْمِـدُهُ
فَيُرِيـقُ دَمَ الْعُشَّـاقِ بِـهِ وَالْوَيْـلُ لِمَـنْ يَتَقَلَّـدُهُ
كَـلاّ لاَ ذَنْـبَ لِمَـنْ قَتَلَـتْ عَيْنَـاهُ وَلَمْ تَقْتُـلْ يَـدُهُ

وإن البيت الأول لمن ونبات الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي:

نَاقُـوسُ الْقَلْـبِ يَـدُقُّ لَـهُ وَحنَـايَا الْأَضْـلُعِ مَعْبَـدُهُ

وللقارئ أن يلومنا في استجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضًا خيال فقهاء، لا خيال شعراء. ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو، وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع عُنيت بتفصيله في غير هذا الحديث [١] ، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس، وكان خياله قريبًا في الحسن من خيال الحصري، إذ توهم اللحظ سيفًا يكاد يغمده النعاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

(١) تجد هذا البحث في كتاب «أثر الشعر في ربط الشعوب».

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا: فإن الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة، وكان من ذلك أن رضى بعفو الخاطر. أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أن عني بترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب، فإنه لا معنى لقول شوقي:

وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ ... لَوْ كَان يُقَبّلُ أَسْوَدُهُ

ولا رونق لقوله:

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ ... يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تشْهدُهُ

الحكم

وللقارئ – إن شاء الحكم – أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن، ومظان الضعف، ومواقع الخيال: ليرى أي الشاعرين أولى بالسبق، وأيهما أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب، فإننا لا نعنى بالأشخاص، وإنما يعنينا أن ندرس الشعر، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح. وكذلك ندرس البيان، ونحن نوازن بين الشعراء.

الفصل الرابع عشر

البُحتري وشوقي

قلنا: إن لشوقي كلفًا بمعارضة المتقدمين من الشعراء، ووازنا بين داليته ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحتري، فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة؛ ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولًا أن شوقي يتأثر البحتري منذ زمن بعيد، ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب «أم المحسنين»:

النِّيـلُ فَجَّـرَ مَشْـرَعيْنِ وَعَيْلَمًـا ... وَتَفَجَّـرَتْ يُمْنـاكِ خَمْسَـةَ أَبْحُـرِ
أَحْيَيْـتِ فِي فَضْـلِ الْمُلـوكِ وَعِـزِّهِمْ ... مـا مـاتَ مِـنْ أُمِّ الْخَليفَـةِ جَعْفَـرِ
إنَّ الَّـذي قَـدْ رَدَّهـا وَأَعادهـا ... في بُرْدتَيْـكِ أَعـادَ فِيَّ البُحْـتُرِي

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء:

وَعَـظَ الْبُحْـتُرِيَّ إِيـوانُ كِسْـرَى ... وَشَـفَتْنِي الْقُصـورُ مِـنْ عَبْـدِ شَمْـسِ

حياة البحتري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ بمنبج بين حلب والفرات. ومنبج – بالفتح، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة وجيم – بلد قديم طيب الهواء. ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم: البحتري، وأبو فراس. ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك، ولي بك يا أمير

المؤمنين. قال: كيف بناؤه؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

وقال: وكيف ذلك، وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأحذو حذوه.

قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء.

قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله!

وفي التشوق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر، وقد خلى بها شعبة من فؤاده:

وَلَيْلَةَ عَيْنِ المَرْجِ زَارَ خيَالُهُ ... فَهَيَّجَ لي شَوْقًا وَجَدَّد أحْزاني
فَأَشْرَفتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طامِحًا ... بأَلْمَحِ آماقٍ وَأَنْظَرِ إِنْسانِ
لَعَلِّي أَرَى أَبْياتَ مُنْبِجَ رُؤْيَةً ... نُسَكِّنُ مِنْ وَجْدي وتَكْشفُ أشْجاني
فَقَصَّرَ طَرْفِي واسْتَهَلَّ بِعَبْرَةٍ ... وَفَدَّيْتُ مَنْ لَوْ كان يَدْري لَفَدَّاني
وَمَثَّلَهُ شَوْقي إِلَيْهِ مُقابِلِي ... وَناجاهُ عَنّي بالضَّميرِ وناجاني

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لندرك بعض السر في رقة البحتري، وجمال شعره، فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدواء، أثرًا كبيرًا في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب [1]؛ ولأن البحتري كان كثير الحنين إلى منبج، وكان كثيرًا ما يشيد بها في شعره ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي:

لا أَنْسَيَنْ زَمَنًا مُهَذَّبًا ... وَظِلالَ عَيْش كانَ عِنْدَكَ سَجْسَجِ
في نِعْمَةٍ أَوطِنْتُها وَسَكَنْتُ في ... أَفْيائها فكأَنَّني في مَنْبِجِ

بداية حياته

شب البحتري وترعرع في منبج. وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان!

---

(١) انظر تفضيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب: «النثر الفني».

قالوا: «وكان منه ما كان في علوة التي شبب بها في كثير من أشعاره، وهي بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها»، ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة كان لها شأن في عالم الجمال، وأن البحتري حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في مهد المرح، وتقلبت فوق أعطاف الدلال.

ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة، وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد، وعلمته كيف تكون الشكوى، وكيف يكون الأنين! وإن الشعر لمدين لهذه الألهة التي أوحت إلى البحتري أن يقول بعد أن خلاها بالشام، وسكن العراق:

أَعِيـــدِي فِيَّ نَظْـــرةَ مُسْـــتَثِيبٍ ... تَـــوَخَّى الأَجْـــرَ أَوْ كَـــرِهَ الأَثامـــا
تَــــرَيْ كَبِــــدًا مُحَرَّقَـــةً وَعَيْنًــــا ... مؤَرَّقَـــــةً وَقَلْبًــــا مُسْـــــتَهاما
أُلامُ عَلَـــى هَـــواكِ وَلَـــيْسَ عَـــدْلًا ... إذا أَحْبَبْـــتُ مِثْلَـــكِ أَنْ أُلامـــا
لَقَـــدْ حَرَّمْـــتِ مِـــنْ وَصْـــلي حَـــلالًا ... وَقَـــدْ حَلَّلْـــتِ مِـــنْ هَجْـــري حَرامـــا
تَنـــاءَتْ دارُ عَلْـــوَةَ بَعْـــدَ قُـــربٍ ... فَهَـــلْ رَكْـــبٌ يُبَلِّغُهـــا السِّـــلاما
وَجَـــدَّد طَيْفُهـــا عَتْبًـــا عَلَيْنـــا ... فَمـــا يَعْتـــادُنا إِلَّا لِمامـــا
وَرُبَّـــتَ لَيْلَـــة قَـــدْ بـــتُّ أَسْـــقَى ... بعَيْنَيْهـــا وَكَفَّيْهـــا المُـــداما
قَطَعْنـــا اللَّيْـــل لَثْمًـــا وَاعْتِناقًـــا ... وَأَفْنَيْنـــاهُ ضَـــمًّا وَالْتِزامًـــا
لَـــئِنْ أَضْـــحَتْ مَحِلَّتُنـــا عِراقًـــا ... مُشَـــرِّقَةً وَحِلَّتُهـــا شَـــآما
فَلَـــمْ أُحْـــدِثْ لَهـــا إلاَّ ودادًا ... وَلَمْ أَزدَدْ بِهـــا إلاَّ غَرامـــا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول في كتاب «مدامع العشاق»، ويكفي أن نذكر أنموذجًا من شعره في وصف تلك النفس، وإنه ليقول:

هَل لي سَبيل إلى الظُّهْرانِ مِنْ حَلَبٍ ... وَنَشْـــوةٍ بَـــيْنَ ذاكَ الـــوَرْدِ والآس

أَمُـدُّ كَفِّـي لِأَخْـذِ الْكـاسِ مِـنْ رشـأٍ　　وَحـاجَتِي كُلُّهـا في خامِـل الْكـاس
بقُـرْب أنْفاسِـهِ أشْـفي الْغَليـلَ إذا　　دَنا فَقَرَّبَهـا مِـنْ حـرَّ أنْفاسـي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بحمص، وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره. فلما سمع البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس. فلما تفرقوا قال له: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا إليه خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم بإكرامه، قال البحتري: «فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته»، وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شيئًا من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مُقْـرَمُ مِنَّـا ذَرَى حَـدُّ نابـه　　تَخَمَّـط فينـا نابُ آخـر مُقْـرم [(١)]

وقال: نعيت إلى نفسي! فقلت: أعيذك بالله من هذا! فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيء مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم، وهو من رهطه، فقال: يا بني نعي نفسي إليَّ إحسانك في كلامك؛ لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر، حتى قالوا: إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعرًا لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي: «أحسنت، أنت أمير الشعراء بعدي»، فكان قوله أحب إليّ من جميع ما حويته.

---

(١) الفحل المقرم هو الذي أقرمه صاحبه: تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة وقرمه، وتخمط الفحل: هدر. ومن المجاز: تخمط الرحل: تغضب وثار. والمراد هما من تخمط الثاني ظهوره وارتفاعه.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري، فقد نوه بها ابن رشيق، وساقها صاحب زهر الآداب، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا كذلك على أسلوب البحتري في حياته الأدبية، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه. وفيها أيضًا نوع من التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث.

قال البحتري: كنت في حداثتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقًا، والمعنى رشيقًا، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياد، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه وشرف مقامه، ونص المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه: فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال البحتري: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة [١] .

ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهبًا للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس وبلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأماكن الخالية.

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

إلا أن أبا تمام – مع أنه مسبوق – وفق كل التوفيق حين قال: «واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين»، وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم كتابًا، أم مصورين، أم مثالين؛ لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة، وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد، إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح، وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء، فلم يتكلم عن الرثاء، ولا الهجاء، ولا الفخر، ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعني به الشعراء، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال: «ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد»، وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال.

ولا يحسبن القارئ أن في إقبال البحتري على ما أوصاه به أستاذه دليلًا على أن شعر أبي تمام وشعر البحتري من نمط واحد ... كلا! فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ، ولا يمثل الشاعر؛ لأنا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا بين المنزعين من الفرق البعيد، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب، فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلًا، وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن عناية البحتري بوصية أستاذه بيانًا لأسلوبه في رياضة نفسه، وتهذيب شعره، فلننظر بهذه المناسبة، كيف يروض شوقي نفسه، وكيف يهذب شعره، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن يضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت، فستراه قليل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين، ولكن

وقد عرفت شوقي، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليل، وليلاه هي الشعر، وهو بالشعر مجنون، لا مغرم ولا مفتون، فإن الغرام ولا مفتون، فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب.

يحدثك شوقي حديثًا عاديًّا لا روعة له، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة، وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه، وحنايا نفسه، وأعماق ضميره – دخلت عليه، وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد، ثم يغتني بهذه الكلمة: «الصوفاني بك معضلة من المعضلات، هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء؟»، فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه، ونفسه، وحسه، ووجدانه في شغل بما يعدّه لرثاء الصوفاني بك «تمثال الإخلاص»، وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئًا في تحديد تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأبين، فإذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية:

مــــــا كـــــــان قُسًّـــــا وَلا زِيادًا وَلا بِسِـــــــحْرِ البيــــــان جـــــاءَ
لَكِـــنْ إِذا قـــامَ قـــالَ صِـــدْقًا وَجانَـــــبَ الــــــزُّورَ وَالـــــرِّياءَ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفًا صادقًا حين قال:

ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم، وينظم في المركبة، وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، وحيث يشاء، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظريه، وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بضربه، وقد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمرارًا خفيفًا هنيهة بعد هنيهة – فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في الحديث – ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم تنقطع عنه مستظهرًا ما تم منه حافظًا لبقية المعنى الذي يضمره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرًا، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة – يكلف أحيانًا بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يبزهم – ولا يجهد فكره ولا يكده في

معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجيئه على مرامه، أو على أبعد من مرامه؛ ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق، وحقائق التاريخ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقاها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبني فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول: ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم، وهي أنه نظم شوقي: ذلك شعر العبقرية والتفوق.

ملامح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحتري وشوقي في قرض الشعر، فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحتري كتابًا سماه «معاني الشعر» [1] ، وترك كتابًا آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي – وإن لم يصنف كتبًا في الآداب – يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحتري يحتفي بإنشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين؛ ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس منه، وعبث به أهل السفه، وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلما يتحدث عن شعره، وقلما ينشده، وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم، غير مأمون العواقب، وكثيرًا ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاءُ البحتري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي

---

(١) قد يظن أن هذا كتاب في النقد، ولكنا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعاني.

التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحتري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي! فلنكتف بهذا التلميح، ولنذكر ما صير البحتري مثلًا في الوفاء.

كان المتوكل –كما ذكر صاحب زهر الآداب – عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي! ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي: ألا تسمعني ساعة حتى أشكو إليك ما يمر بي؟ قال: بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وغلق بغا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل، وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه، فقتلا جميعًا، وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري: «وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر» – وللظالم الويل.

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين، وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحتري، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافيًا في ردعه عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس تعلب بقوله: «ما قبلت هاشمية أحسن منها! وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب»، وفيها يقول:

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِي وَأُنْسُهُ ... وَقُوِّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ

تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً ... فَآضَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ

وَلَمْ أرَ مِثْلَ الْقَصْرِ إذْ رِيعَ سِرْبُهُ ... وَإذْ ذُعِرَتْ أطْلاَؤهُ وَجَآذِرُهْ

وَإذْ صِيحَ فيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتّكَتْ ... عَلَى عَجَلٍ أسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى ... وَقَدْ كانَ قَبْلَ الْيوْمِ يَبْهَجُ زائرُهُ

فَـأيْنَ عَمِيــدُ النَّــاسِ في كُــلِّ نَوْبَــةٍ تَنُــوبُ وَنَاهــي الــدَّهْرِ فــيهِمْ وآمِــرُهُ

تَخَفَّـــى لَـــهُ مُغْتَالُـــهُ تَحْـــتَ غِـــرَّةٍ وَأَوْلَى لِمَـــنْ يَغْتَالُـــهُ لَـــوْ يُجَـــاهِرُهْ

صَـرِيعٌ تَقَاضَــاهُ السُّــيُوفُ حُشَاشَــةً يَجُــودُ بِهَــا وَالمَــوْتُ حُمْــرٌ أظــافِرُه

حَــرَامٌ علــيّ الــرَّاحُ بَعْــدَاكَ أوْ أرَى دَمًـا بـدَمٍ يَجْـرِي عَلَـى الأرْضِ مـائِرُهْ

وَهَـلْ يُرْتَجَـى أنْ يَطْلُـبَ الـدَّمَ طالِـبٌ مَـدَى الـدَّهْرِ والمَوْتُـورُ بالـدّمِ وَاتِـرُهْ

فَـلا مُلّـيَ البَـاقي تُـرَاثَ الَّـذي مَضَـى وَلاَ حَمَلَـــتْ ذاكَ الـــدّعَاءَ مَنَـــابِرُهْ

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه:

تَــدارَكَني الإِحْســانُ مِنْــكَ وَنالَــني عَلَــى فاقَــةٍ ذاكَ النَّــدَى وَالتَّطَــوُّلُ

وَدافَعْـتَ عَـنِّي حـينَ لا الفَـتْحُ يُرْتَجي لِـــدْفعِ الأَذَى عَـــنِّي وَلا المُتَوكِّـــلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية:

مَضَـى جَعْفَـرٌ وَالْفَـتْحُ بَـيْنَ مُوَسَّـدِ وَبَـــيْنَ قَتيـــلٍ في الـــدِّماءِ مُضَـــرَّجِ

أَأَطْلُـبُ أَنْصـارًا عَلَـى الـدَّهْرِ بَعْـدَ مـا نَوى مِنْهُما في التُّرْبِ أوْسي وخزْرجي

وانظر كيف يقول، وقد بان بعض من يهوى:

عَسَى آيسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يوصَلُ وَدهْـــرٌ تَـــوَلَّى بِالْأَحِبَّـــةِ يُقْبِـــلُ

أَيا سَـــكَنا فـــاتَ الْفِـــراقَ بِنَفْسِـــهِ وَحـــالَ التَّعـــادي دُونَـــهُ وَالتَّنَزُّـــلُ

أتَعْجَـبُ لَمَّـا لَمْ يَغُـلْ جِسْـمي الضَّـنى وَلَمْ يَخْـتَرِمْ نَفْســي الحِمــامُ المعَجَّــلُ

فَقَبْلَــكَ بانَ الْفَــتْحُ عَــنِّي موَدِّعًــا وَفـــارَقَني شَـــفْعًا لَـــهُ المَتَوَكِّـــلُ

فَمـا بَلَـغَ الـدَّمْعُ الَّـذي كُنْـتُ أَرْتَجي وَلأَفَعَـلَ الوَجْـدُ الَّـذي خِلْـتُ يَفْعَـلُ

وَمـا كُـلُّ نـيرانِ الجَـوَى تَقْتُـلُ الحشـا   وَمَـــا كُــــلُّ أدَواءِ الصَّـــبابَةِ تَقْتُــــلُ

تلك هي نفس البحتري، الذي عذبته علوة في بداية حياته، وصهره الحزن على المتوكل في أخريات أيامه، وقد عرف القارئ عنه شيئًا فيه بعض الغناء، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف، ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك، والتفجع لنكبات الشعوب، قبل أن يرى كيف وصف البحتري إيوان كسرى، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

الفصل الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحتري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية، لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك، والتفجع للشعوب، إذ كانوا في بداية الحياة وكان الرجل منهم قلما يعني بغير نفسه، وأهله، وذويه، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يستر لها عورة؛ لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال، وإنما كان كتاب حكمة وموعظة، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس، ومن إليهم من الجبابرة والطغاة، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال.

على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة، ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي:

نام الْخَلــيُّ وَمــا أحِــسُّ رُقــادي | والهَـــمُّ مُحْتَضِـــرٌ لَـــدَيّ وِســـادي
مِــنْ غَــيْرِ مــا سَــقَمٍ ولكِــن شَــفَّني | هَـــمٌّ أراهُ قـــدْ أصـــابَ فـــؤَادي
وَمِـــنَ الحـــوادِثِ لا أبالَـــكَ أنَّـــنِي | ضُـــرِبَتْ عَلَـــيَّ الأرْضُ بالأسْـــدادِ
لا أهْتَـــدي فيهـــا لِموضِـــعِ تَلْعَـــةٍ | بَـــيْنَ العِـــراقِ وَبَـــيْنَ أرْضِ مُـــرادِ
وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ سِـوى الَّـذي نَبَّـأتِنِي | أنَّ السّـــبَيلَ ســـبيلُ ذي الأعْـــوادِ
إن المنِيّـــةَ والحُتُـــوفَ كِلاهُمـــا | يُـــوفي المَخـــارِمَ يَرْقُبـــان سَـــوادي
لَـــنْ يَرْضَـــيا مِـــنّي وفـــاءَ رَهينَـــةٍ | مِــنْ دُونِ نَفْســي طــارِفي وتِــلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين:

مَـــاذَا أُؤَمِّـــلُ بعْـــد آلِ مُحَـــرِّق | تَرَكُـــوا مَنـــازِلَهُم وَبَعْـــدَ إيادِ
أَهْـــلَ الخَوَرْنَـــقِ وَالسَّـــديرِ وَبارِقٍ | وَالْقَصْـرِ ذي الشُّـرُفاتِ مِـنْ سِـنْدادِ
أَرْضٌ تَخَيَّرَهـــا لِطيـــبِ مَقيلِهـــا | كَعْـــبُ بـــنُ مامَـــةَ وَابْـــنُ أُمّ دُؤادِ
جَـرَتِ الـرِّياحُ عَلَـى مَكَـانِ دِيارِهِـمْ | فَكَأَنَّمـــا كـــانوا عَلَـــى ميعـــادِ
وَلَقَـد غَنـوا فيهـا بِأَنْعَـمِ عيشَـةٍ | في ظِـــلّ مُلْـــكٍ ثابِـــتِ الأَوْتادِ
نَزَلـــوا بِأَنقِـــرَةٍ يَســـيلُ عَلَيهِمِـــو | مـــاءُ الفُـــراتِ يَجـــيءُ مِـــنْ أَطْـــوادِ
فَـإِذا النَّعـيمُ وَكُـلُّ مـا يُلْهَـى بِـهِ | يَوْمًـــا يَصـــيرُ إِلى بِلـــىً وَنَفـــادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه، فقال:

إمّــا تَــرَيْني قَــدْ بَليــتُ وَغاضَــنِي | ما نيلَ مَنْ بَصَري وَمِنْ أَجْلادي [(١)]
وَعَصَـيْتُ أَصْـحابَ الصَـبابَةِ وَالصِبا | وَأَطَعْـــتُ عـــاذِلَتِي وَلَّانَ قِيـــادي
فلَقَـــدْ أَروحُ عَلَـــى التِّجـــارِ مُـــرَجَّلًا | مِـــذِلًا بِمـــالي لَيِّنًـــا أَجْيـــادي

---

(١) الأجلاد: جمع جلد بالتحريك، وهو القوة.

ولَقَــد لَهَــوتُ وَلِلشَــبابِ لَــذاذَةٌ بِسُــلافَةٍ مُزِجَــت بِمــاءِ غَــوادِ
مِــن خَمــرِ ذي نَطَـفٍ أَغَـنَّ مُنَطَّـقٍ وافى بِهــا لِــدَراهِمِ الأَمْجــادِ
يَسْــعَى بِهــا ذو تُــومَتْينِ مُشَــمّرٌ قَنَــأَتْ أَنامِلُــهُ مِــن الْفِرصــادِ
والْبِــيضُ بــرْمين القُلــوبَ كَأنّهــا أدْحــيُّ بْــين صــريمةٍ وجمــاد
يــنْطِقْنَ معْروفًــا وهْــنّ نــواعمٌ بــيضُ الوجْــوه رفيقــةُ الأكبــاد

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عبنينه التي يقول فيها:

وَلَقَــدْ علِمْــتُ ولا محالَــةَ أنّــني للْحــادثات فهــلْ تــريْني أجْــزعُ
أَفْنْــين عــادًا ثُم آل مُحــرِّقٍ فترَكْــنهُمْ بــددًا ومــا قَــدْ جمَعــوا
وَلَهُــنَّ كــان الحــارثان كِلاهُمــا ولهْــنَ كــان أخْــو المصــانع تُبَّــعُ (١)
لا بُــدَّ مِــنْ تَلــفٍ مُصــيبٍ فــانْتظرْ أَبأَرْض قوْمــك أمْ بأخْــرَىَ نُصْــرعُ
وليَــأتِينّ عليْــك يــوْمٌ مــرّة يُبْكَــى عَليْــك مُقنّعــا لا نسْــمعُ

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب، لكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد إليها الرحال، كوقفة البحتري عند رسوم الإيوان، ووقفة شوقي عند أطلال الحمراء.

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحتري أحجاره، وطاف بأركانه، كان مضرب المثل عند الأعراب، فقد قيل لأعرابي: كيف نصنع بالبادية إذا انتصف النهار، وانتعل كل شيء ظله؟ فأجاب: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلًا فيرفض عرقًا كأنه الحمان، ثم تنصب عصاه، ويلقي عليها كساءه، وتقبل الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

---

(١) المصانع: القصور.

وقد حُكيَ فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آلته في عمارة بغداد، فقال له: لا تفعل يا أمير المؤمنين! فقال: أبيت إلا التعصب للفرس! فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة ودينًا وقومًا أذهبوا ملك بانيه لدينٌ وملكٌ عظيمٌ، فلم يصغ إلى رأيه وأمر بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه، فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه؛ لئلا يقال: إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة!

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة، وقد تكون خرافة تناقلها الناس، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد.

أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود، الذي يبكيه المسلمون، ولننظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحتري

وأريد بنفسية البحتري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين همّ بوصف الإيوان، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين: إحداهما في بداية القصيدة، والثانية في النهاية، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الأقارب، بالفزع إلى طلول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويستودعها أساه وشجاه، وذلك حيث يقول:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ[1]
وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعْزَعَني الدّهْـ ـرُ الْتِماسًا مِنْهُ لتَعْسِي وَنُكْسِي
بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عِنْدِي طَفَّفَتْهَا الأيّامُ تَطْفيفَ بَخْسِ
وَبَعِيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ عَلَلٍ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خِمْسِ[2]

(١) الجبس: هو الدنيء الجبان.

(٢) الخمس: شر الأظماء.

وَكَـأَنَّ الزَّمَـانَ أَصْـبَحَ مَحْمُـو ... لا هَـواهُ مَـعَ الْأَخَـسِّ الْأَخَـسِّ
وَاشْـتِرائِي الْعِـرَاقَ خُطَّـةُ غَـبْنٍ ... بَعْـدَ بَيْعِـي الشَّـآم بَيْعَـةَ وَكْـسِ
لا تَـرُزْنِي مُـزَاوِلًا لاخْتبَـارِي ... عِنْـد هَـذي البَلْـوَى فتُنكَـرَ مَسِّـي[1]
وَقَـديمًا عَهِـدْتَني ذا هَنَـاتٍ ... آبيـاتٍ عَلَـى الـدَّنيئاتِ شُمْـسِ
وَلَقَـدْ رَابَـني نُبُـوُّ ابـنِ عَمِّـي ... بَعْـد لـينٍ مِـنْ جانبَيْـهِ وأُنْـسِ
وإذا مـا جُفيـتُ كُنْـتُ حَـرِيًّا ... أنْ أُرَى غَيْـرَ مُصْـبحٍ حَيْـثُ أُمْسِـي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة، فقال:

حَضَـرَتْ رَحْلِـيَ الهُمُـومُ فَوَجَّهْـ ... ـتُ إلَى أَبَـيضِ المـدائِنِ عنْسِـي
أتَسـلَّى عـنِ الحُظُـوظِ وآسَـي ... لِمَحـلٍ مِـنْ آلِ سَاسَـان دَرْسِ
ذَكَّـرَتْنِيهِمُ الخُطُـوبُ التَّـوَالِي ... وَلَقَـدْ تُـذْكِرُ الخُطُـوبُ وتُنْسِـي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الإيوان، وليست الدار داره ولا الجنس جنسه؛ لأن لأهله نعمى عند أهله؛ ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه، بما أمدوهم به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول:

عَمَـرَتْ للسّـرُورِ دَهْـرًا فصَـارَتْ ... للتّعَـزّي رِبَاعُهُـمْ وَالتّأسِّـي
فَلَهَـا أنْ أُعِينَهَـا بـدُمُوعٍ ... مُوقَفَـاتٍ عَلَـى الصَّـبَابَةِ حُـبْسِ
ذاكَ عِنْـدِي وَلَيْسـتِ الـدَّارُ دارِي ... باقْـترَابٍ مِنْهـا ولا الجِـنْسُ جنْسِـي
غَيْـرَ نُعْمَـى لأَهْلِهَـا عِنْـدَ أهْلِـي ... غَرَسُـوا مِـنْ ذَكَائِهـا خيْـرَ غَـرْسِ
أيّـدُوا مُلْكَنَـا وَشَـدُّوا قُـوَاهُ ... بكُمـاةٍ تَحْـتَ السَّـنَوَّرِ حُمْـسِ[2]
وأعَـانُوا عَلَـى كتَائِـبِ أرْيَا ... طَ بطَعْـنٍ عَلَـى النُّحـورِ وَدَعْـسِ

---

(١) لا ترزني: لا تمتحني.

(٢) السنور: السلاح.

وأرَانِي مِـــنْ بَعْـــدُ أكْلَـــفُ بِالأشْـــ ـــرافِ طُـرًّا مِـنْ كُـلّ سِـنْخٍ وَإِسّ [(١)]

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس، ويبكي المجد الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منثورة تصف حسه، ووجدانه، وهو يطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة، فإنا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوت قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون:لما وضعت الحرب الشومى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط، فبلغت النفس بمرآة الأرب، وكحلت العين في تراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا يتقارب غير العتق والكرم، طليطلة تطل على جسرها البالي، واشبيلية تشبل على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحتري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رحل لحال، فإنه أبلغ من جلَّى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفري حين نحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد المتوكل للبلى، فرفع قواعده في السير، وبنى ركنه في الخبر، وجمع معالمه في الفكر، حتى عاد كقصور

---

(١) الأصل والجنس.

الخلد امتلأت منها البصيرة وإن حلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه، وهو تحت كسرى في رصه ورصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب (الفيح القسي في الفتح القدسي) بعد كلام: «فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحتري في وصفه، تجدوا الإيوان قد حرث شعفائه وعفرت شرفاته، وتجدوا سينية البحتري قد بقى بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه»، وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا مَوَاثِلٌ وَأَنُوشِرْ ... وَانُ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْس

فكنت كلما وقفت بحجر، أو طفت بأثر،(١) تمثلت بأبياتها، واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وَعَظَ الْبُحْتُرِيَّ إِيوانُ كِسْرَى ... وَشَفَتْنِي الْقُصورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الريضة، وأنا أعرضها على القراء، راجيًا أن يلحظوها بعين الرضاء، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإعضاء.

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي، فهو يسجع ولا يكاد يبين (٢) ، غير أنه قد يوفق إلى تشابيه مبتكرة تسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان: «يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم».

---

(١) الدرفس: العلم، وهي كلمة فارسية، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية.

(٢) غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة، وكان يرى نفسه أكتب الناس، ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية، ولكنا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس.

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل.

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري، فهو عنده «أبلغ من جلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر»، وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي، وكيف كان روح البحتري يُطيف به وهو يطوف بالحمراء.

ولا يدري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحتري هو قوله:

وَالمنَـــــايا مواثِــــلٌ وأنَوشِــــرْ   وإنَ يُزْجِـي الصُّـفوفَ تَحْتَ الـدِّرِفْسِ

وكنا نحب لو ينبه لقوله في وصف الإيوان:

لَـيسَ يُـدرَى أصُـنْعُ إنْـسٍ لجـنٍّ   سَـكَنوهُ أمْ صُـنعُ جـنٍّ لإنْـسِ

وقوله في بكائه:

لَـوْ تَـرَاهُ عَلِمْـتَ أَن الليَـالِي   جَعَلَـتْ فيـه مَأْتَمًـا بَعْـدَ عُـرْسِ

ولشوقي رأيه، فقد يختلف النقد أحيانًا باختلاف الأذواق.

الفصل السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحتري ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والتنكر لظلم الأقربين؛ وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية، وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية، تفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونه، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد، وإنه ليبكي ملاعب شبابه، وعهود صباه، حين يقول في مطلع هذه السينية:

اخْـتلافُ النّهَـارِ واللَّيْـلِ يُنْسِـي ... فَـاُذْكُرَا لِي الصّـبَا وَأَيَّامَ أُنْسـي
وصِـفا لي مُـلاوَةً مِـنْ شَـبابٍ ... صُـوِّرتْ مِـنْ تَصـوُّراتٍ ومـسّ
عَصَـفَتْ كالصّبا اللَّعـوبِ ومـرَّتْ ... سِـنَةً حُلْـوةً وَلَـذَّةَ خَلْـسِ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر، فيقول:

وَسَـلَا مِصْـرَ هـلْ سَـلَا الْقَلْـبُ عنْهَـا ... أَو أَسـا جُرحَـهُ الزَمـانَ المُؤَسّـي
كُلَّمـا مَـرَّتِ اللَيـالي عَلَيـهِ ... رَقَّ وَالعَهـدُ في اللَيـالي تُقَسّـي
مُسـتَطارٌ إِذا البَـواخِرُ رَنَّـت ... أَوَّلَ اللَيـلِ أَو عَـوَت بَعـدَ جَـرسِ

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة الحسن في قوله:

وَسَـلَا مِصْـرَ هـلْ سَـلَا الْقَلْـبُ عنْهَـا ... أَو أَسـا جُرحَـهُ الزَمـانَ المُؤَسّـي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال:

كُلَّمــــا مَــــرَّتِ اللَيـــــالي عَلَيــــهِ رَقَّ وَالعَهــــدُ في اللَيـــــالي تُقَسّــــي

مُســــــتَطارٌ إِذا البَـــــواخِرُ رَنَّــــت أَوَّلَ اللَيـــلِ أَو عَــوَت بَعــدَ جَــرسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق، أو هب النسيم، كما كان يتحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ المحيط. وأين وميض البرق، وهبوب الريح، من أصوات البواخر في غسق الليل؟ – ثم قال:

يا اِبنَـــةَ الــيَمِّ مــا أَبــوكِ بَخيــلٌ مــا لَــهُ مولَعًــا بِمَنــعٍ وَحَــبسِ

أَحَـــرامٌ عَلَـــى بَلابِلِـــهِ الـــدَّوْ حُ حَــلالٌ لِلطَّــيْرِ مِــنْ كُــلِّ جِــنْسِ

كُــــلُّ دارٍ أَحَـــــقُّ بِالأَهْـــــلِ إِلّا في خَبيــثٍ مِــنَ المَــذاهِبِ رِجْــسِ

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرءوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية، لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة، فقد كنا نتغنى بقول شوقي:

أَحَـــرامٌ عَلَـــى بَلابِلِـــهِ الـــدَّوْ حُ حَــلالٌ لِلطَّــيْرِ مِــنْ كُــلِّ جِــنْسِ

ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة، نفرت عنها البلابل المغردة، ثم صارت مأوى للبوم، ومقيلًا للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد، يرسل الأماني عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسبيل النيل، ثم لا تجاب له طلبة، ولا يدنو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم القلب، وقاح الوجه، خبيث اللسان!! وسيظل قول شوقي:

أَحَـــرامٌ عَلَـــى بَلابِلِـــهِ الـــدَّوْ حُ حَــلالٌ لِلطَّــيْرِ مِــنْ كُــلِّ جِــنْسِ

سيظل هذا البيت مثارًا للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل. أما قوله:

كُــــلُّ دارٍ أَحَـــــقُّ بِالأَهْـــــلِ إِلّا في خَبيــثٍ مِــنَ المَــذاهِبِ رِجْــسِ

فهو رمية مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد، وسيظل غصة يشجي بها بعض

الحلوق – ثم قال في خطاب الباخرة:

نَفسي مِرجَلٌ وَقَلبي شِراعٌ … بِهِما في الدُموعِ سيري وَأَرسي

وَاِجْعَلي وَجْهَكِ «الفَنارَ» وَمَجرا … كِ يَدَ «الثَغرِ» بَينَ رَمْلٍ وَمَكْسِ

وطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ … نَازَعَتْنِي إليْه في الْخُلْد نفْسي

وهَفَا بِالْفُؤَادِ في سلْسبِيل … ظَمَأٌ لِلسّواد منْ عيْن شمْس

شَهِد الله لمْ يغِبْ عنْ جُفُونِي … شَخْصُهُ ساعة ولمْ يخْلُ حسّي

يُصْبِحُ الفِكْرُ وَالمَسَلَّةُ ناديـ … ـهِ وَبِالسَرْحَةِ الزَكِيَّةِ يُمْسي

وأي نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع، إنه والله يمثل النفس المصرية، وحسبي أن أقول: النفس المصرية، وهل في الدنيا – ولولا التقى لأضفت إليها الآخرة – وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناؤه مثل وادي النيل؟

إن الذي يعيش في مصر، وله ذوق شوقي وإحساسه، ليس بكثير عليه أن يقول:

وطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ … نَازَعَتْنِي إليْه في الْخُلْد نفْسي

وهَفَا بِالْفُؤَادِ في سلْسبِيل … ظَمَأٌ لِلسّواد منْ عيْن شمْس

شَهِد الله لمْ يغِبْ عنْ جُفُونِي … شَخْصُهُ ساعة ولمْ يخْلُ حسّي

لقد كانت مصر، ولا تزال بابا من الفتنة لكل من يمسي وله فيها رأي مطاع وبفضلها يقول فرعون:

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ

ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده، وهو يشاهد الأهرام: «أبهذه كفر فرعون بربه!». فقال له أحد وزرائه: يا أمير المؤمنين إن الله يقول:

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ

فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة، وتغرس فيها من الجبروت، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك، ويحبب إليه العدوان. وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطًا من أسباب الفتنة في هذه البلاد.

ثم يقول شوقي وهو يتمثل الجزيرة والنيل:

وَكَأَنِّي أرَى الجزيرةَ أيْكا ... نَغَمَت طَيْرُهُ بِأَرْخَمَ جَرْسِ
هِيَ بَلقيسُ في الخَمائِلِ صَرحٌ ... مِن عُبابٍ وَصاحَبٌ غَيْرُ نِكْسِ
حَسْبُها أَنْ تَكونَ لِلنِّيلِ عِرْسًا ... قَلْبُها لَمْ يُجَنَّ يَوْمًا بِعِرسِ
لَبِسَتْ بِالأَصيلِ حُلَّةَ وَشْيٍ ... بَيْنَ صَنعاءَ في الثِّيابِ وَقَسِّ [1]
قَدَّها النِّيلُ فَاِستَحَتْ فَتَوارَتْ ... مِنْهُ بِالجِسْرِ بَيْنَ عُرْيٍ وَلُبْسِ
وَأَرَى النِّيلَ كَالْعَقيقِ بَوادِيـ ... ـهِ وَإِن كانَ كَوْثَرَ المُتَحَسّي
اِبنُ ماءِ السَماءِ ذو المَوكِبِ الفَخمِ ... الَّذي يَحسُرُ العُيونَ وَيُخسي
لا تَرَى في رِكابِهِ غَيْرَ مُثْنٍ ... بِجَميلٍ وَشاكِرٍ فَضْلَ عُرْسِ

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه، بل عاد إلى هجيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس، وأخذ يقول:

وَأَرَى الجيزَةَ الحَزِينَةَ ثَكْلَى ... لَمْ تُفِقْ بَعْدُ مِنْ مَناحَةِ رَمْسي [2]
أَكْثَرَت ضَجَّةَ السَواقي عَلَيْهِ ... وَسُؤالَ اليَراعِ عَنْهُ بِهَمْسِ
وَقِيامَ النَّخيلِ ضَفَّرْنَ شِعْرًا ... وَتَجَرَّدْنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ [3]
وَكَأَنَّ الأَهْرامَ ميزانُ فِرْعَو ... نَ بِيَوْمٍ عَلَى الجَبابِرِ نَحْسِ

---

(١) قس: بالفتح موضع بين العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس: من قولهم سلسلت النحلة إذا ذهبت منها أصول السعف.

أَو قَنــاطيرُهُ تَأَنَّـقَ فيهـا   أَلـفُ جـابٍ وَأَلـفُ صـاحِبِ مَكْـسِ
رَوْعَـةٌ في الضُـحَى مَلاعِـبُ جِـنٍّ   حـينَ يَغْشـى الـدُجَى حِماهـا وَيُغْسـي

وكذلك يحسب شوقي، وهو يندب مجد الفراعنة، أن ما في الطبيعة من ماء ونبات وجماد يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء.

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه؛ وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء؛ إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال:

وَرَهـينُ الرِمـالِ أَفْطَـسُ إِلّا   أَنَّـهُ صُـنعُ جِنَّـةٍ غَـيرُ فُطـسِ
تَتَجَلّـى حَقيقَـةُ النّـاسِ فيـهِ   سَـبُعُ الخَلْـقِ في أَسـاريرِ إِنْسـي
لَعِـبَ الـدَّهْرُ في ثَـراهُ صَـبِيًّا   وَاللَّيـالي كَواعِبًـا غَيْـرَ عُـنْسِ (١)
رَكِبَـتْ صُـيَّدُ المَقـاديرِ عَينَيْـهِ   لِنَقْـدٍ وَمَخْلَبَيـهِ لِفَـرْسِ
فَأَصـابَتْ بِـهِ المَمالِـكَ كِسْـرى   وَهِـرَقْلًا وَالعَبقَـرِيَّ الفَرَنْسـي

وهذا أيضًا خيال شعراء، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث، وأعدت مخلبيه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما يظن هيهات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء.

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة، إنما هو الفن يقتضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول – ﷺ – إن كان وليًّا، – وﷻ – إن كان إلهًا – معبود قديم طالما قدمت له القرابين، ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السائح والبارح، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتنة

---

(١) عنس: جمع عانس، وهي الفتاة يطول مكثها في دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد الأبكار.

لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان «هداة الأمم» يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال، والشاعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالقلوب.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين، وانظر كيف يقول:

يا فُــؤادي! لِكُــلِّ أَمْــرٍ قَــرارٌ	فيــهِ يَبْــدو وَيَنْجَلــي بَعْــدَ لَــبْسِ
عَقَلَــتْ لُجَّــةُ الْأُمــورِ عُقــولًا	كانَت الحوتَ طولَ سَبْحٍ وَغَسٍّ [1]
غَرِقَــتْ حَيْــثُ لا يُصــاحُ بِطــافٍ	أَو غَريــقٍ وَلا يُصــاخُ لِحِــسِّ
فَلَــكٌ يَكْسِــفُ الشُــموسَ نَهــارًا	وَيَســومُ البُــدورَ لَيلَــةَ وَكْــسِ
وَمَواقيــتُ لِلْأُمــورِ إذا مــا	بَلَغَتْهــا الأُمــورُ صــارَت لِعَكْــسِ
دُوَلٌ كَالرِّجــالِ مُرْتَهَنــاتٌ	بِقِيــامٍ مِــنَ الجُــدودِ وَتَعْــسِ
وَلَيــالٍ مِــنْ كُــلِّ ذاتِ سِــوارٍ	لَطَمَــتْ كُــلَّ رَبِّ رومٍ وَفُــرسِ
سَــدَّدَتْ بِالهِــلالِ قَوْسًــا وَسَــلَّت	خِنْجَــرًا يَنْفُــذانِ مِــنْ كُــلِّ تُــرْسِ
حَكَمَــتْ في القُــرونِ خوفــو وَدارا	وَعَفَــتْ وائِــلًا وَأَلْــوَتْ بِعَــبْسِ
أَيــنَ مَــرْوانُ في المَشــارِقِ عَــرْشٌ	أَمَــوِيٌّ وَفي المَغــارِبِ كُرْســي

وقفة قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلًا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه إلى مصر، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجيزة لا تزال في أثواب الحداد على

---

(١) الغس: مرادف للسبح.

رمسيس، وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين، وأن النخيل تجردت في الحزن عليه، فلم يبق عليها غير الشعور والأطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال، فأخذ يزفر من جديد ويقول:

يا فُؤادي! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرارٌ   فيهِ يَبْدو وَيَنْجَلي بَعْدَ لَبْسِ

وأين هذا القرار، يا بلبل النيل! هاته، هاته، وخد من أرواحنا ما تشاء!

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول:

عَقَلَتْ لُجَّةُ الْأُمورِ عُقولًا   كانَت الحوتَ طولَ سَبْحٍ وَغَسِّ

غَرِقَتْ حَيْثُ لا يُصاحُ بِطافٍ   أَو غَريقٍ وَلا يُصاخُ لِحِسِّ

فَلَكٌ يَكْسِفُ الشُموسَ نَهارًا   وَيَسومُ البُدورَ لَيلَةَ وَكْسِ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا جدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة، وهي على جبروتها ألعوبة وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب، والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس، ولا يصاح بطاف أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيدًا هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب، والملك السليب. والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والشجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللائمون.

ولم يصنع البحتري هذا الصنيع وإنما حدثنا عما طفقت الأيام من صبابة عيشه، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رابه نُبُوُّ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال:

حَضَـرَتْ رَحْلِـيَ الهُمُـومُ فَوَجَّهْـت　　إلَى أَبَـيضِ المـدائِنِ عنْسِـي
أتَسـلَّى عـنِ الحُظُـوظِ وآسَـي　　لِمَحـل مِـنْ آلِ سَاسَـان دَرْسِ

وهذا هو عين الاقتضاب، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة، ولكن المريب هو أن يزهد البحتري في حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال. وكان من عادته كذلك أن يخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه، وأشهر ما له في هذا الأسلوب قصيدته الميمنة في عتاب الفتح بن خاقان، فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضًا عتاب، وذلك حيث يقول:

يَهُـوْنُ عَلَيْهـا أَن أبيَـتَ مَتَيَّمـا　　أُعـالِجُ شَـوْقًا في الضَّـميرِ مُكَتَّمـا
وَقَـدْ جـاوَزتُ أرْضَ العِـراقِ وَأصْبَحتْ　　حِمَى وَصْلِها مُذْ حاوَرَتْ أَبْرَقَ الحِمَى
بَكَـتْ حُرْقَـةً عِنْـدَ الْفَـراقِ وَأَرْدَفَـتْ　　سُـلوًا نَهَـى الْأَحْشـاءَ أَنْ تَتَضَـرَّما
فَلَـمْ يَبْـق مِـنْ مَعْروفِهـا غَيْـرُ طـائِف　　يُلِـمُّ بِنـا وَهْنًـا إِذا الرَّكْـبُ هَوَّمـا

وفي هذه القصيدة يقول:

وَلَمْ أعْـرِفِ الـذّنْبَ الَّـذي سُـؤْتَني لَـهُ　　فأَقْتُـلَ نَفْسِـي حَسْـرَةً وَتَنَـدُّما
وَلَـوْ كَـانَ مـا خُبِّرْتُـهُ أو ظَنَنْتُـهُ　　لَمَـا كَـانَ غَـرْوًا أنْ أَلُـومَ وَتُكْرِمـا
أُذَكِّـرُكَ العَهْـدَ الَّـذي لَـيْسَ سُـؤْدَدًا　　تَناسِـيهِ والْـوُدَّ الصّـحيحَ المُسَـلَّما
أُقِـرُّ بِمـا لَمْ أجْنِـهِ مُتَنَصِّـلًا　　إلَيْـكَ عَلَـى أنِّي إخالُـكَ ألْوَمَـا
لِيَ الـذَّنْبُ مَعْرُوفًـا وإنْ كنْـتُ جـاهِلًا　　بـهِ وَلَـكَ العُتْـبَى عَلَـيَّ وأنْعِمَـا
وَمِثْلُـكَ إنْ أبْـدَى الفَعَـالَ أعـادَهُ　　وإنْ صَـنَعَ المَعْـرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَـا

نقول: إن البحتري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية، وإنما آثر الاقتضاب، ولا كذلك شوقي، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول:

أَيـــنَ مَـــرْوانُ في المَشـــارِقِ عَـــرْشٌ   أَمَـــــوِيٌّ وَفي المَغـــــارِبِ كُرْسـِــــي
سَـــقِمَتْ شَمْسُـــهُم فَـــرَدَّ عَلَيْهـــا   نورَهـــا كُـــلُّ ثاقِـــبِ الـــرَّأيِ نَطْـــسِ
ثُمَّ غابَـــتْ وَكُـــلُّ شَمْـــسٍ سِـوى هاتيــ   ــكَ تَبْلـــى وَتَنْطَـــوي تَحْـــتَ رَمْـــسِ
وَعَـــظَ الْبُحْـــتُرِيَّ إِيـــوانُ كِسْـــرَى   وَشَـــفَتْني الْقُصـــورُ مِـــنْ عَبْـــدِ شَمْـــسِ

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحتري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي؛ لأن ظروف البحتري، وقد ضاق به عيشه، وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري إذا عاد أيقر قراره فيلقي عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد ... ولو كان للبحتري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحال إلى الإيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال، ولكن الشاعر له «رسالة» يؤديها إلى أهل عصره، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكان «رسالة» شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد، وهم يودعون كل يوم فريقًا من أبنائهم الأحرار، ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل:

أَحَـــرَامٌ عَلَـــى بَلابِلِـــهِ الـــدَّوْ   حُ حَـــلالٌ لِلطَّـــيْرِ مِـــنْ كُـــلِّ جِـــنْسِ

وفي مقابله البحتري، وهو يتحدث عن نفسه:

وَاشْـــتِرائِي الْعِـــرَاقَ خُطَّـــةُ غَـــبْنٍ   بَعْـــدَ بَيْعِـــي الشَّـــآم بَيْعَـــةَ وَكْـــسِ

ولكن أين هذا من ذاك؟ وأين قول البحتري في عنف الدهر وجوره:

وَكَـــأَن الزَّمَـــانَ أَصْـــبَحَ مَحْمُـــو   لا هَـــواهُ مَـــعَ الْأَخَـــسِّ الْأَخَـــسِّ

من قول شوقي في المعنى نفسه:

عَقَلَــتْ لُجَّــةُ الْأُمُــورِ عُقُــولًا ... كَانَـت الحُـوتَ طُـولَ سَـبْحٍ وَغَـسِّ
غرِقَــتْ حَيْــثُ لاَ يُصَــاحُ بِطَــافٍ ... أَوْ غَرِيــقٍ وَلاَ يُصَــاخُ لِحِــسِّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحتري:

صُـنْتُ نَفْسِـي عَمَّـا يُـدَنِّسُ نَفْسـي ... وَتَرَفَّعْـتُ عَـنْ جَـدَا كُـلِّ جِـبْسِ

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي:

اخْــتلافُ النّهَــارِ واللَّيْــل يُنْسِــي ... فَــاُذْكُرَا لِي الصّــبَا وَأَيَّامَ أُنْســي

وإن كنا لا ندري بمن يستنجد، وقد نسي أيام صباه، ورحم الله ابن الأحنف إذ يقول:

نَـزَفَ الْبُكَـاءُ دُمُـوعَ عَيْنِـكَ فَاسْـتَعِرِ ... عَيْنًــا لِغَــيرِكَ دَمْعُهَــا مِــدْرارُ
مَــنْ ذا يُعِــيُرُكَ عَيْنَــهُ تَبْكــي بِهَــا ... أرَأَيْــتَ عَيْنًــا للــدُّموعِ تُعَــارُ

ويذكرون أن لورد كرومر حضر عرسًا مصريًّا وسمع المغني يقول: «حبيبي غاب، هاتوه لي يا ناس»، فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال: «إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب». وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأنس في عهد الشباب، وإنه لمطلب عجيب!

الفصل السابع عشر

بين البحتري وشوقي

ولقد أخذ البحتري: بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بناته، ويعرض بسكان القفار من الأعراب، فيقول:

أتَسَلَّى عَنِ الحُظُوظِ وآسَي	لِمَحَلٍ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي	وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي
وُهُمُو خافِضُونَ في ظِلِّ عالٍ	مُشْرِفٍ يَحْسِرُ العُيُون ويُحْسِي
مُغْلِقٌ بَابَهُ عَلَى جَبَلِ القَبْقِ	إلَى دارَتَيْ خِلاطٍ وَمَكْسِ
حلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلاَلِ سُعْدَى	في قِفَارٍ مِنَ الْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلاَ المُحَابَاةُ مِنِّي	لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعَبْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِن الجِدَّةِ	حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَأَنَّ الجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْأُنْسِ	وَإخْلاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي	جَعَلَتْ فيهِ مأتَمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهو يُنْبِيكَ عَنْ عَجائِبِ قَوْمٍ	لا يُشَابُ البَيَانُ فِيهِمُ بلَبْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والتهاويل، ولنا إليه عودة، فلنلاحظ الآن أن البحتري يتحبس، وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد؛ ولهذا يقول في هدوء:

حلَــلٌ لَمْ تَكُــنْ كَــأَطْلاَلِ سُــعْدَى في قِفَــارٍ مِــنَ الْبَسَــابِسِ مُلْــسِ
وَمَسَــاعٍ لَــوْلاَ المُحَــابَاةُ مــنّي لَمْ تُطِقْهــا مَسْــعَاةُ عُــنْسٍ وَعَــبْسِ

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلى ونؤي عفراء! ولم يجد شوقي ما يضطره إلى مثل هذه الموارية، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب، في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء:

رُبَّ لَيْــلٍ سَــرَيْتُ وَالبَــرْقُ طِــرْفِي وَبِســاطٍ طَوَيْــتُ وَالــرِّيحُ عَنْســي
أَنْظِــمُ الشَــرْقَ في (الجَزِيــرَة) بِالغَــرْ بِ وَأَطْــوي الــبِلادَ حَــزْنًا لِــدَهْسِ
في دِيارٍ مِــــنَ الخَلائِــــفِ دَرْسٍ وَمَنَــارٍ مِــنَ الطَّوائِــفِ طَمْــسِ
وَرُبًا كَالجِنَــانِ في كَنَــفِ الزَّيْتــو نِ خُضْــرٍ وَفي ذَرا الكَــرْمِ طُلْــسِ
لَمْ يَــرُعْنِي سِــوَى ثَــرىً قُــرْطُبِيٍّ لَمَسَــتْ فيــه عِبْــرَةَ الــدَّهْرِ خَمْسِــي
يَا وَقَــى اللهُ مَــا أُصَــبِّحُ مِنْــهُ وَسَــقَى صَــفْوَةَ الحَيَــا مَــا أُمَسِّــي
قَرْيَــةٌ لا تُعَــدُّ في الْأَرْضِ كانَــتْ تُمْسِــكُ الأَرْضَ أَنْ تَمِيــدَ وَتُرْســي
غَشِــيَت ســاحِلَ المُحــيطِ وَغَطَّــتْ لُجَّــةَ الــرُّومِ مِــنْ شِــراعٍ وَقَلْــسِ
رَكِــبَ الــدَّهْر خَــاطِري في ثَرَاهَــا فَــأَتَى ذلِــكَ الحِمَــى بَعْــدَ حَــدْسِ
فَتَجَلَّــت لِيَ القُصــورُ وَمَــنْ فيهــا مِــنَ العِــزِّ في مَنــازِلَ قُعْــسِ
مـا ضَـفَت قَـطُّ في المُلـوكِ عَلـى نَـذْ لِ المَعَــالي وَلا تَــرَدَّت بِــنَجْسِ

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك. ونحن نستجيد قول البحتري:

ذَكَّــرَتْنِيهِمُ الخُطُــوبُ التَّــوَالِي وَلَقَــدْ تُــذْكِرُ الخُطُــوبُ وتُنْسِــي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستجيد كذلك قوله:

نَقَــلَ الــدَّهْرُ عَهْــدَهُنَّ مــن الجِــدَّةِ حَــتَّى غَــدَوْنَ أَنْضَــاءَ لُــبْسِ
فَكَــأَنَّ الجِرْمَــازَ مــنْ عَــدَمِ الْأُنْــسِ وَإِخْلاقِــهِ بَنِيَّــةُ رَمْــسِ

وفي هذين البيتين دقة وخيال، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل: «أنضاء لبس» وكيف أمسى الجرماز وكأنه: «بنية رمس». فأما قوله:

لَــوْ تَــرَاهُ عَلِمْــتَ أَن الليَــالِي جَعَلَــتْ فيــه مَأْتَمًــا بَعْــدَ عُــرْسِ

فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، يتحكم فيها البلى، وتبطش بها أيدي العفاء. ونستجيد قول شوقي:

لَمْ يَــرُعْنِي سِــوَى ثَــرىً قُــرْطُبِيٍّ لَمَسَـتْ فيـه عِبْـرَةَ الـدَّهْرِ خَمْسِـي

ولمس العبرة من المعاني الدقيقة. وقد بلغ غاية الرفق، وهو يقول في تحية هذا الثرى:

يَا وَقَــى الله مَــا أُصَــبِّحُ مِنْــهُ وَسَــقَى صَــفْوَةَ الحْيَــا مَــا أُمَسِّــي

ونستجيد كذلك قوله:

رَكِــبَ الــدَّهْر خَــاطِري في ثَرَاهَــا فَــأَتَى ذلِــكَ الحِمَــى بَعْــدَ حَــدْسِ

يصف تلك البقعة بالدروس، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره الدهر، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

ثم أخذ البحتري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال:

فَــإذا مــا رَأَيْــتَ صــورَةَ أَنْطــا كِيَّــةَ ارْتَعْــتَ بَــيْنَ رومٍ وَفُــرْسِ
وَالْمَنَــايا مَواثِــلٌ وأنَوشِــرْوانْ يُزْجِـي الصُّـفوفَ تَحْـتَ الـدِّرفْسِ
في اخْضــرارٍ مِــنَ اللِّبَــاسِ عَلَــى أصْــفَرَ يَخْتَــالُ في صَــبيغَةِ وَرْسِ
وَعِــراك الرِّجَــالِ بَــيْنَ يَدَيْــه في خُفـوتٍ مـنْهُمْ وَإغمـاضِ جَـرْسِ
مِــنْ مُشـيحٍ يَهْـوي بِعامِـلِ رُمْـحٍ وَمُلِــيحٍ مِــنَ السِّــنانِ بتُــرْسِ
تَصِــفُ الْعَــيْنُ أَنَّهُــمْ جِــدُّ أَحْيَــا ءَ لَهُــمْ بَيْــنَهُمْ إشــارَةُ خُــرْسِ
يَغْتَلــي فــيهمُ ارْتيَــابِي حَــتَّى تَتَقَرَّاهُمُــو يَــدَايَ بِلَمْــسِ

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، بذكر أنه شهد في الإيوان صورة كسرى،

وهو يحاصر أنطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم، وكيف يرتاع المرء، وهو يشاهد صورة على الحائط؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال، والمنايا مواثل أمامك، فيما أنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات، وما هم عليه من إيثار الخفوت، بين مشيح بالرمح، ومليح بالسنان، وانظر كيف يقول:

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ... ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إشَارَةُ خُرْسِ

يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيَابِي حَتَّى ... تَتَقَرَّاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

فهو يراهم جد أحياء، وإن لم يسمع لهم صوت؛ لأن في سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه: فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال!، والمصور الحاذق هو الذي يسبغ على صوره أثواب الحياة. ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة، ولم أكد أملأ منها عيني حتى خلتها تتقلب، وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحتري في الوصف، وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور:

وَكَأَنِّي بَلَغْتُ لِلعِلْمِ بَيْتًا ... فِيهِ مَالُ العُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرْسِ

قُدُسًا فِي الْبِلادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ... حَجَّهُ القَوْمُ مِنْ فَقِيهٍ وَقَسِّ

وَعَلَى الْجُمْعَةِ الْجَلالَةُ و(النَّا ... صِرُ) نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدِّرَفْسِ

يُنْزِلُ التَّاجَ عَنْ مَفَارِقِ (دونٍ) ... ويُحَلِّي بِهِ جَبِينَ (الْبِرْنِس)

سِنَةٌ مِنْ كَرىً وَطَيْفُ أَمَانٍ ... وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلالٍ وَهَجْسِ

وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنِيسٍ ... وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحِسِّ

وَرَقِيقٍ مِنَ الْبُيُوتِ عَتِيقٌ ... جَاوَزَ الأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ حَرْسِ

أَثَــــرٌ مِـــــن (مُحَمَّــــدٍ) وَتُــــراثٌ صــارَ (لِلــرُّوحِ) ذي الْــوَلاءِ الْأَمَــسِّ
بَلَـــــغَ الــــنَّجْمَ ذِرْوَةً وَتَنــــاهَى بَــيْنَ (ثَهْــلانَ) في الأَســاسِ و(قُـدْسِ)
مرْمَــــرٌ تَسْــــبَحُ النــــوَاظِرُ فِيـــه وَيَطُــولُ المَــدَى عَلَيْهَــا فَتُرْسِـــي
وَسَـــــوَار كَأَنَّهَـــــا في اسْـــــتوَاءٍ أَلِفَــاتُ الْــوَزِيرِ في عَــرْضِ طِــرْسِ
فَتْــرَةُ الــدَّهْرِ قَــدْ كَسَــتْ سَــطرَيْها ما اكْتَسَى الهُدْبُ مِنْ فُتورٍ وَنَعْسِ
وَيْحَهـــا كَـــمْ تَزَيَّنَـــتْ لِعَلـــيمٍ واحِــدِ الــدَّهرِ وَاسْــتَعدَتْ لِخَمْــسِ
وَكَــأَنَّ الرَّفيــفَ فِي مَسْــرَحِ العَيْـــ ـــنِ مُـــلاءٌ مُـــدَنَّراتُ الـــدِمَقْسِ
وَكَـــــأَنَّ الآياتِ فِي جانِبَيْـــــــهِ يَتَنَـــزَّلْنَ مِـــنْ مَعـــارِجِ قُـــدْسِ
مِنْبَــرٌ تَحْــتَ (مُنْــذِرٍ) مِــنْ جَــلالٍ لَمْ يَــزَلْ يَكْتَســيهِ أَو تَحْــتَ قُــسِّ
وَمَكَــانُ الْكِتَــابِ يُغْرِيـــكَ رَيَّا وَرْدِه غَائِبًـــا فَتَـــدْنُو لِلَمْـــسِ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم، وصورة الحرب يهز النفس، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة. أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن، لم يذكر أكانت في وصف الجنة، أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية، الوادعة الهادئة، لا يصلح إلا للكهول، والويل للأمم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحتري:

والمنـــــايا مَوَاثِــــلٌ وَأَنُوشِـــــروانْ وَأنُ يُزْجِـي الصُّـفُوفَ تَحْـتَ الـدِّرَفْس

وبين قول شوقي:

وَعَلَـــى الْجُمْعَـــةِ الجَلالـــةُ و(النَّـــا صِـرُ) نُـورُ الخَمِـيسِ تَحْـتَ الـدّرِفْسِ

وشوقي يصف ما رآه، فلا لوم عليه ولا تثريب، وصدق من قال:

فَلَــوْ أنَّ قَــوْمِي أَنْطَقَتْــنِي رَمَــاحُهُمْ　　　نَطَقْــتُ وَلكِــنَّ الرِّمَــاحَ أجَــرَّت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب. ولم يظلم أحد أهل الشرق، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون: فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب «الأخلاق عند الغزالي»، وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب، وحيا الله أولئك الشياطين، فهم ملائكة هذا الجيل، وإن رذائل القوة لخير من فضائل الضعف، لو يعلم الشرقيون.

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق، وللرزق أبواب! يدل على هذا قوله:

سِــنَةٌ مِــنْ كَــرِىً وَطَيْــفُ أَمَــانٍ　　　وَصَـحَا الْقَلْـبُ مِـنْ ضَـلاَلٍ وَهَجْـسِ

وَإِذَا الــدَّارُ مَــا بِهَــا مِــنْ أَنــيسٍ　　　وَإِذَا الْقَــوْمُ مَــا لَهُــمْ مِــنْ مُحَــسِّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك، وما فيه من آثار العقول، ليس إلا سنة من الكرى، وطيفًا من الأماني.

ويعجبني قوله في وصف القصر:

مرْمَــرٌ تَسْــبَحُ النــوَاظِرُ فِيــه　　　وَيَطُــولُ المَــدَى عَلَيْهَــا فَتُرْسِــي

وَسَــوَار كَأَنَّهَــا في اسْــتوَاءٍ　　　أَلِفَــاتُ الْــوَزِيرِ في عَــرْضِ طِــرْسِ

وإن كان تشبيه سواري القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال، والفرق بعيد بين الحس الفاتن، والجمال الرائع، فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة، وفيه أيام السرار، روعة وجلال.

وقول شوقي:

وَمَكَــانُ الْكِتَــابِ يُغْرِيــكَ رَيًّا　　　وَرْدِه غَائبًــا فَتَــدْنُو لِلَمْــسِ

مأخوذ من قول البحتري:

يَغْتَلــــي فـــيهمُ ارْتِيَـــابِي حَـــتَّى تَتَقَرَّاهُمُـــــو يَــــدَايَ بِلَمْــــسِ

وبيت البحتري أجود في معناه، وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب.

وقول شوقي بعد ذلك الوصف:

صَــنْعَةُ (الــدَّاخِلِ) المُبَــارَكِ في الْغَــرْ بِ وَآلٍ لَــــهُ مَيــــامينَ شُمْــــسِ

فيه ضعف، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل!!

الفصل الثامن عشر

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الإيوان من رسم المواقعة بين الفرس والروم، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الإيوان، فقال:

قَـدْ سَـقَانِي وَلَمْ يُصَـرِّدْ أَبـو الْغَـوْ ... ثِ عَلَـى الْعَسْـكَرَيْنِ شَـرْبَةَ خَلْـسِ
مِـنْ مُـدَامٍ تَقُولُهَـا هِـيَ نَجْـمٌ ... أَضْـوَأَ اللَّيْـلِ، أَوْ مُجَاجَـةُ شَمْـسِ
وتراهـا إذا أجَـدَّت سُـروراً ... وَارْتياحًـا لِلشَّـارِبِ المتَحَسِّـي
أُفْرِغَـتْ في الزُّجَـاجِ مِـنْ كُـلِّ قَلْـبٍ ... فَهِـي مَحْبُوبَـةٌ إلى كُـلِّ نفْـس
وَتَوَهَّمْـتُ أَنَّ كِسْـرَى إبَرْويـ ... ـزَ مُعَـاطِيَّ وَالْبَلَهْبَـذُ أُنْسـي
حُلُـمٌ مُطْبِـقٌ عَلَـى الشَّـكِّ عَيْـنِي ... أَمْ أَمَـانٍ غَيَّـرْنَ ظَـنِّي وَحَدْسِـي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي؛ لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء؛ ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول، كما فعل البحتري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد، إذ لا تقتضيها الموازنة، ولا يدعو إليها التفضيل، ونحن نستملح قوله:

مِـنْ مُـدَامٍ تَقُولُهَـا هِـيَ نَجْـمٌ ... أَضْـوَأَ اللَّيْـلِ، أَوْ مُجَاجَـةُ شَمْـسِ

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال، وعجز هذا البيت يشفع لصدره، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء:

وتراهـــا إذا أجَــــدَّت ســــرورًا   وارتياحًــا للشــارب المتحسّـــي

أُفْرِغَـتْ في الزُّجَـاجِ مِـنْ كُـلِّ قَلْـبٍ   فَهــي مَحْبُوبَـــةٌ إلى كُـــلِّ نفْــس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب! ولا تنس أنه يقول: (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبة إلى كل نفس)، فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحتري فتوهم – ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله! – أن كسرى نديمه، والبلهبذ أنيسه، وكيف ثاب إلى رشده، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحدسه! وفي هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال:

وَكَـأَنَّ الإِيـوانَ مِــنْ عَجَـبِ الصَّنْــ   ــعَة جَـوْبٌ في جَنْـبِ أَرْعَـنَ جلْـس

يَتَظَـنَّى مِــنَ الكَآبَــةِ أَنْ يَبْــ   ــدُو لِعيْـنَيْ مُصـبّحٍ أو مُمَسِّـي

مُزْعَجًـا بِالْفِـراقِ عَـنْ أُنْـسِ إِلْـف   عَــزَّ أَوْ مُرْهَقًــا بتَطْليــق عِــرْسِ

عكَسَـتْ حَظَّـهُ اللّيـالي وَباتَ الــ   ــمُشتَري فيـهِ وَهـو كوْكَـبُ نَحسِ

فَهــوَ يبْــدِي تَجَلُّــدًا وَعَلَيْــهِ   كَلْكَـلٌ مِـنْ كَلاكِـلِ الـدَّهْرِ مُرْسِـي

لَمْ يَعِبْـهُ أَنْ بُـزّ مِــنْ بُسُـطِ الدّيــ   ــباجِ وَاسـتُلّ مـن سُـتورِ الـدِّمَقْسِ

مُشْـمَخِرٍّ تَعْلُــو لَــهُ شُــرُفَاتٌ   رُفِعَــتْ في رُءوس رَضْــوى وَقُــدْسِ

لابسَــاتٌ مــن البَيَـاضِ فَمَـا تُبْــ   ــصِرُ منهـا إلاّ غَلائـلَ بُـرْسِ

لَـيسَ يُـدرى أصُـنْعُ إِنْـسٍ لجِـنٍّ   سَـكَنوهُ أَمْ صُـنعُ جِـنٍّ لإنْـسِ

غَـيرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْـهَدُ أَنْ لَمْ   يَـكُ بَانيـهِ في المُلُـوكِ بِـنِكْسِ

وفي هذه القطعة نجد البحتري يتمثل الإيوان في صورة المحب أترعت الليالي كأسه بأنس أليفه، ثم أزعجته بالفراق والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل، ثم أرهقه بالطلاق،

ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح، أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح مثار الشجى، ومبعث الأسى، بعد أن كان من مرابع الغزلان، وملاعب الحور الحسان!! وانظر كيف يقول:

فَهـــوَ يبْـــدِي تَجَلُّـــدًا وَعَلَيْـــهِ كَلْكَـلٌ مِـنْ كَلاكِـلِ الـدَّهْرِ مُرْسِـي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحتري «كائنًا حيًّا» أناخ الدهر عليه بكلكله، فأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز، وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد، وتثير دفين الإحساس، فإن كانت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان، أو أي ملاك، أوحى إلى البحتري: أن الإيوان أصبح - وقد استُلت ستور الدمقس وبسط الديباج - شبيهًا بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حينًا وتعريك بالفتون أحيانًا؟ ونحن نعيذ القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول البحتري:

لمْ يَعِبْـهُ أنْ بُـزّ مـنْ بُسُـطِ الدّيـ ـباجِ وَاسـتُلّ مـن سُـتورِ الـدِّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاه كالعادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر، أم من سكر الدلال ... وما نريد أن نزيد! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله:

عكَسَـتْ حَظَّـهُ اللّيـالي وَباتَ الـ ـمُشتَرِي فيـهِ وَهـو كوْكَـبُ نَحْـسِ

فإنه لم يقل: «بات المشتري فيه كوكب نحس»، وإنما قال: «بات المشتري فيه، وهو كوكب نحس». وكلمة: «وهو» لها ما لها من الفضل في تأكيد المعنى وتقريره، عند علماء المعاني ... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات الإيوان:

لابسَـاتٌ مـن البَيَـاضِ فَمَـا تُبْـ ـصِرُ منهـا إلاّ فَلائـلَ بُـرْسِ

فإن كلمة «من» لها هنا موقع جميل، وهي أدل على التقليل من التنوين! ... أما قوله:

لَـيسَ يُـدرَى أصُـنْعُ إنْـسٍ لجـنٍّ   سَـكَنوهُ أمْ صُـنعُ جـنٍّ لإنْـسِ

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة، تزخر بها الأساطير، وهي كذلك مورد من موارد الخيال – وكان من المستهجن أن يعقب البحتري هذا البيت الفرد بقوله:

غَـيرَ أنّي أرَاهُ يَشْـهَدُ أنْ لَمْ   يَـكُ بَانيـهِ في المُلُـوكِ بـنِكْسِ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد ... وقد عاد إلى وصف ما في الإيوان، فقال:

فَكَـأنّي أرَى المَرَاتـبَ والقَـوْ   مَ، إذا مـا بَلَغـتُ آخـرَ حسّـي

وَكَـأنّ الوُفُـودَ ضَـاحينَ حَسـرَى   مـن وقُـوفٍ خَلـفَ الزّحـامِ وَخُـنْسِ

وَكَـأنّ القِيَـانَ، وَسْـطَ المَقَـا   صِـيرِ، يُـرَجّحْنَ بـينَ حُـوٍّ وَلُعـسِ

وَكَـأنّ اللّقَـاءَ أوّلُ مِـنْ أمْـ   ـسِ، وَوَشْـكَ الفـرَاقِ أوّلُ أمْـسِ

وَكَـأنّ الـذي يُرِيـدُ اتّبَاعَـا   طـامعٌ في لُحُـوقهمْ صُـبحَ خمْـسِ

عَمَـرَتْ للسّـرُورِ دَهْـرًا، فصَـارَتْ   للتّعَـزّي رِبَاعُهُـمْ، وَالتّأسّـي

فَلَهَـا أنْ أُعِينَهَـا بـدُمُوعٍ،   مُوقَفَـاتٍ عَلـى الصَّـبَابَةِ، حُـبْسِ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحتري في أعطاف الإيوان. والبحتري بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة «كأن» موقعها الجميل في قوله:

وَكَـأنّ الوُفُـودَ ضَـاحينَ حَسـرَى   مـن وقُـوفٍ خَلـفَ الزّحـامِ وَخُـنْسِ

وقوله:

وَكَـأنّ القِيَـانَ، وَسْـطَ المَقَـا   صِـيرِ، يُـرَجّعنَ بـينَ حُـوٍّ وَلُعـسِ

وقوله:

وَكَـأنّ اللّقَـاءَ أوّلُ مِـنْ أمْـ   ـسِ، وَوَشْـكَ الفـرَاقِ أوّلُ أمْـسِ

وقد دللت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة، فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نفثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال:

مَــــنْ لِحمــــراءَ جُلِّلَـــت بِغُبَـــار ... الــدهرِ كَــالجُرحِ بَــيْنَ بُــرْءٍ وَنُكْــسِ
كَسنَا الـبَرقِ لـو مَحَـا الضَّـوءُ لَحْظًـا ... لَمَحَتْهـا العُيُـون مِـن طُـول قَـبسِ
حِصـنَ غِرنَاطَـة وَدَارُ بَـنِي ٱلأَحْمَــرِ ... مِــن غَافِــلٍ ويَقَظَــان نَــدْسِ
جَلــلَ الــثَّلج دُونَهَــا رَأسَ شِــيرى ... فَبَــدَا مِنْــه في عَصَــائِب بِــرْسِ
سَــــرْمدٌ شَـــيْبُه ولَمْ أرَ شــــيبًا ... قَبْلَـــه يُرجـــئ البَقَـــاء ويُنْسِـــي
مَشَــت الحَــادِثَات في غُــرَف الحَمْــ ... ــرَاء مَشْــي النَّعِــيّ في دَار عُــرسِ
هَتَكــت عِــزَّة الحِجَــاب وَفَضَّـــت ... سُــدَّة البَــاب مِــنْ سَمِــيرٍ وأُنــسِ
عَرَصَـــاتٌ تَخَلَّـــت الخَيْـــل عَنْهَـــا ... واسْــتَرَاحَت مِــن احــتِرَاسٍ وعَــسِ
ومَغَـــان عَلَـــى اللّيَـــالي وِضَـــاءٌ ... لَم تَجِـــد لِلعَشِـــيّ تَكْـــرَار مَـــسّ
لا تَـرَى غَـيْر وَافِـدينَ علـى التَّـاريخ ... سَـــاعِين في خُشُـــوعٍ وَنَكـــسِ
نَقَّلـــوا الطَّـــرْف في نَضَـــارَة آسٍ ... مِـــن نُقُـــوش وَفي عُصَـــارة وَرْسِ
وَقِبَـــابٍ مِـــن لاَزَوَرْد وَتِـــبْرٍ ... كَــالرُّبا الشُّــمَّ بَــيْنَ ظِــلٍّ وشَمْــسِ
وخُطُوط تَكَفَّلَت لِلمَعَانِي ... ولأَلَفَاظِهَــــا بِأَزْيَـــــن لُـــــبسِ
وَتَـــرَى مَجْلِـــس السِّـــبَاع خَـــلاءً ... مُقْفــر القَــاع مِــن ظِبــاءٍ وخُــنسِ
لا الثُّـــرَيَّا ولا جَـــوارِي الثُّـــرَيَّا ... يَتَنَـــزَّلن فِيـــه أَقْمَـــار أُنـــسِ
مَرْمَـــرٌ قَامَـــت الأُسُـــود عَلَيْـــه ...

تَنْثُـــر المَـــاء في الحِيَـــاض جُمَـــانًا   كَلَّـــةَ الظفْـــر لَيِّنَـــات المجَـــسِ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر، وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالإبانة عن عدوان الحوادث، والإفصاح عن عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت، وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق ... وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بأنه، فيعدونه ويمنونه، لو تنفع الأماني، أو تصدق الوعود، ومن ذا الذي الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد؟ ولكن أين فتوة العرب؟ وأين شباب الزمان؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس، فهذا أيضًا خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس:

فَتَمَشَّـــــــــت في مَفَاصِـــــــــلِهِم   كتَمَشَـــــي البُـــــرْءِ في السَـــــقم

ما لنا ولهذا التكلف؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس، أروع من تشبيه أثر خمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم، وقول شوقي:

مَشَــت الحَــادِثَات في غُــرَف الحَمْــ   ــرَاء مَشْــي النَّعِــيّ في دَار عُــرسِ
هَتَكــت عِــزَّة الحِجَــاب وَفَضَّــت   سُــدَّة البَــاب مِــنْ سَمِــيرٍ وأُنــسِ

فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان ... أما قوله:

وَتَـــرَى مجْلِـــس السِّـــبَاع خَـــلاءً   مُقْفِــر القَــاع مِــن ظِبــاءٍ وخُــنسِ
لا الثُّـــرَيَّا ولا جَـــوارِي الثُّـــرَيَّا   يَتَنَـــزَّلن فِيـــه أَقْمـــار أُنـــسِ

فهو وصف انفرد به، ولم يعرض لمثله البحتري، وكان عجبًا أن يغفل عن إيراده، فإن

القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب، من كل ممشوقة القد، مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة، ولا أعبر بغير ذلك، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس، ويرونه حسبهم من نعم الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال:

آخَـــرَ العَهـــدِ بِالجَزيـــرَةِ كانَـــت　　بَعــدَ عَــركٍ مِــنَ الزَمــانِ وَضَــرسِ
فَتَراهـــا تَقـــولُ رايَـــةُ جَـــيشٍ　　بادَ بِالأَمـــسِ بَـــينَ أَســـرٍ وَحَـــسِّ
وَمَفاتيحُهـــا مَقاليـــدُ مُلـــكٍ　　باعَهـــا الـــوارِثُ المُضَـــيعُ بِـــبَخسِ
خَـــرَجَ القَـــومُ في كَتائِـــبَ صُـــمٍّ　　عَـن حِفـاظٍ كَمَوكِـبِ الـدَفنِ خُـرسِ
رَكِبـــوا بِالبِحـــارِ نَعشًـــا وَكانَـــت　　تَحـتَ آبائِهِـم هِـيَ العَـرشُ أَمـسِ
رُبَّ بانٍ لِهـــادِمٍ وَجَمـــوعٍ　　لِمُشِـــتٍّ وَمُحسِـــنٍ لِمُخِـــسِّ
إِمـــرَةُ النـــاسِ هِمَّـــةٌ لا تَأَتّى　　لِجَبـــانٍ وَلا تَسَـــنّى لِجِـــبسِ
وَإِذا مـــا أَصـــابَ بُنيـــانَ قَـــومٍ　　وَهـــيُ خُلـــقٍ فَإِنَّـــهُ وَهـــيُ أُسِّ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد، إذ كانت إمرة الناس لا تتسنى لجبس، ولا تتأتى لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للأندلس كان من الأحداث الخطيرة، وكان من الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شب في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلادًا لا زال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين،

كما يتوهم الفاتحون، وإنما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين في خفاء، كما تفتك على ضعفها الجراثيم، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة، فإذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك، وتطيح من هولها العروش. فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين! ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة، ولا ستر ولا وقاية؟ اسمع يا صاح! القوة هي كل شيء في الوجود، والقوة فوق الحق، فإن أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب!

وكذلك كان العرب، فلقد ركبوا البحر وهم أقوياء، فكان عرشًا، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشًا، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس، ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار!

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار:

يا دِيارًا نَزَلــــتُ كَالخُلــــدِ ظِــــلًّا ... وَجَـــنىً دانِيًـــا وَسَلســـالَ أُنـــسِ

مُحسِـــناتِ الفُصـــولِ لا ناجِـــرٌ فيـــ ... ـــها بِقَـــيظٍ وَلا جُمـــادى بِقَـــرسِ

لا تَحِـــشَّ العُيـــونُ فَـــوقَ رُباهـــا ... غَـــيرَ حـــورٍ حُـــوِّ المَراشِـــفِ لُعـــسِ

كُسِـــيَت أَفرُخـــي بِظِلِّـــكِ ريشًـــا ... وَرَبا في رُباكِ وَاِشـــــتَدَّ غَرســـــي

هُـــم بَنـــو مِصـــرَ لا الجَميـــلُ لَـــدَيهِمُ ... بِمُضـــاعٍ وَلا الصَـــنيعُ بِمَنســـي

مِـــن لِســـانٍ عَلـــى ثَنائِـــكِ وَقـــفٌ ... وَجَنـــانٍ عَلـــى وَلائِـــكِ حَـــبسِ

حَســـبُهُم هَـــذِهِ الطُّلـــولَ عِظـــاتٍ ... مِـــن جَديـــدٍ عَلـــى الـــدُهورِ وَدَرسِ

وَإِذا فاتَـــــكَ اِلتِفـــــاتٌ إِلى المـــــا ... ضـي فَقَـد غـابَ عَنـكَ وَجـهُ التَأَسّـي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات، فقد طال الحديث، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس، وغنمنا معها «قطعة خشب» من قصر الحمراء

تجدها في متحف الشاب المهذب حسين شوقي، ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين ...!

وسيذكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحتري وشوقي، وسيسأل أيهما أشعر؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.

أما أنا فقد حكمت، والسلام [1] .

---

(١) بمناسبة سينية البحتري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر مُحَمَّد الهراوي وضع قصيدة سينية عن أبي الهول كان فيها معنى المعارضة للبحتري، وإن لم يقل ذلك، وهي قصيدة جيدة، نختار منها قوله:

نســـــي النـــــاس يا أبا الهـــــول أنا ... أمــــة كالحديـــــد صـــــلب المجـــــسّ
لم يعبنـــــا أنا بلتنـــــا شـــــعوب ... وبلّـــوْنا الشـــعوب مـــن كـــل جـــنس
كـــل مـــن ســـاءنا أذقنـــاه ســـوءًا ... بيـــــد الله كـــــل كـــــأس بكـــــأس
فاســألوا الــروم مــا دهــى الــروم فينــا ... واســألوا الفــرس عــن مصــاب الفــرس
أمـــم تلـــك ذات ناب وضـــرس ... قـــد مضـــغنا مـــا بـــين ناب وضـــرس
فنيـــت كلهـــا نحـــن بقينـــا ... مـــن حمـــى الله في حظـــيرة قـــدس

وللهراوي قصيدة أخرى سينية هي بلا شك من وحي البحتري، وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ مُحَمَّد عبده في عين شمس، وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لنبين كيف سرت أنفاس البحتري إلى شعراء هذا الجيل.

الفصل التاسع عشر

البوصيري وشوقي

للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى «البدرة» عارضها شوقي بقصيدة سماها «نهج البردة»، وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين؛ لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام، وقد عُني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يوجه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حياة البوصيري

هو مُحَمَّد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج. كان أحد أبويه من (أبو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبه، وقيل: (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري، وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس [1] .

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجري في شعره النكت المستملحة، وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره، وأحسبه من الصادقين، فهو يذكر أن الموظفين كانوا

---

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ وله قبر مشهور في الأسكندرية، يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية.

يسرقون الغلال، وأنه لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمور، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وعُدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت، وتأكل مال اليتيم، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين، فكان المسلمين يقولون: لنا بمصر حقوق، ونحن أولى الآخذين، وكان القبط يقولون: نحن ملوك مصر، ومن سوانا هم الغاصبون، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين.

وفي ذلك يقول:

نَقَـــدتُ طوائـــفَ المُســـتخدمينا ... فلـــم أرَ فـــيهمُ رجـــلًا أمينـــا

فقـــد عاشـــرتهمْ ولبثـــتُ فـــيهمْ ... مـــع التجريـــبِ مـــن عمـــري سِـــنِينا

فكُتَّـــابُ الشَّـــمالِ همـــو جميعًـــا ... فـــلا صَـــحِبَتْ شِمـــالُهُمُ اليَمِينـــا

فَكَـــمْ سَـــرقُوا الْغِـــلالَ ومـــا عَرَفْنـــا ... بهـــم فكـــأنَهْم ســـرقوا الْعُيْـــونا

ولـــولا ذاك مـــا لَبِسُـــوا حريـــرًا ... ولا شَـــرِبُوا خُمُـــورَ الأنـــدَرِينا

ولا رَبَّـــوا مـــن المـــردانِ مُـــردًا ... كَأَغْصـــانٍ يَقُمْـــنَ وَيَنْحَنِينـــا

وَقَـــدْ طَلَعَـــتْ لِبَعْضِـــهِمُ ذُقـــونٌ ... ولكِـــنْ بَعْـــدَما حَلقُـــوا ذُقـــونا

وَأَقْـــلامُ الجَماعَـــةِ جـــائِلاتٌ ... كأَسْـــيَافٍ بأَيْـــدِي لاعِبِينـــا

وقَـــد ســـاوِمْتَهُمْ حَرْفًـــا بحَـــرْفٍ ... وكـــلُّ اسْـــمٍ يحُطـــوا مِنـــه ســـينا

أَمـــولَايَ الـــوَزير غَفَلـــتَ عَمَّـــا ... يُـــتِمُّ مِـــنَ اللّئَـــام الكَاتِبِينَـــا

تَنَسَّـــك مَعشَـــرٌ مِـــنهُم وَعُـــدُّوا ... مِـــنَ الزُّهَّـــاد والمُتَوَرِّعينـــا

وَقِيـــلَ لَهُـــمْ دُعـــاءٌ مُسْـــتَجابٌ ... وَقَـــدْ مَلَئُـــوا مِـــنَ السُّـــحْتِ البُطُـــونا

تَفَقَّهَـــتِ القُضـــاةُ فَخـــانَ كُـــلٌّ ... أَمانَتَـــهُ وَسَمَّـــوْهُ الأَمِينـــا

ومـــا أَخْشَـــى عَلَـــى أَمْـــوَالِ مِصْـــرٍ ... سِـــوَى مِـــنْ مَعْشَـــرٍ يَتَـــأَوَّلُونا

يَقُــولُ المُسْــلمُونَ لَنــا حُقــوقٌ | بِهــا ولَــنَحْنُ أَوْلَى الآخِــذِينا
وقَــالَ الْقِـبْطُ نحـنُ ملـوكُ مصـرٍ | الْمُلُـوكُ وإنْ سـوَاهُمُو هُـم غَاصِـبُونا
وَحَلَّلــتِ الْيَهُــودُ بِحِفــظِ سَــبْتٍ | لَهُــمْ مَــالَ الطَوَائِــفِ أَجْمَعِينــا
ومــا ابــنُ قُطَيِّبَــةٍ إلاَّ شَــرِيكٌ | لهُــمْ في كُــلِّ مَــا يَتَخَطَّفُــونا
أغـارَ عَلَـى قُـرَى (فَـاقوسَ) مِنْـهُ | بِجَــوْرٍ يَمْنَــعُ النَّــوْمَ الجُفُــونا
وَصَــيَّرَ عِيْنَهَــا حِمْــلًا وَلكِــنْ | لِمَنْزِلِــهِ وَغَلَّتَهَــا خَزِينــا
وَأَصْــبَحَ شُــغْلُهُ تَحْصِــيلَ تِــبْرٍ | وكانَــتْ رَاؤُهُ مِــنْ قَبْــلُ نُــونا
وَقَدَّمَــهُ الَّــذِينَ لَهُــمْ وُصُــولٌ | فَــتَمَّمَ نَقْصَــهُ صِــلَةُ اللــذينا
وفِي دَارِ الْوِكالَــةِ أَيُّ نَهْــبٍ | فَلَيْتَــكَ لَــوْ نَهَبْــتَ النَّاهِبِينــا
فَقَــام بِهَــا يَهُــوديَّ خَبِيــث | بَسُــوم المُسْــلمين أذىً وهــونا
إذَا أَلْقَــى بِهــا مُوســى عَصــاهُ | تَلَقَّفَــتِ الْقَوَافِــلَ والسَّــفِينا
وَشاهِــدُهُمْ إذَا اتُّهِمُــوا يُــؤَدِّي | عَــنِ الْــكُلِّ الشَّــهَادَةَ وَاليَمِينــا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية؛ لأنها قصيدة ضعيفة تغلب عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف:

أَهَـوىً والمَشـيبُ قَـد حـال دُونـه | والتَّصَــابِي بَعــدَ المَشِــيبِ رُعُونَــهْ

أبَـتِ الـنَّفْسُ أنْ تُطِيـعَ وقالَـتْ: إنَّ حـيَّ لا يـدخل القنينـهْ
كَيـف أعصِـي الهَـوَى وطينَـة قَلـبِي بالهَـوَى قَبْـلَ آدمَ مَعْجُونَـهْ
سَـلَبَتْهُ الرُّقَـادَ بَيْضـة خِـدْرٍ ذاتُ حُسْـنٍ كالـدُّرَّة المَكْنُونَـهْ
سُمْتُهـا قُبْلَـة تُسَـرُّ بهـا النَّفْـ ـسُ فقالـت: كـذا أكـونُ حزينـهْ
قُلْـتُ لا بُـدَّ أنْ تسِـيري إلى الـدَّ ارِ فقالـتْ: عسـى أنا مجنونـهْ
قلـتُ سـيري فـإنّني لَـك خـيرٌ مِـنْ أب رَاحـمٍ وَأُمٍّ حَنُونَـهْ
أنَا نعـم القَـرينِ إنْ كُنـتِ تَبغيـ ـينَ حـلالًا وأنـتِ نعـمَ القرينـهْ
قالتِ اضرِبْ عَن وَصلِ مِثلي صَفحًا واضـرب الخَـلَّ أو يصـيرَ طحينـهْ
لا أرَى أن تَمَسَّـني يَـدُ شَـيخٍ كيـف أرضـى بـه لطشـتي مشـينهْ
قُلْـتُ إنِّي كَثـيرُ مَـالٍ فقالَـتْ: هَبـكَ أنـتَ المُبَـارزُ القارُونـهْ

وهذا أيضًا شعر ضعيف، ولكن فيه «حكاية ظريفة» من حكايات مولانا الشيخ ﷺ وأرضاه!

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته، فكتب على لسانها إليه:

يا أيُّهـا السَّـيِّدُ الـذي شَـهِدَتْ ألفاظـهُ لي بأنـهُ فاضـلْ
مـا كـانَ ظَـنِّي يَبيعُـنِي أحَـدٌ قـطُّ ولكـنْ صَـاحِبِي جَاهـلْ
لـو جَرَّسُـوهُ علـيَّ مِـنْ سَـفَهٍ لقلـتُ غيظًـا عليـه يسـتاهلْ
أَقصَـى مُـرَادِي لَـوْ كُنْـت في بَلـدِي أرعـى بِهـا في جَوانِـبِ السَّـاحِلْ
وبعـدَ هـذا فمـا يَحِـلُّ لكـمْ أخـذِي؛ لأنِّي مَـن سَـيِّدي حَامَـلْ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات، ورد إليه الحمارة، ولم يكن فيها من الزاهدين!

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله، وهي قصيدة طريفة، يذكر فيها أنه فقير، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال، فأشارت عليها بضربه، ونتف ذقنه شعرة شعرة. وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير:

إليـــكَ نَشْـــكُو حالَنــا إننـــا ... حَاشَــاكَ مِـــن قَـــومٍ أُولِي عُسْــرَهْ
في قِلَّـــةٍ نَحْـــنُ ولكِـــن لَنَـــا ... عائلـــــة في غايـــــة الكَثْـــــرَهْ
أُحـــدِّثُ المـــوْلَى الحـــديثَ الـــذي ... جَـــرَى علـــيهم بالخـــيطِ والإبـــرَ
صـــاموا مـــع النـــاس ولكـــنَّهمْ ... كـــانوا لَمِـــنْ يبصـــرُهم عِـــبرَه
إن شَـــربوا فـــالبِئْرُ زِيـــرٌ لهُـــمْ ... مـــا بَرِحَـــتْ والشَّـــرْبَة الجَـــرَّه
لهـــم مـــن الخبيـــزِ مســـلوقة ... في كـــل يـــومٍ تشـــبهُ النشـــرَه
أقـــولُ مهمـــا اجتمعـــوا حولهـــا ... تنزَّهـــوا في المـــاءِ والخضـــره
وأقبـــلَ العيـــدُ ومـــا عنـــدهم ... قمـــحٌ ولا خبـــزٌ ولا فطـــره
فـــارْحَمْهُم إنْ أبْصَـــرُوا كَعْكَـــة ... في يـــدِ طفـــلٍ أو رأوا تَمْـــرَه
تشـــخصُ أبصـــارُهمو نحوهـــا ... بشـــهقة تتبعُهـــا زفـــرَه
كـــم قائـــلٍ يا أبَتـــا مـــنهمُ: ... قَطَعْـــتَ عَنَّـــا الخُبْـــزَ في كَـــرَّه
مـــا صِـــرْتَ تأتينـــا بفلـــس ولا ... بِـــدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلا نُقْـــرَه
تخـــدمهمْ يا أبتـــا سُـــخرةْ ... وَأنـــتَ في خِدْمَـــة قَـــوْمٍ فَهَـــلْ
والأخـــتُ في الغـــيرة كالضَّـــرَّةْ ... ويـــومَ زارتْ أمهـــمْ أختهـــا
وصـــبرها مـــني علـــى العســـره ... وأقبلـــتْ تشـــكو لهـــا حالهـــا
كـــذا مـــعَ الأزواجِ يا غِـــرَّةْ ... قالـــت لهـــا كيـــفَ تكـــونُ النسـا
تَخَلُّـــفٍ منـــكِ ولا فَـــترَه ... قُـــومِي اطْلُـــبِي حَقَّـــكِ منـــه بِـــلا

أوَّ انتفيهـــا شـــعرة شـــعره وإنْ تَأَبَّ فخُـــذي ذَقْنَـــهُ
فـــإنَّ زوجـــي عنـــده ضـــجره قالـــت لهـــا مـــا عـــادتي هكـــذا
طَلَّقَـــني قالـــتْ لهـــا بَعْـــرَه أخـــافُ إن كلمتـــهُ كلمـــة
وهونَـــتْ قـــدري في نفســـها فجـــاءت الزوجـــةُ مُجْتَـــرَّه
فقـــاتَلتني فتَهَـــدَّدتُهَا فَاســـتَقبَلتْ رَأسِـــي بِآجـــرَّه
وَحَـــقُّ مَـــنْ حالَتُـــهُ هـــذِهِ أَنْ يَنْظُـــرَ المَـــوْلى لـــهُ أَمْـــرَه

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية، ولا تزال بقاياها موجودة في بلبيس [١].

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول ﷺ ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد، فإن قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولّدون، وقد مدح الرسول في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها:

بانَـت سُـعادُ فَقَلـبِي اليَـومَ مَتبـولُ مُتَـيَّمٌ إثرَهـا لَمْ يُفـدَ مَكبـولُ
وَمـا سُـعادُ غَـداةَ البَـينِ إذ رَحَلـوا إلّا أَغَـنُّ غَضـيضُ الطَـرفِ مَكحـولُ

ومدحه الأعشى بداليته التي يقول فيها:

فَأَقسَـمْتُ لا أرْثـي لهَـا مِـنْ كَلالَـةٍ ولا مـنْ وحـي حـتّى تُلاقـي محمّـدا
نـبيٌّ يـرى مـا لا تـرونَ، وذكـرهُ أغَـارَ، لَعَمْـرِي، في الـبِلادِ وَأنجَـدَا

---

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب: المدائح النبوية في الأدب العربي والمؤلف يفلس أحيانًا فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب، وهي ليست بسرقة؛ لأنها تشبه نقل الدنانير من جيب إلى جيب في الثوب الواحد، أليس كذلك؟ بلى، أيها المؤلف!

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى، ويظنها من وضع الرواة، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية، وكذلك بانت سعاد؛ لأن المدح الذي جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئًا عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجهًا إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعدّ شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وُصم به الرسول من النقائص والعيوب. وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقربًا إلى الله، وهي عند الصوفية من جملة الأوراد.

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة، فقال: «كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحدًا، فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام».

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برئ البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية — لا سمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئًا من مثل هذا عن سور القرآن ... ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة ﷺ خمس

مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية: فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر، وما حوت الأشجار من ورق، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام، وعدد الجن والأنس والأملاك، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومذ حشروا، وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

فِي كُـلِّ طَرْفَـةِ عَـيْنٍ يَطْرِفُـونَ بِهَـا ... أَهْـلُ السَّـمَاوَاتِ والأَرْضِـينَ أَوْ يَـذَرُوا

مِـلْءَ السَّـمَاوَاتِ والأَرْضِـينَ مَـعْ جَبَـلٍ ... والْفَرْشِ والْعَرْشِ والكُرْسِي وما حَصَرُوا

مَـا أَعْـدَمَ اللهُ مَوْجـودًا وأَوْجَـدَ مَعْــ ... ــدُومًا صَـلاةً دَوَامُـا لَـيسَ تَنْحَصِـرُ

تَسْـتَغْرِقُ العَـدَّ مَـعْ جَمْـعِ الـدُّهُورِ كَمَـا ... تُحِـيطُ بِالحَـدِّ لا تُبْقِـي ولا تَـذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفًا في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل الخيرات.

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءًا من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكارًا لحج الخديوي السابق سنة ١٢٢٧هـ، وقدمها إليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحًا وجيزًا بينًا، قال في نهايته: «ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع

له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد».

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز إن شاء أيده وإن شاء نفاه [(١)] . ولهذا الشرح مقدمة وضعها مُحَمَّد بك المويلحي، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى: «أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر بشيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى، فأين الوزن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟» ثم قال: «فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت»، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته، مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين!!

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدًا للموازنة بين البردة ونهج البردة وإنَّا لنرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغَنَاء.

---

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساجلنا في جريدة البلاغ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح، وكان الشيخ سليم رحمه الله غنيًا بفضله الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل، ولكن هذا ما وقع. وليت شعري كيف نطمئن إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبرًا قامت الشواهد على صحته، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه.

ولهذه القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب: أكواب الشهد والعلقم فليرجع إليها هناك.

الفصل العشرون

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحاه، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجيل، وإن كان من قدمائهم من نالها بملام، كالمتنبي إذ يقول:

إذا كَــان مَــدحٌ فالنَّسِــيب المُقَــدَّم ... أكُــل فصــيحٍ قــال شــعرًا مُتَّــيم؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان مريدوهم يئولونه فيرونه موجهًا إلى الذات الإلهية أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم، من المجون، وجعلوه نوعًا من الرمز والتمثيل، وتطلف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأشباح، إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة: وهي افتتاح الشعر بالنسيب، وهي عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن، وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في مشروع ملنر، فقد افتتحها بهذه الأبيات:

اِثــنِ عَنــانَ القَلــبِ وَاســلَم بِــهِ ... مِــن رَبــرَبِ الرَمــلِ وَمِــن سِــربِهِ
وَمِــن تَثَــنّي الغيــدِ عَــن بانِــهِ ... مُرتَجَّـــةَ الأَردافِ عَـــن كُثبِـــهِ
ظِبـــاؤُهُ المُنكَسِـــراتُ الظُبـــا ... يَغلِـــبنَ ذا اللُـــبِّ عَلـــى لُبِّـــهِ
بـــيضٌ رِقـــاقُ الحُســـنِ في لَمحَـــةٍ ... مِـــن ناعِـــمِ الـــدُرِّ وَمِـــن رَطبِـــهِ

ذَوابِـــــلُ النَـــــرجِسِ في أَصـــــلِهِ   يَوانِـــعُ الـــوَردِ عَلـــى قُضـــبِهِ
زِنَّ عَلـــى الأَرضِ سَمـــاءَ الـــدُجى   وَزِدنَ في الحُســـنِ عَلـــى شُـــهبِهِ
يَمشـــينَ أَســـرابًا عَلـــى هينَـــةٍ   مَشـــيَ القَطـــا الآمِـــنِ في سِـــربِهِ
مِـــن كُـــلِّ وَســـنانٍ بِغَـــيرِ الكَـــرى   تَنتَبِـــهُ الآجـــالُ مِـــن هُدبِـــهِ

وهي قصيدة طويلة، ثلثها في النسيب. ويذكر شوقي أنه قالها كارهًا ولا يبعد على هذا أن يكون ما فتحها به من التشبيب جزءًا من المنحة، التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك!! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعًا من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أني رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب بابًا للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد. ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل: كان الأدب يقضي بتجنب هذا النهج في المدائح النبوية، فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول، فما لامه النبي، ولا أنكرها عليه أصحابه، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيبه مجرى المحاكاة والتقليد، فإنا نراه يقول في مطلع البردة:

أَمِـــنْ تَـــذَكُّرِ جـــيرَانٍ بِـــذِي سَـــلَمِ   مزجـتَ دمعًـا جـرى مـن مقلـة بـدمِ
أَمْ هبَّـتِ الـرِّيحُ مِـن تِلقَـاءِ كاظِمَـةٍ   وأَوْمَـضَ البَـرْقُ في الظَلْمـاءِ مِـنْ إِضَـمِ

وذو سلم: واد ينحدر عن النائب في أرض بني البكّاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت، وفيه يقول كثيّر:

أَمِـــن آلِ سَـــلْمى دِمنَـــة الـــذنَّائِبِ   إلى الميـت مِـنْ رَيعـانَ ذَاتِ المطـارِبِ
يلُـــوحُ بأطْـــرَافِ الأَجِـــدَّة رَسْمُهـــا   بـــذي سَـــلَمٍ أطلالُهـــا كالمـــذاهِبِ

وكاظمة: جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول بعض

الشعراء:

يا حَبَّــذَا الــبَرق أكنَــاف كَاظِمَــة ... يَسعى عَلَى قَصَرات المرخ والعُشَر
لله دَرُّ بُيــوتٍ كَــان يَعْشَــقُهَا ... قَلبِي وَيَألفُهَا إن طُيبت بصري
فَقَــدتهَا فَقــدَ ظَمــآنٍ إدَاوَتَــه ... والقَيظَ بَقْذِف وَجه الأرض بالشَّرر
أُمنِيَّــةُ الــنَّفس أن تــزْدَاد ثَانِيَــةً ... وَحَالنَــا وَالأمَــانِي حُلْــوة الثَمــر

وإضم: واد بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، وفيه يقول سلامة بن جندل:

يا دَارَ أسمَــاءَ بِالعَلَيَــاءِ مِــن إضَــمٍ ... بَــينَ الــدَّكادِكِ مِــن قَــوٍّ فمَعْصُــوبِ
كَانــتَ لَهَــا مَــرَّة دَارًا فَغَيَّرَهَــا ... مَــرُّ الــرِّيَاحِ بسَــاقِي الــتُّربَ مجلــوبِ

وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوف بعض الناس إلى أحبائه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رءوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، وسلع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق؛ ولذلك نجد التكلف ظاهرًا في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اختارها للقافية، كما اختار إضم لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند ببغداد:

وقَالـت نِسَـاء الحَـيِّ أَيـن ابْـن أُختنَـا؟ ... ألا خَبِّــرُونا عَنْــه حُيِّيتمُــو وفــدا
رَعَــاه ضــمَان الله هَــل في بِلادِكُــم ... أَخـو كَـرَمٍ يَرْعَـى لِـذِي حَسَـب عهـدا
فــإنَّ الَّــذي خَلَّفتُمُــوه بأرضِــكم ... فَــتَى مَـلأ الأحشـاء هِجرانـه وجـدا
أَبَغــدَادَكُم تُنسِّــيه أَروَنــدَ مَربَعًــا ... ألا خـاب مـن يشْـري بِبغـداد أَرَّونـدا
فَــدَتْهُنَّ نَفسِــي! لــو سَمِعــن بِمــا أَرَى ... رَمَــى كـل جِيـدٍ مــن تنهُّــده عقــدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليدًا، ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية، وحن إلى معنى من معاني النيل [1] ، ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال:

رِيمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ   أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

وإنما أطلق نفسه من ربقة التقليد، فلم يتحدث عن نجد، ولا عن تهامة، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف، ويظلون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مزجتَ دمعًا جرى من مقلة بدمِ

فإن قوله: «جرى من مقلة» حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد، فإنه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة «على القاع» في قول شوقي:

رِيمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ

أما قوله:

أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية في حسن الأداء.

وقول البوصيري:

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا هَمَتا   ومَا لِقَلْبِك إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

---

(١) في كتاب (المدائح النبوية) توجيه لكلام البوصيري فارجع إليه هناك.

فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقيه، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى، فقال:

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... ما بَيْنَ مُنْسَجِم منهُ ومضطَرِمِ
لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ ... ولا أرقتَ لذكرِ البانِ والعلمِ

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يستجاد قوله:

فكيفَ تُنْكِرُ حُبًّا بعدَ ما شَهِدَتْ ... بهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَم
وَأَثْبَتَ الوجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى ... مِثْلَ البَهارِ عَلَى خَدَّيْكَ والعَنَمِ

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال، فإنا نجد البوصيري يقول:

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرقني ... والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالألَمِ(١)

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال:

يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوى أَبَدًا ... أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوى فَنَمِ
أَفديكَ إِلفًا وَلا آلو الخَيالَ فِدًى ... أَغراكَ بِالبُخلِ مَن أَغراهُ بِالكَرَمِ
سَرى فَصادَفَ جُرحًا دامِيًا فَأَسا ... وَرُبَّ فَضلٍ عَلى العُشّاقِ لِلحُلُمِ

والفرق بعيد بين قول البوصيري:

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فَأَرَّقَني

وبين قول شوقي:

سَرى فَصادَفَ جُرحًا دامِيًا فَأَسا

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع:

---

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا: إنه نظرة سينمائية، ولكن قد يتفق أحيانًا أن القلوب أسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من البرق.

نَظـــــرَةٌ فَابِتسَــــــامَةٌ فَسَـــــلامُ فكَـــــلَامٌ فمَوعِـــــد فَلِقـــــاءَ

وقول شوقي «ورب فضل على العشاق للحلم» أرفق من قول البوصيري: «والحب يعترض اللذات بالألم» – أما قول شوقي:

يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوى أَبَدًا أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوى فَنَمِ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفي قوله:

أَفـديكَ إِلفًـا وَلا آلـو الخَيـالَ فِـدًى أَغـراكَ بِالبُخـلِ مَـن أَغـراهُ بِالكَـرَمِ

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب: فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغري طيفه بالجود، وسماحة الطيف بابٌ إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين:

يا لائِمِـي في الهَـوَى العُـذْرِيِّ مَعْـذِرَة مـنِّي إليـكَ ولـو أنصـفتَ لم تلُـمِ

ويقول شوقي:

يا لائِمــي في هَـــواهُ وَالهَــوى قَــدَرٌ لَـو شَـفَّكَ الوَجـدُ لَم تَعـذِل وَلَم تَلُـمِ

وبيت شوقي أجمل، وقوله: «الهوى قدر» من أبدع ما قيل في دفع العذل والملام [(١)]

أما قوله: «لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم»، فهو أجود في معناه من قول الشريف الرضيّ:

أقُـــولُ للائِـــمِ المُهْـــدِي مَلامَتَـــهُ: ذُق الهَـوَى وإن اسْـطَعْت المــلاَم لُمِ

ومن قول ابن الفارض:

دَعَ عَنْـكَ تَّعَنِيْفِـيّ وَذُقْ طَعْـمَ الْهَـوَى فَـإِذَا عَشِـقْت فَبَعـد ذِلـك عَنّـفِ

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله:

---

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال: إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية. «وعد ومكتوب علي ومقدر عالجبين»، ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي «والهوى قدر».

عَـــدَتْكَ حـــالِيَ لا سِـــرِّي بِمُسْـــتَتِرٍ عـــن الوُشـــاةِ وَلا دَائـــي بمنحســـمِ

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة، وهو يقول في حوار لائمه:

لَقَـــد أَنَلتُـــكَ أُذنًا غَـــيرَ واعِيَـــةٍ وَرُبَّ مُنتَصِـــتٍ وَالقَلـــبُ في صَـــمَمِ

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته، ولكنها قد تزحزحه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذنًا غير واعية، وقلبًا غير سميع، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة، ووصف لائمه بنصح الجيب حين قال:

مَحَّضَـتْنِي النُّصْـحَ لكِـنْ لَسْـتُ أَسْمَعُـهُ إنَّ المُحِـبَّ عَـن العُـذَّالِ في صَـمَمِ

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب، فلنقف قليلًا عند المعاني التي انفرد بها شوقي، وإنا لنستجيد قوله:

رَمـى القَضـاءُ بِعَيـنَي جُـؤذَرٍ أَسَـدًا يا سـاكِنَ القـاعِ أدرِك سـاكِنَ الأَجَـمِ

وهذا معنى قديم، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء، فهو لا يذكر أن الجوذر رماه، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر، والقضاء خبير بأنواع النصال!

وقد بلغ الرفق في قوله:

لَمّـــا رَنا حَـــدَّثَتني الـــنَفسُ قائِلَـــةً يا وَيحَ جَنبِكَ بِالسَهمِ المُصيبِ رُمي

جَحَـدتُها وَكَتَمـتُ السَـهمَ في كَبِـدي جُـرحُ الأَحِبَّـةِ عِنـدي غَـيرُ ذي أَلَمِ

رُزِقـتَ أَسمَـحَ مـا في النـاسِ مِـن خُلُـقٍ إِذا رُزِقـتَ اِلتِمـاسَ العُـذرِ في الشِـيَمِ

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة؛ لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب، والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية، فما هذا المن على الجمال!

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي:

إنْ كـانَ سَـرَّكُمُو مـا قـالَ حاسِـدُنَا فَمَـــا لجُـــرْحٍ إذا أرْضـــاكُمُ أَلَمُ

ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيبته، فقال:

مَـــنِ المَـــوائِسُ بانًا بِالـــرُبى وَقَنًـــا اللاعِبـاتُ بِروحـي السـافِحاتُ دَمـي

السـافِراتُ كَأَمثـالِ البُـدورِ ضُـحًى يُغِرنَ شَمسَ الضُحى بِالحَليِ وَالعِصَمِ

القـــاتِلاتُ بِأَجفـــانٍ بِهـــا سَـــقَمٌ وَلِلمَنِيَّـــةِ أَســـبابٌ مِـــنَ السَـــقَمِ

العـــاثِراتُ بِأَلبـــابِ الرِجـــالِ وَمـــا أُقِلـنَ مِـن عَثَـراتِ الـدَلِّ في الرَسَـمِ

المُضـرِماتُ خُـدودًا أَسـفَرَتْ وَجَلَـتْ عَـن فِتنَـةٍ تُسـلِمُ الأَكبـادَ لِلضَـرَمِ

الحـامِلاتُ لِـواءَ الحُسـنِ مُختَلِفًـا أَشـكالُهُ وَهـوَ فَـردٌ غَـيرُ مُنقَسِـمِ

مِـن كُـلِّ بَيضـاءَ أَو سَمـراءَ زُيِّنَتـا لِلعَــينِ وَالحُســنُ في الآرامِ كَالعُصُــمِ

يُـرَعنَ لِلبَصَـرِ السـامي وَمِـن عَجَـبٍ إِذا أَشَـرنَ أَسَـرنَ اللَيـثَ بِالعَـنَمِ

وَضَـعتُ خَـدّي وَقَسَّـمتُ الفُـؤادَ رُبًى يَـرتَعنَ في كُـنُسٍ مِنـهُ وَفي أَكَـمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستلمح منها قوله:

العـــاثِراتُ بِأَلبـــابِ الرِجـــالِ وَمـــا أُقِلـنَ مِـن عَثَـراتِ الـدَلِّ في الرَسَـمِ

فقد جعلهن يمشين على القلوب، فيعثرن بقلب بعد قلب، وإن لم يسلمن من عثرات الدلال، وهن يتخطرن في الضحى، وعند الأصيل ...

وأستجيد كذلك قوله:

يُـرَعنَ لِلبَصَـرِ السـامي وَمِـن عَجَـبٍ إِذا أَشَـرنَ أَسَـرنَ اللَيـثَ بِالعَـنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء، وذكر أنهن يرعن حين تسمو إليهن العين، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهيوب، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب ... وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته:

يا بِنــتَ ذي اللِبَــدِ المُحَمــيّ جانِبُــهُ   أَلقـاكِ في الغـابِ أَم أَلقـاكِ في الأُطُـمِ

مـا كُنـتُ أَعلَـمُ حَـتّى عَـنَّ مَسـكَنُهُ   أَنَّ المُـنى وَالمَنـايا مَضـرِبُ الخِيَمِ [1]

مَن أَنبَتَ الغُصنَ مِن صَمصامَةٍ ذَكَرٍ   وَأَخــرَجَ الــريمَ مِــن ضِــرغامَةٍ قَــرِمِ

بَيــني وَبَينُـكِ مِـن سُمـرِ القَنـا حُجُـبٌ   ومِثلُهــا عِفَّــةٌ عُذرِيَّــةُ العِصَــمِ

لَم أَغـشَ مَغنـاكِ إِلا في غُضـونِ كِـرًى   مَغنــاكَ أَبعَــدُ لِلمُشــتاقِ مِــن إِرَمِ

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه اليأس، وتعبس الدنيا حين يعبس، ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تنثني أو غصنًا يميد.

وقول شوقي:

مـا كُنـتُ أَعلَـمُ حَـتّى عَـنَّ مَسـكَنُهُ   أَنَّ المُــنى وَالمَنــايا مَضــرِبُ الخِــيَمِ

مَن أَنبَتَ الغُصنَ مِن صَمصامَةٍ ذَكَرٍ   وَأَخــرَجَ الــريمَ مِــن ضِــرغامَةٍ قَــرِمِ

أجود في معناه من قول الطغرائي:

إني أُريــدُ طــروقَ الحَــيِّ مــن إضَــمٍ   وقــد حمــاهُ رمــاةٌ مــن بــني ثُعــلِ

يحمـونَ بالبِيض والسُّمْرِ اللـدانِ بهـمْ   ســودَ الغــدائرِ حُمْـرَ الحَلْـي والحُلَـلِ

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن ينبت الغصن من السيف الذكر، ويخرج الريم من الضرغامة القرم!

وقول شوقي:

بَيــني وَبَينُـكِ مِـن سُمـرِ القَنـا حُجُـبٌ   ومِثلُهــا عِفَّــةٌ عُذرِيَّــةُ العِصَــمِ

---

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان والعلم، ومضرب الخيم، وأن قوله يا بنت ذي اللبد يذكرنا بقول ابن هانئ:

يا بنت ذي السيف الطويل نجاده   أكذا يجور الحكم في ناديك

لَمَ أَغشَ مَغنـاكِ إلا في غُضونِ كَرًى ... مَغنـاكَ أَبعَـدُ لِلمُشتـاقِ مِـن إرَمِ

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي:

تـؤم ناشـئة بالجـزع قـد سُـقيت ... نِصـالُها بميـاه الغَـنْجِ والكَحَـلِ[1]

قـد زادَ طيـبَ أحاديـثِ الكـرامِ بها ... مـا بالكـرائمِ مـن جُـبنٍ ومـن بُخُـلِ

تبيـتُ نارُ الهَـوى مـنهنَّ في كَبِـدٍ ... حـرَّى ونار القِـرى مـنهم علـى القُلَـلِ

يقـتُلنَ أنضـاءَ حـبٍّ لا حَـراكَ بها ... وينحـرونَ كـرامَ الخيـلِ والإِبِـلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نلم إلمامة بقصيدة البارودي التي سماها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة»، وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي ﷺ من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبناها كما قال على سيرة ابن هشام. والبارودي شاعر فحل، يعتز به تاريخ الأدب في مصر، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس. ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري؛ لأنا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي؛ ليكون الموضوع أوفى، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالًا للنقد والتمييز ... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال:

يا رَائِـدَ الـبَرقِ يَمِّـمِ دارَةَ العَلَـمِ ... وَاحـدُ الغَمـامَ إِلى حَـيٍّ بِـذِي سَـلَمِ

وَإِن مَـرَرتَ عَلـى الرَّوحـاءِ فَـامرِ لَهـا ... أخـلافَ سـارِيَةٍ هَتّانَـةِ الـدِّيَمِ

مِـنَ الغِـزارِ اللَّـواتي في حَوالِبِهـا ... رِيُّ النَّواهِـلِ مِـن زَرعٍ وَمِـن نَعَـمِ

إِذا اسـتَهَلَّت بِأَرضٍ نَمْنَمَـتْ يَـدُهَا ... بُـرْدًا مِنَ النَّـوْرِ يَكسُـو عـارِيَ الأَكَـمِ

تَـرى النَّبـاتَ بِهـا خُضْـرًا سَـنابِلُهُ ... يَختـالُ في حُلَّـةٍ مَوشِـيَّةِ العَلَـمِ

---

(١) الغنج: حلاوة العين.

أَدعُــو إِلى الــدَّارِ بِالسُّــقيا وَبِي ظَمَــأٌ   أَحَــقُّ بِالــرِّيِّ لَكِــنّي أَخُــو كَــرَمِ
مَنــــازِلٌ لِهَواهـــا بَـــينَ جـــانِحَتي   وَدِيعَــةٌ سِــرُّها لَمْ يَتَّصِــلْ بِفَمِــي
إِذا تَنَسَّــمتُ مِنهــا نَفحَــةً لَعِبَــت   بِيَ الصَـبابَةُ لِعبَ الـريحِ بِالعَلَــمِ
أَدِر عَلــى السَّــمعِ ذِكراهــا فَــإِنَّ لَهــا   فِي القَلــبِ مَنزِلَــةً مَرعِيَّــةَ الــذِمَمِ
عَهــدٌ تَــوَلّى وَأَبقــى فِي الفُــؤادِ لَــهُ   شَــوقًا يَفُــلُّ شَــباةَ الـرَأيِ وَالهِمَــمِ
إِذا تَذَكَّرتُـــــهُ لاحَـــــت مَخائِلُـــــهُ   لِلعَــينِ حَــتّى كَــأَنّي مِنــهُ فِي حُلُــمِ
فَمــا عَلــى الــدَّهرِ لَــو رَقَّــت شَمائِلُــهُ   فَعــادَ بِالوَصــلِ أَو أَلقَــى يَــدَ السَّــلَمِ
تَكــاءَدَتني خُطُــوبٌ لَــو رَمَيــتُ بِهــا   مَناكِـبَ الأَرضِ لَمْ تَثبُـتْ عَلـى قَـدَمِ
فِي بَلـدَةٍ مِثلِ جَـوفِ العَـيرِ لَسـتُ أَرى   فيهــا سِــوَى أُمَــمٍ تَحنُــو عَلَــى صَـنَمِ
لا أَســـتَقِرُّ بِهـــا إِلاّ عَلـــى قَلَـــقٍ   وَلا أَلَـــــذُّ بِهـــــا إِلاّ عَلَـــــى أَلَمِ
إِذا تَلَفَّـــتُّ حَـــولي لَمْ أَجِـــد أَثَـــرًا   إِلا خَيــالي وَلَمْ أَسمَــع سِــوى كَلِمــي
فَمَــن يَــرُدُّ عَلــى نَفســي لُبانَتَهــا   أَو مَـن يُجِـيرُ فُـؤادِي مِـن يَـدِ السَّـقَمِ

وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المعاني العربية، ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعًا فيتحول إليه لتحسبه نسي المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء؟ وهذا هو الغرض الأول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم، فقال:

مِـــنَ الغِـــزارِ اللَّـــواتي في حَوالِبِهـــا   رِيُّ النَّواهِــلِ مِــن زَرعٍ وَمِــن نَعَــمِ
إِذا اســتَهَلَّت بِأَرضٍ نَمْنَمَـــتْ يَــدُهَا   بُـرْدًا مِـنَ النَّـوْرِ يَكسُـو عـارِيَ الأَكَـمِ
تَــرى النَّبــاتَ بِهــا خُضْــرًا سَــنابِلُهُ   يَختَـــالُ في حُلَّـــةٍ مَوشِـــيَّةِ العَلَـــمِ

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصف، أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا

الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به إلا على قلق، ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله، ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

الفصل الحادي والعشرون

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية: إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين، ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية، فإنا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول:

كَـأَنَّ حُمُـولَ المالِكيَّـةِ غُـدوَةً ... خَـلايا سَـفينٍ بِالنَواصِـفِ مِـن دَدِ

عدوليـة أو مـن سـفين بـن يامـنٍ ... يجـورُ بهـا المَّـلاح طـورًا ويهتـدي

يشـقُّ عُبـابَ المـاءِ حَيزُومُهَـا بِهَـا ... كَمَـا قسَـمَ الـتُّربَ المُفائِـلُ باليَـدِ

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول:

وإنّي لأمضِـي الهَـمَّ عِنـد احتِضَـارِه ... بِهَوجَـاء مِرقَـالٍ تَـرُوحُ وَتَغتَـدي

ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتًا، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول:

ولَسـتُ بِحَـلاَّل الـتَّلَاع مَخَافَـة ... ولكِـن مَـتى يَسـتَرفِد القَـومُ أَرَّفِـد

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد:

تَجلـو عَـوارِضَ ذي ظَلـمٍ إِذا ابِتَسَـمَت ... كَأَنَّـهُ مُنهَـلٌ بِالـراحِ مَعلـولُ

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول:

شُـجَّت بِـذي شَـبَمٍ مِـن مـاءِ مَحنِيَـةٍ ... صـافٍ بِأَبطَـحَ أَضـحى وَهُـوَ مَشـمولُ

تَنفِـي الـرِّيَاحُ القَـذَى عَنُـه وَأَفرَطَـهُ مِـن صَـوبِ سـارِيَةٍ بـيضٍ يَعاليـلُ

ونراه يقول في بعد محبوبته:

أَمسَـت سُـعادُ بِأَرضٍ لا يُبَلِّغُهـا إِلّا العِتـاقُ النَجيبـاتُ المَراسـيلُ

وكان هذا كافيًا في الإبانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتًا. ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول فقال:

تَسـعى الوُشَـاةُ بِجَنبَيها وَقَـولُهُمُ: إِنَّـكَ يَا ابـنَ أَبي سُـلمى لَمَقتـولُ

وَقـالَ كُـلُّ خَليـلٍ كُنـتُ آمُلُـهُ: لا أُلفِيَنَّـكَ إِنّي عَنـكَ مَشـغولُ

فَقُلـتُ خَلّـوا سـبيلي لا أَبَا لَكُـمُ فَكُـلُّ مـا قَـدَّرَ الـرَحمَنُ مَفعـولُ

كُـلُّ اِبـنِ أُنثـى وَإِن طالَـت سَـلامَتُهُ يَومًـا عَلـى آلَـةٍ حَـدباءَ مَحمـولُ

أُنبِئـتُ أَنَّ رَسـولَ اللهِ أَوعَـدَني وَالعَفُـوُ عِنـدَ رَسـولِ اللهِ مَـأمولُ

مَهلًا هَـداكَ الَّـذي أَعطاكَ نافِلَـةَ الـ قُـرآنِ فيهـا مَـواعيظٌ وَتَرتيـلُ

لا تَأَخُـذَنّي بِأَقـوالِ الوُشـاةِ وَلَم أُذِنـب وإنْ كَثُـرَت عَـنّي الأَقاويـلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة)، فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته. ولنذكر الآن شاهدًا آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب:

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع الصديق وصفًا لا زخرف فيه، إذ قال: إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا.

ووصفه أبو بكر ﷺ على هذا النحو فقال: «كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين. قلت: يا رسول الله: لو أن أحدهم رفع قدمه لرآنا، قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!».

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت: «ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار، أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعًا معهم قسيهم وعصيهم، فتقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار، فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد، وقال رجل آخر: الغار! فقال أمية بن خلف: «ما أربكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمدًا [(١)] ».

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة: «هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن»، وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفًا يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفًا فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت – ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان – فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال:

فالصدقُ في الغارِ والصديقُ لم يرِما ... وَهُمْ يقولونَ ما بالغارِ مِنْ أَرِمِ [(٢)]

ظَنُّوا الحَمامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على ... خيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ ولمْ تَحُمِ

وقايةُ اللهِ أغنتْ عن مضاعفة ... من الدروعِ وعن عالٍ من الأطمِ

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه، ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.

أما شوقي فقد قال:

---

(١) راجع وضح النهج.

(٢) أي لا أثر فيه.

سَل عُصبَةَ الشِركِ حَولَ الغارِ حائِمَةً ... لَــولا مُطــارَدَةُ المُختــارِ لَم تَحُـــمِ
هَـل أَبصَـروا الأَثَـرَ الوَضّـاءَ أَم سَمِعـوا ... هَمسَ التَسابيحِ وَالقُرآنِ مِن أُمَمِ (١)
وَهَــل تَمَثَّــلَ نَســجُ العَنكَبــوتِ لَهُــمْ ... كَالغـابِ وَالحائِمـاتُ الزُغْـبُ كَـالرُخَمِ
فَـــأَدبَروا وَوُجـــوهُ الأَرضِ تَلعَـــنُهُمْ ... كَباطِــلٍ مِــن جَــلالِ الحَــقِّ مُنهَــزِمِ
لَــولا يَــدُ اللهِ بِالجــارَينِ مــا سَــلِما ... وَعَينُــهُ حَــولَ رُكــنِ الــدينِ لَم يَقُــمِ
تَـــوارَيا بِجَنـــاحِ اللهِ وَاســـتَتَرا ... وَمَــن يَضُــمُّ جَنــاحُ اللهِ لا يُضَــمِ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلًا بشعًا مخيفًا يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود، وللقارئ أن يتأمل قوله:

فَـــأَدبَروا وَوُجـــوهُ الأَرضِ تَلعَـــنُهُمْ ... كَباطِــلٍ مِــن جَــلالِ الحَــقِّ مُنهَــزِمِ

فإنه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول. أما البارودي فقد قال:

وَجـــاءَهُ الـــوَحيُ إِيـــذانًا بِهِجرَتِـــهِ ... فَــيَمَّمَ الغــارَ بِالصِّــدِّيقِ فِي الغَسَــمِ (٢)
فَمَـــا اسْـــتَقَرَّ بِـــهِ حَـــتّى تَبَـــوَّأَهُ ... مِـــنَ الحَمـــائِمِ زَوجٌ بارِعُ الـــرَّنَمِ
بَـــنى بِـــهِ عُشَّـــهُ وَاحْتَلَّـــهُ سَـــكَنًا ... يَأوي إِلَيـــهِ غَـــداةَ الـــرِّيحِ وَالـــرَّهَمِ
إِلفـــانِ مـــا جَمَـــعَ المِقـــدارُ بَينَهُمـــا ... إِلّا لِسِـــرٍّ بِصَـــدرِ الغَـــارِ مُكْتَـــتَمِ
كِلاهُمـــا دَيـــدَبانٌ فَـــوقَ مَـــربأَةٍ ... يَرعَـــى المَســـالِكَ مِـــن بُعـــدٍ وَلَم يَـــنَمِ
إِن حَـــنَّ هَـــذا غَرامًـــا أَو دَعـــا طَـــرَبًا ... بِاســـمِ الهَـــديلِ أَجابَـــت تِلـــكَ بِالـــنَّغَمِ
يَخالُهـــا مَـــن يَراهـــا وَهـــيَ جاثِمَـــةٌ ... فِي وَكرِهـــا كُـــرَةً مَلســـاءَ مِـــن أَدَمِ (٣)
إِن رَفرَفَـت سَـكَنَت ظِـلًّا وَإِن هَبَطَـت ... رَوَت غَليـلَ الصَّـدى مِـن حـائِرٍ شَـبِمِ

---

(١) من قرب.
(٢) في الظلام.
(٣) من جلد.

مَرقُومَـةُ الجِيـدِ مِـن مِسـكٍ وَغالِيَـةٍ مَخضُـوبَةُ السـاقِ وَالكَفَّـينِ بِالعَـنَمِ
كَأَنَّمـا شَـرَعَت في قـانِئٍ سـرِبٍ مِـن أَدمُعِـي فَغَـدَت مُحَمَـرَّةَ القَـدَمِ
وَسَـجفَ العَنكَبُـوتُ الغـارَ مُحتَفِيًـا بِخَيمَـةٍ حاكَهـا مِـن أَبـدَعِ الخِـيَمِ
قَد شَدَّ أَطرافها فَاستَحكَمَت وَرَسَت بِالأَرضِ لَكِنَّهـا قامَـت بِـلا دِعَـمِ
كَأَنَّهـا سـابِرِيٌّ حاكَـهُ لَبِـقٌ بِأَرضِ سـابُورَ في بُحبُوحَـةِ العَجَـمِ
وَارَت فَـمَ الغـارِ عَـن عَـينٍ تُلِـمُّ بِـهِ فَصـارَ يَحكـي خَفـاءً وَجـهَ مُلتَـثِمِ
فَيـا لَـهُ مِـن سِـتارٍ دُونَـهُ قَمَـرٌ يَجلُـو البَصـائِرَ مِـن ظُلـمٍ وَمِـن ظُلَـمِ
فَظَـلَّ فيـهِ رَسـولُ اللهِ مُعتَكِفًـا كَالـدُرِّ فِي البَحـرِ أَو كَالشَّـمْسِ فِي النَسَـمِ
حَـتّى إِذا سَـكَنَ الإِرْجَـافِ وَاحْتَرَقَـت أَكْبَـادُ قَـومٍ بِنَـارِ اليَـأسِ وَالـوَغَمِ
أَوحـى الرَّسـولُ بِإِعـدادِ الرَّحيـلِ إِلى مَـن عِنـدَهُ السِّـرُّ مِـن خِـلٍّ وَمِـن حَشَـمِ
وَسـارَ بَعـدَ ثَـلاثٍ مِـن مَباءَتِـهِ يَـؤُمُّ طَيبَـةَ مَـأوى كُـلِّ مُعتَصِـمِ

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه وتكلم عن حراسة الحمامتين، ورعايتهما للمسالك البعيدة، وهجرهما النوم، وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مرقومة الجيد، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية، إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع، واستسلام إلى الخيال، وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب؛ لأنهساير الحوادث وفقًا لما قصه ابن هشام، ولا كذلك شوقي والبوصيري، فقد أطاعا الخواطر الطارئة، وقدما بعض الحوادث على بعض، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلًا قبل أن يذكرا الميلاد.

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابًا لفقد الشعر في أكثر القصيدة، فأصبحت بذلك «منظومة» كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجًا يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وَأَمَّ طَيبَةَ مَسْرورًا بِعَودَتِهِ   يَطوي المَنازِلَ بِالوَخّادَةِ الرُّسُمِ

ثُمَّ استَهَلَّت وُفودُ الناسِ قاطِبَةً   إِلى حِماهُ فَلاقَت وافِرَ الكَرَمِ

فَكانَ عامَ وُفودٍ كُلَّما اِنصَرَفَت   عِصابَةٌ أَقبَلَت أُخرى عَلى قَدَمِ

وَأَرسَلَ الرُّسلَ تَترى لِلمُلوكِ بِما   فِيهِ بَلاغٌ لِأَهلِ الذِّكرِ وَالفَهَمِ

وَأَمَّ غالِبُ أَكنافَ الكَديدِ إِلى   بَني المُلَوَّحِ فَاِستَولى عَلى النَّعَمِ

وَحِينَ خانَت جُذامٌ فَلَّ شَوكَتَها   زَيدٌ بِجَمعٍ لِرَهطِ الشِّركِ مُقتَثِمِ

وَسارَ مُنتَحِيًا وادي القُرى فَمَحا   بَني فَزارَةَ أَصلَ اللُّؤمِ وَالقَزَمِ

وَأَمَّ خَيبَرَ عَبدُ اللهِ في نَفَرٍ   إِلى اليَسِيرِ فَأَرداهُ بِلا أَثَمِ

وَيَمَّمَ اِبنُ أُنَيسٍ عُرضَ نَخلَةَ إِذ   طَغا اِبنُ ثَورٍ فَأَصماهُ وَلَم يَخِمِ

ثُمَّ استَقَلَّ اِبنُ حِصنٍ فَاحْتَوَت يَدُهُ   عَلى بَني العَنبَرِ الطُّرّارِ وَالشُّجُمِ

وَسارَ عَمرو إِلى ذاتِ السَّلاسِلِ في   جَمعٍ لُهامٍ لِجَيشِ الشِّركِ مُصطَلِمِ

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحيانًا إلى الغموض، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه، وانظر كيف يقول، وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم الميعاد:

إِنّي وَإِن مالَ بي دَهري وَبَرَّحَ بي   ضَيمٌ أَشاطَ عَلى جَمرِ النَّوى أَدَمي

لَثابِتُ العَهدِ لَم يَحلُل قُوى أَمَلي   يَأسٌ وَلَم تَخطُ بِي في سَلوَةٍ قَدَمي

لَم يَترُكِ الدَّهرُ لي ما أَستَعِينُ بِهِ   عَلى التَّجَمُّلِ إِلّا ساعِدي وَفَمي

هَذا يُحَبِّرُ مَدحي في الرَّسولِ وَذا   يَتلُو عَلى الناسِ ما أُزجيهِ مِن كَلِمي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير، أولهما: مملوءٌ بالحرارة؛ لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر، وثانيهما: فيه ضعف وفتور؛ لأنه عاد إلى القصص من جديد، ولعل أغرب ما وقع له من «النظم» اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول:

فَهاكَهـــا يا رَسُـــولَ اللهِ زاهِـــرَةً ... تُهْـدِي إِلى الـنَّفسِ رَيّا الآسِ وَالبَـرَمِ
وَسمتُهـا بِاسْمِـكَ العَـالِي فَأَلْبَسـها ... ثَـوبًا مِـنَ الفَخـرِ لا يَبلى عَلى القِـدَمِ
غَرِيبَـةٌ فِي إِسـارِ البَـينِ لَـو أَنِسَـت ... بِنَظـرَةٍ مِنـكَ لاسـتغنَت عَـنِ النَّسَـمِ
لَمْ أَلتَـزِمْ نَظْـمَ حَبّـاتِ البَـدِيعِ بِهـا ... إذ كـانَ صَـوغُ المَعـانِي الغُـرِّ مُلتَزِمي
وإنمـا هـي أبيـات رجـوت بهـا ... نَيـلَ المُـنى يَـومَ تَحيـا بَـذَّةُ الـرِّمَمِ
نَثَـرتُ فِيهـا فَرِيـدَ المَـدحِ فَانتَظَمَـت ... أحسـن بمنتشـر فيهـا ومنـتظم
صَــدَّرتُها بِنَسِـيبٍ شَـفَّ باطِنُـهُ ... عَـن عِفَّـةٍ لَمْ يَشِـنها قَـولُ مُـتَّهِمِ
لَمْ أَتَّخِـذهُ جُزافًـا بَـل سَـلَكتُ بِـهِ ... فِي القَـولِ مَسـلَكَ أَقـوامٍ ذَوي قَـدَمِ
تابَعـتُ كَعبًـا وَحَسّـانًا وَلِي بِهِمـا ... فِي القَـولِ أُسـوَةُ بَـرٍّ غَـيرِ مُـتَّهَمِ
وَالشِّـعرُ مَعـرَضُ أَلبـابٍ يُـروجُ بِـهِ ... مـا نَمَّقَتـهُ يَـدُ الآدابِ وَالحِكَـمِ
فَـلا يَلُمـنِي عَلى التَّشـبِيبِ ذُو عَنَـتٍ ... فَبُلبُـلُ الـرَّوضِ مَطبُـوعٌ عَلَـى الـنَّغَمِ

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث، ويغلب فيها الشعر عند الوصف، وعند مناجاة الوجدان.

سميّك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة: البوصيري والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي ﷺ وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد البوصيري يقول:

إنْ آتِ ذَنْبًـا فَمَـا عَهْـدِي بِمُنْـتَقِضٍ ... مِـنَ النـبِيِّ وَلا حَبْلِـي بِمُنْصَـرِمِ

فــــإنَّ لِي ذِمَّـــــة مِنــــهُ بِتَســــمِيتِيَ ... مُحَمَّــدًا وَهُــوَ أوفى الخلــقِ بالــذِّمَمِ

ونجد شوقي يقول:

يا أَحمَــدَ الخَــيرِ لِي جَــاهٌ بِتَســمِيَتِي ... وَكَيــفَ لا يَتَســامى بِالرَسـولِ سَمِــي

ونجد البارودي يقول:

خَدَمتُــهُ بِمَــديحي فَاعتَليــتُ عَلــى ... هامِ السِّماكِ وَصارَ السَّعدُ مِن خَدَمِي

وَكَيـفَ أَرهَــبُ ضَـيمًا بَعـدَ خِدمَتِـهِ ... وَخـادِمُ السَّــادَةِ الأَجـوادِ لَم يُضَــمِ

أَم كَيـفَ يَخـذُلُنِي مِـن بَعـدِ تَسـمِيَتِي ... بِاسـمٍ لَــهُ فِي سَمــاءِ العَـرشِ مُحتَــرَمِ

والبوصيري هو صاحب الفكرة، وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون!

الفصل الثاني والعشرون

التخلص والاقتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاقتضاب، ويكثر التخلص في شعر المحدثين، كما يكثر الاقتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق: وأولى الشعر بأن يسمي تخلصًا ما تخلص فيه الشاعر من معنى، ثم رجع إلى ما كان فيه، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر:

وَكَفْكفْـــتُ مِـــنّي عَبْـــرَةً، فرَدَدتُهَـــا إلَى النَّحــرِ مِنهَــا مُســتَهِلٌ ودَامِــعُ

عَلَى حِينَ عَاتبتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبا وقلـتُ: أَلَمَّـا أصـحُ والشَّـيبُ وَازعُ؟

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال:

ولكـــنَّ هَمـــا دُونَ ذلِـــكَ شَـــاغلٌ مَكـان الشَّـغَافِ تَبتّغِيـهِ الأصَـابعُ [(1)]

وعِيـــدُ أَبِي قَـــابوسَ في غَـــيرِ كُنهِـــهِ أتَانِي ودُونِي رَاكِـــسٌ فالضَّـــواجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك، فقال:

فبـــتُّ كَـــأنِّي سَـــاوَرَتني ضَـــئِيلة مِـن الـرُّقْشِ في أنيابِهـا السُّـمُّ نَاقِـعُ

يُسَـهَّدُ في لَيـلِ التَّمـامِ سَـلِيمُهَا [(2)] تُطلّقُـــهُ طَـــورًا وطَـــورًا تُراجِـــعُ

فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه، فقال:

أتاني – أبيتَ اللَّعنَ [(3)] – أنَّكَ لُمتَني وتِلـكَ الـتِي تَسـتكّ مِنهـا المَسَـامعُ

---

(١) الشغاف: هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب.

(٢) السليم هو الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلًا بسلامته. كما قيل في الصحراء مضارة.

(٣) تحية جاهلية عاشت حينًا ثم ماتت، وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك، ولو خاطبت بها اليوم واحدًا من ملوك عصرك لاتهموك بقلة الذوق.

ثم اطرد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة ...

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع إلى المدح، كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي فيه منقطعًا، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

ظَلَمتك ظَالِمَة البَرِيء ظَلُوم ... والظُّلم مِن ذِي قُدرَةٍ مّذمُوم

زَعَمَت هَوَاك عَفَا الغَدَاة كَمَا عَفَت ... مِنْهَا طُلُولٌ باللِّوَى ورُسُوم

لا والذِي هُو عالِمٌ أنَّ النوَى ... أجلٌ وأنَّ أبا الحُسيْن كريمُ

ما زُلْتُ عَن سَنَن الوِدَاد ولا غَدَت ... نَفسِي عَلَى إِلفٍ سِواك تَحوم

ثم قال ذلك:

لِمُحَمَّد بْن الهيْثَم بْن شَبَابَةٍ ... مَجدٌ إلى جَنْب السَّمَاك مُقِيم

ويسمى هذا النوع: الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله:

دع ذا، وعد عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بإنَّ المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلًا بما قبله، ولا منفصلًا بقوله: (دع ذا)، و(عَدّ عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرًا وانقطاعًا، وكان البحتري كثيرًا ما يأتي به نحو قوله:

لولا الرجاءُ لمتُ من ألمِ الهوى ... لكِنَّ قلبي بالرجاءِ موكلُ

إن الرَّعيَّة لَم تَزَل في سِيرَةٍ ... عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا المُتَوَكِّل

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاورة العذول:

إني اُتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ في عَذَلٍ ... والشَّيْبُ أَبْعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَم

فإنَّ أمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ ... مِن جَهلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيبِ والهَرمِ
ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ... ضَيفٍ أَلَمَّ بِرَأسِي غَير مُحتَشِمِ
لو كُنت أعلم أنِّي مَا أُوَقِّرُه ... كَتَمت سِرًّا بَدَا لِي مِنه بِالكَتَمِ
مَن لي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِن غَوَايتِهَا ... كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيلِ بِاللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا ... إنَّ الطعامَ يُقَوِّي شهوة النهِمِ
والنفسُ كالطِّفلِ إن تُهمِلهُ شَبَّ عَلى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فاصرفْ هَوَاهَا وحَاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصمِ أوْ يَصِمِ
وَراعِهَا وهِيَ في الأعمَالِ سَائِمة ... وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلَا تُسِمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّة لِلْمَرءِ قاتِلَة ... مِن حيثُ لم يَدرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَة شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأتْ ... مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَة النَّدَمِ
وخَالفِ النَّفسَ والشَّيطانَ واعصِهما ... وَإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصحَ فَاتَّهِمِ
وَلا تُطِعْ مِنهُمَا خَصْمًا وَلا حَكمَا ... فأنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَالحَكَمِ
أسْتَغْفِرُ الله مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ ... لقد نَسبتُ بِه نسْلًا لِذِي عُقُمِ
أمَرتُكَ الخَيْرَ لكِنْ مَا ائتمَرتُ بِهِ ... ومَا استقمتُ فمَا قولِي لكَ استقِمِ
ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ المَوْتِ نافِلة ... ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ
ظَلَمْتُ سُنَّة مَنْ أحيَا الظَّلامَ إلَى ... أنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذ لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فإنا نغفر له هذه الإطالة؛ لأنها في غرض من أغراضه الأساسية، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس، وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده، فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته، فيقول:

كيـــفَ تَرقَـــى رُقِيَّـــكَ الأَنْبيَـــاءُ يا سَمَـــاءً مـــا طَاوَلتْهـــا سَمَـــاءُ

لمْ يسَـــاووك في عُـــلاك وقـــد حَـــا لَ سَـــنًا مِنـــك دُونَهُـــم وسَـــناءُ

إنَّمَـــا مَثَّلُـــوا صِـــفاتِك لِلنَّـــا س كمَـــا مَثَّـــلَ النُّجـــومَ المَـــاءُ

وكأنما جاراه شوقي في افتتاح همزيته فقال:

وُلِـــدَ الهُـــدى فالكائِنـــاتُ ضِـــيَاءُ وفَـــمُ الزَّمَـــانِ تبَسُّـــمٌ وثنـــاءُ

الـــرُّوحُ والمَـــلأُ المَلائِـــكُ حَولَـــهُ للـــدِّينِ والـــدُّنْيا بِـــه بُشَـــراءُ

والعَـــرْشُ يَزهـــو والحَظِـــيرَةُ تزدَهِـــي والمُنتهـــى والسِّـــدرَةُ العَصْـــمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري؟ إن الفرق لبعيد! وإن كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء، في حق الأنبياء.

وأعود فأذكر أني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس:

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ فَـــرُبَّ مَخْمَصَـــة شَـــرٌّ مِـــنَ الـــتُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة: فإن النفس يضر بها الزهد، كما يطغيها الترف، كالجسم ترديه المسغبة، كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله:

أَمَرتُـكَ الخَيْـرَ لكِـنْ مَـا ائتمَـرتُ بِـهِ ومَـا اسـتقمتُ فمَـا قـولِي لـكَ اسـتقِمِ

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه، وخلوص دعوته من شوائب الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضًا حسن التخلص إذ قال:

لَيتَ القَطا حِينَ سارَت غُدوَةً حَمَلَت عَـــنّي رَسَـــائِلَ أَشـــواقي إلى إِضَـــمِ

مَــرَّت عَلَينــا خِمَاصًــا وَهــيَ قارِبَــةٌ مَــرَّ العَواصِــفِ لا تَلــوي عَلــى إرَمِ
لا تُــدرِكُ العَــينُ مِنهــا حــينَ تَلمَحُهــا إلا مِثــالًا كَلَمْــحِ الــبَرقِ في الظُّلَــمِ
كَأَنَّهَـــا أَحـــرُفٌ بَرقِيَّـــةٌ نَبَضَـــت بِالسِّلكِ فَانتَشَرَت فِي السَّهل وَالعَلَمِ
لا شــيء يســبقها إلا إذا اعتقلــت بنــانتي في مــديح المصــطفى قلمــي

وهذا تخلص مستملح مقبول، ومضيّ الشاعر في وصف القطاة إيثارٌ للأسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين، ومن سايرهم من المحدثين، وبيان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفًا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعًا من الاستقلال، وتكون لهذا الوصف قيمة أيَ قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة. ومن أمثلة قول أبي صعترة البولاني:

فمَـا نُطفَـةٌ مـن حَـبِّ مُـزنٍ تَقَاذَفَـت بِـه جَنبَتَـا الجُـودِيّ واللَّيـل دَامِـس [1]
فلمَّـــا أقرَّتـــهُ اللِّصَـــاب تنفسَّـــتْ شمَـالٌ بِأعلـى مَائِـهِ فهـو فـارِسُ [2]
بأطيَـبَ مِـن فِيهـا ومـا ذُقـتُ طعمَـهُ ولكنَّـــنِي فِيمـــا تـــرَى العَـــينُ فـــارِسُ

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضًا خاصًّا هو الإشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهّي المذاق، ويماثل هذا قول عاتكة المرية، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها:

ومَـــا طَعْـــمُ مَـــاءٍ أَيُّ مَـــا تَقُولُـــهُ تَحَـــدَّرَ مِـــنْ غُـــرٍّ طُـــوَالِ الـــذَّوَائِبِ
بِمُنْعَـــرِجٍ مِـــنْ بَطْـــنِ وَادٍ تقَابَلَـــتْ عَلَيْـهِ رِيَاحُ الصَّـيْفِ مِـنْ كُـلِّ جَانِـبِ
نَفَـتْ جَرْيَـةُ الْمَـاءِ الْقَـذَى عَـنْ مُتُونِـهِ فَمَـــا إِنْ بِـــهِ عَيْـــبٌ تَـــرَاهُ لِشَـــارِبِ

---

(١) الجودي: الجبل.

(٢) اللصاب: الشعب الصغير في الجبل.

بأَطْيَبَ مِمَّن يَقْصُرُ الطَّرَفُ دُونَهُ ... تُقَى اللهِ وَاسْتِحْيَاءُ بَعض الْعَوَاقِبِ

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه، وحاجة الأعراب إليه غرضًا خاصًّا هو الإشادة بجمال الحياء وطيب العفاف.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد:

مــا وَجــد أعرَابيــةٍ قَــذَفت بهــا ... صُرُوف النَّوى مِن حَيث لم تك ظَنَّت

تَمَنَّــت أحَاليــبَ الرِّعــاء وَخيمَــةً ... بِنْجــدٍ فلــم يُقــدر لهــا مــا تمَنَّــت

إذا ذكــرَت مَــاء العِضــاه وَطيبِــه ... وبَــرد الحصــى مــن نحــوِ نجــدٍ أرَنَّــت

بِأوجَــدَ مِــن وَجــدٍ بِــريَّا وَجَدتُــه ... غَــدَاة غَــدَونا غُــدوَةً وإطمَأنَّــت

فــإن يَــك هــذا عَهْــد رَيَّا وأهلهَــا ... فَهــذا الَّــذي كُنّــا ظَنَنَّــا وظَنَّــت

وأروع من هذا قول الأبيوردي [1] :

وما أُمُّ ساجي الطَّرْفِ مالَ بِهِ الكَرى ... علــى عَــذَباتِ الجــزعِ تَحسَــبُهُ قُلبــا

تُراعــي بإحــدى مُقْلَتَيْهــا كِناسَــها ... وَتَرْمــي بِأُخْــرى نَحْــوَهُ نَظَــرًا غَــرْبا

فَــلاحَ لَهــا مِــنْ جانِــبِ الرَّمْــلِ مَرْتَــعٌ ... كَــأَنَّ الرَّبيــعَ الطَّلْــقَ ألبَسَــهُ عَصْــبا

فَمالَــت إليــهِ، وَالحَــريصُ إذا عَــدَت ... بــهِ سَــورَةُ الأطمــاعُ لم يَحْمَــد العُقْــبى

وَآنَسَــها المَرْعــى الخصــيب وَصــادَفَتْ ... مــدى العــينِ في أرجائــه بلــدًا خصــبا

فَلَمّــا قَضَــتْ مِنْــهُ اللُّبانَــة راجَعَــتْ ... طَلاهــا فَأَلْفَتْــهُ قَضــى بَعْــدَها نَحْبــا

أُتــيحَ لَهــا عــاري السَّــواعِدِ لَمْ يَــزَلْ ... يَخُــوضُ إِلى أَوْطــارِهِ مَطْلَبًــا صَــعْبا

فولَّــتْ علــى ذعــرٍ وبالــنّفسِ مــا بهــا ... من الكربِ لا لقِّيت في حادثٍ كربا

---

(١) تجد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب «مدامع العشاق» عند الكلام عن «الطبيعة في أنفس الشعراء».

بِأَوجَـدَ مِـنّي يَـومَ عَجَّـتْ رِكابُهـا   لِبَـيْنٍ فَلَـمْ تَتْـرُكْ لِـذي صَـبْوَة لُبّـا

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يعتال رشأها الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزالة المروّعة الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس، وأملك للقلب، وأروع للوجدان.

ولننتقل بعد ذلك إلى شوقي، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات، وما تُجن من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق، وكذلك يقول:

يا نَفـسُ دُنيـاكِ تُخفـى كُـلَّ مُبكِيَـةٍ   وَإِن بَـدا لَـكِ مِنهـا حُسـنُ مُبتَسَـمِ

فُضّـي بِتَقـواكِ فاهًـا كُلَّمـا ضَـحِكَتْ   كَمـا يَفُـضُّ أَذى الرَقشـاءِ بِالثَـرَمِ

مَخطوبَـةٌ مُنـذُ كـانَ النـاسُ خاطِبَـةٌ   مِـن أَوَّلِ الـدَهرِ لَم تُرمِـل وَلَم تَـئِمِ

يَفـنى الزَمـانُ وَيَبقـى مِـن إِسـاءَتِها   جُـرحٌ بِآدَمَ يَبكـي مِنـهُ في الأَدَمِ

لا تَحفَلـي بِجَناهـا أَو جِنايَتِهـا   المَـوتُ بِالزَهـرِ مِثـلُ المَـوتِ بِالفَحَـمِ

كَـم نائِـمٍ لا يَراهـا وَهـيَ ساهِرَةٌ   لَـولا الأَمـانِيُّ وَالأَحـلامُ لَم يَـنَمِ

طَـورًا تَمُـدُّكَ في نُعمـى وَعافِيَـةٍ   وَتارَةً في قَـرارِ البُـؤسِ وَالوَصَـمِ

كَـم ضَـلَّلَتكَ وَمَـن تُحجَـب بَصيرَتُهُ   إِن يَلـقَ صَـابًا يَـرِد أَو عَلقَمًـا يَسُـمُ

يا وَيلَتـاهُ لِنَفسـي راعَهـا وَدَهـا   مُسـوَدَّةُ الصُـحفِ في مُبيَضَّـةِ اللَمَـمِ

رَكَضـتُها في مَريـعِ المَعصِـياتِ وَمـا   أَخَـذتُ مِـن حِميَـةِ الطاعـاتِ لِلتُخَمِ

هامَـت عَلـى أَثَـرِ اللَـذّاتِ تَطلُبُهـا   وَالـنَفسُ إِن يَـدعُها داعـي الصِبا تَهِـمِ

صَـلاحُ أَمـرِكَ لِلأَخـلاقِ مَرجِعُـهُ   فَقَـوِّمِ الـنَفسَ بِالأَخـلاقِ تَسـتَقِمِ

وَالـنَفسُ مِـن خَيرِهـا في خَـيرِ عافِيَـةٍ   وَالـنَفسُ مِـن شَـرِّها في مَرتَـعٍ وَخِـمِ

تَطغـى إذا مُكِّنَـت مِـن لَـذَّةٍ وَهَـوًى ... طَغيَ الجِيادِ إِذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ

إِن جَـلَّ ذَنـبي عَـنِ الغُفـرانِ لي أَمَـلٌ ... في اللهِ يَجعَلُـني في خَـيرِ مُعتَصِـمِ

أَلقـى رَجـائي إِذا عَـزَّ المُجـيرُ عَلـى ... مُفَـرِّجِ الكَـرَبِ في الـدارَينِ وَالغَمَـمِ

إِذا خَفَضـتُ جَنـاحَ الـذُلِّ أَسـأَلُهُ ... عِـزَّ الشَـفاعَةِ لَم أَسـأَل سِـوى أَمَـمِ

وَإِن تَقَـدَّمَ ذو تَقـوى بِصـالِحَةٍ ... قَـدَّمتُ بَـينَ يَدَيـهِ عَـبرَةَ النَـدَمِ

لَزِمـتُ بابَ أَمـيرِ الأَنبِيـاءِ وَمَـن ... يُمسِـك بِمِفتـاحِ بابِ اللهِ يَغتَـنِمِ

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وإن قول شوقي:

لا تَحفَلـي بِجَناهـا أَو جِنايَتِهـا ... المَـوتُ بِالزَهـرِ مِثـلُ المَـوتِ بِالفَحَـمِ

لأشرف معنى وأسمى خيالًا من قول البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَـرُبَّ مَخْمَصَـة شَـرٌّ مِـنَ الـتُّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصلِّ ولم يَصُم سوى الفرض، وأنه يَاسى على أن لم يتزود نافلة قبل الموت، وأنه لذلك ظلم سُنة من أحيا الظلام حتى تورمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة؛ ليذرف ما ذرف شوقي من الدمع.

وأين شوقي من البوصيري؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط، وكان يحسن أن يقول:

رمضـان وَلَّى هَاتِهَـا يا سَـاقِي ... مُشـتَاقَةً تَسـعَى إلى مُشـتَاقِ

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحرة، ويرمي بذلك الدم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب، وانظر كيف يقول:

إِن جَـلَّ ذَنـبي عَـنِ الغُفـرانِ لي أَمَـلٌ ... في اللهِ يَجعَلُـني في خَـيرِ مُعتَصِـمِ

وكان شوقي أوفر الناس إحساسًا بخطر ذنبه، وكرم ربه، حين قال:

وَإن تَقَـــدَّمَ ذو تَقـــوى بِصـــالِحَةٍ قَـــدَّمتُ بَـــينَ يَدَيـــهِ عَـــبرَةَ النَـــدَمِ

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

الفصل الثالث والعشرون

المعجزات

لنا في المعجزات رأيٌ خاص، لا يسمح به ظرف الزمان؛ لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير فتنة نحن عنها أغنياء [١]، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري، وشوقي، والبارودي من معجزات النبي ﷺ ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات، إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأباها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء:

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئًا؛ وأن الأمر كله لله، وأن في القرآن هدىً وتبصرةً لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة العنكبوت:

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ *

---

(١) ومع ذلك سمح الزمن وأبدينا بعض الآراء بصراحة في كتاب «المدائح النبوية» حين حللنا بردة البوصيري، وحين نقدنا قصة المولد النبوي، وقد بدأ الناس يفهمون أن الإسلام في غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري:

آياتُ حــقٍّ مِــن الــرّحمَنِ مُحدَثــة   قَديمَــة صِــفَة المَوْصــوفِ بالقِــدَم
لم تقــترنْ بزمَــانٍ وَهــي تُخــبرُنا   عَــن المَعَــادِ وعَــنْ عَــادٍ وعَــنْ إرَمِ
دَامَــتْ لَــدَيْنا فَفاقَــتْ كُــلَّ مُعْجِــزَة   مِــنَ النَّبِيّــينَ إذْ جَــاءَتْ ولَمْ تَــدُمِ

وتبعه شوقي فقال:

جــاءَ النبيّــونَ بالآياتِ فَانصَــرَمَتْ   وَجِئتَنــا بحَكــيمٍ غَــيرِ مُنصَــرِمِ
آياتُــهُ كُلَّمــا طــالَ المَــدى جُــدُدٌ   يَــزينُهُنَّ جَــلالُ العِتــقِ وَالقِــدَمِ
يَكــادُ في لَفظَــةٍ مِنــهُ مُشَــرَّفَةٍ   يوصــيكَ بِالحَــقِّ وَالتَقــوى وَبِالــرَحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص، ويليه البوصيري، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل، وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار، وسعيها إلى الرسول، فقال البوصيري:

جــاءتْ لدَعْوَتِــهِ الأشــجارُ ســاجِدَة   تَمْشِــي إليــهِ عَلَــى سَــاقٍ بِــلا قَــدَمِ
كأنَّمَــا سَــطَرَتْ سَــطْرًا لِمَــا كَتَبَــتْ   فُرُوعهــا مِــن بَــدِيعِ الخَــطِّ بِالقَلَــمِ

وقال البارودي:

أَتِلــكَ أَمْ حِــينَ نادى سَــرْحَةً فَأَتَــت   إِلَيــهِ مَنشُــورَةَ الأَغصــانِ كَــالحُمَمِ
حَنَّــت عَلَيــهِ حُنُــوَّ الأُمِّ مِــن شَــفَقٍ   وَرَفرَفَت فَـوقَ ذاكَ الحُسـنِ مِـن رَخَـمِ
جاءَتـهُ طَوعًـا وَعـادَت حينَ قـالَ لَهـا: عُـودِي وَلـو خُلِّيَـتْ لِلشَّـوقِ لَم تَـرِمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام، فقال:

فَبَينَما هُوَ يَرعى البَهْمَ طافَ بِهِ ... شَخصانِ مِن مَلَكوتِ اللهِ ذي العِظَمِ
فَأَضجَعاهُ وَشَقّا صَدرَهُ بِيَدٍ ... رَفِيقَةٍ لَم يَبِت مِنها عَلى أَلَمِ
وَبَعدَ ما قَضَيا مِن قَلبِهِ وَطَرًا ... تَوَلَّيا غَسلَهُ بِالسَّلسَلِ الشَّبِمِ
ما عالجا قَلبَهُ إِلا لِيَخلُصَ مِن ... شَوبِ الهَوى وَيَعِي قُدسِيَّةَ الحِكَمِ
فَيا لَها نِعمَةً للهِ خَصَّ بِها ... حَبيبَهُ وَهوَ طِفلٌ غَيرُ مُحتَلِمِ

وشقُّ الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالسلسبيل ليس من المعجزات؛ لأن المعجزة تكون للإقناع، وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون للإقناع مجال، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه الأسطورة مرَّ الطيف، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال، فقد صوّر النبي فيها صورة رائعة، وتمثَّل فيها لطف الله به، وإحسانه إليه، وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ؛ لنرى كيف ابتدأ القَصَص في سيرة النبي ﷺ.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي ﷺ قال:

وكنت مُسترضَعًا في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم مُنتَبِذٌ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت بَرهرَهة من الذهب ملآن ثلجًا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق أصحابي هرابًا حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا: ما أَرَبُكُم من هذا الغلام؟ فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش، وهو مسُترضَع فينا، غلام يتيم ليس له أب فما يرد عليكم قتله، وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أيّنا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحيرون جوابًا انطلقوا مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، قال: فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعًا رفيقًا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مَسًّا ثم أخرج

أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه: تنَحَّ عنه، فنحّاه عني، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه، فصدّعَه ثم أخرج منه مُضغة سوداء فرمى بها، ثم أمَرَّ يده يمنةً منه، وكأنه يتناول شيئًا فإذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرًا، ثم قال الثالث: تَنَحَّ عنه، فنحّاه عني، فأمرّ يده على مفرق صدري إلى مُنْتَهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذي شقّ بطني: زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجَحتُهُم، ثم قال: زنه بمئة من أمّته فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم، ثم قال: دعه فوالله لو وزنته بأمته لرجحهم. قال: ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا: لا تُرع، فإنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرَّت به عيناك. قال: فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحي بحذافيرهم، فإذا ظئري أمام الحي تهتف بأعلى صوتها، وتقول: وا ضعيفاه! فانكبوا عليَّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عينيَّ – يعني الملائكة – وقالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض! ثم قالت ظئري: وا يتيماه!! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك! قال: فانكبوا عليَّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عينيَّ – يعني الملائكة – وقالوا: حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرَّت به عيناك! فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرتني أمي – وهي ظئري – قالت: لا أراك إلا حيًّا بعد! فجاءت حتى انكبت عليَّ، ثم ضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها قد ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة، وجعل القوم لا يرونهم، قال: فقال بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لممٌ، أو طائفٌ من الجن فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: يا هذا ما بي سيئ مما تذكرون، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح، ليست لي فَلتة، فقال أبي – وهو زوج ظئري – ألا ترون كلامه كلام فصيح؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فلما انصرفوا بي قصّوا عليه

قصتي، فقال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه هو أعلم بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه القصة، وأمري من أوله إلى آخره، فوثب إليّ وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه! فواللات والعُزَّى لئن تركتموه وأدرك لَيُبَدّلنَّ دينكم، وليسفِّهَن عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله! قال: فعمدت ظئري إليه فاتنزعتني من حجره، وقالت: لأنت أعته وأجن! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به، فاطلب لنفسك من يقتلك، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام! ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت مُفَزَّعًا مما فُعِلَ بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشّراك [1] .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارئ من نقده وتمييزه، ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فتريبنا فيه عبارته، إذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير، ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث، فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوعٌ، وذلك قوله: «روى شداد بن أوس قال: بينا نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه، يتوكأ على عصاه، فمثل بين يدي رسول الله ﷺ ونسبه إلى جده فقال: يابن عبد المطلب إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله ﷺ إلى الناس، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء، ألا وإنك تفوهت بعظيم، إنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان، فما لك والنبوة؟ ولكن لكل حق حقيقة، فأنبئني بحقيقة قولك، وبدوِّ شأنك، قال: فأعجب النبي بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر، إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيمًا ومجلسًا كريمًا إلخ».

فإن القارئ يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة: «إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله ﷺ إلى الناس»، فإن كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن «يزعم» أنه

---

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء.

رسول. وعبارة

«فأنبئني بحقيقة قولك وبدوِّ شأنك»، عبارة مولدة، ولا ريب في ذلك، وما أظن النبي يقول: «إن لهذا الحديث الذي سأتني عنه نبأ عظيمًا، ومجلسًا كريمًا»، فإن هذا أيضا من تعابير المولدين، ولكل عصر أسلوب.

أكتفي بهذا في نقد هذه الأقصوصة، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل التجريح، وأُكِل إلى أستاذنا الدكتور طه حسين تأريخ هذا النوع من البيان، وأنتقل إلى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول، كانصداع إيوان كسرى، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة، وما إلى ذلك من خوارق العادات، قال البوصيري في البردة:

أبان مولده عن طيب عنصره	يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهمو	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف	عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	ورد واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل	حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كلم
عَمُوا وصمُّوا فإعلانُ البشائرِ لمْ	تُسْمَعْ وَبارِقَةُ الإنْذارِ لَمْ تُشَمِ
مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ الأقْوامَ كاهِنُهُمْ	بأَنَّ دينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ
وبعدَ ما عاينوا في الأفقِ من شُهُبٍ	منقضة وفقَ ما في الأرضِ من صنمِ
حتى غدا عن طريقِ الحقِ مُنهزِمٌ	من الشياطينِ يقفو إثرَ منهزمِ

وقال في الهمزية:

وَتَــدَاعَى إِيــوَانُ كِسْــرَى وَلَــولا ... آيَــةٌ مِنْــكَ مَــا تَــدَاعَى الْبِنَــاءُ

وَغَــدَا كُـــلُّ بَيْـــتِ نَارٍ وَفِيـــهِ ... كُرْبَـــةٌ مِـــنْ خُمُودِهَـــا وَبَـــلاَءُ

وَعُيُــونٌ لِلْفُــرْسِ غَــارَتْ فَهَــلْ كَــا ... نَ لِنِـــــيرَانِهِمْ بِهَـــا إِطْفَــــاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة:

وَخَــلِّ كِســرى وَإِيــوانًا يَــدِلُّ بِــهِ ... هَــوى عَلــى أَثَــرِ النــيرانِ وَالأَيُمِ

ويقول في الهمزية:

ذُعِـرَت عُـرُوشُ الظَّـالِمينَ فَزُلزِلَـت ... وَعَلَـت عَلـى تيجـانِهِم أَصـداءُ

وَالنَّــارُ خَاوِيَــةُ الجَوانِــبِ حَــولَهُمْ ... خَمَــدَت ذَوائِبُهــا وَغَــاضَ المــاءُ

وَالآيُ تَـــترى وَالخَـــوارِقُ جَمَّـــةٌ ... جِبرِيـــلُ رَوّاحٌ بِهـــا غَـــدّاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيطة، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية.

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظرًا من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفُرس، ونضوب بحيرة ساوة، وانقضاض الشهب على الأصنام: كل هذه الحوادث فيها نظر، وكلها في حاجة إلى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعن البارودي بوصف القرآن كما عُنِي به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعــنِي ووَصــفِي آيَاتٍ لَــه ظَهَــرَتْ ظهُــورَ نَارِ القِــرى لــيلًا عَلــى علَــمِ
فَالــدُّرُّ يَــزدَادُ حُســنًا وهــو مُنــتَظِمٌ ولَــيسَ يَــنقُصُ قَــدرًا غَــير مُنــتَظمِ
فَمَــا تَطَــاوَلُ آمَــالُ المَــدِيحِ إلى ما فِيــهِ مِــنْ كَــرَمِ الأَخْـلاَقِ والشِّــيَمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة. وعبارة «دعني ووصفي آيات له ظهرت» عبارة عاميّة. وقوله:

فَالدُّرُّ يَزدَادُ حُسنًا وهو مُنتَظِمٌ ولَــيسَ يَــنقُصُ قَــدرًا غَــير مُنــتَظمِ

غير واضح المدلول؛ لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن؛ لأنه لا يُهمُّ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارةٌ ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل ... أما قوله:

فَمَــا تَطَــاوَلُ آمَــالُ المَــدِيحِ إلى ما فِيــهِ مِــنْ كَــرَمِ الأَخْـلاَقِ والشِّــيَمِ

فهو بيت يُمدح به شخص، ولا يُقَرَّظ به كتاب، وقد كان الشاعر يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، ولكنه لو يوفّق إلى حسن الأداء...

وقوله بعد ذلك:

آياتُ حــقٍّ مِــن الــرّحمَنِ مُحدَثــة قَدِيمَــة صِــفَة المَوْصــوفِ بِالقِــدَمِ

لم تقـــترنْ بِزمَـــانٍ وَهـــي تُخْـــبرُنَا   عَـــن المَعَـــادِ وعَـــنْ عَـــادٍ وعَـــنْ إرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه، وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى؛ لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم، ليس حجة إلا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار، بَعدَ أمن اللبس والتزوير ...

أما قوله:

دَامَــتْ لَــدَيْنا فَفاقَــتْ كُــلَّ مُعْجِــزَةٍ   مِــنَ النَّبِيِّـــينَ إذْ جَــاءَتْ ولَمْ تَـــدُمِ

فهو بيت القصيد، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية، وكان هو المرجع حين يَجِدُّ الخلاف، وهو أيضًا المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، أما نبع الماء من بين يدي الرسول، وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له، وما إلى ذلك من المعجزات، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة، وهي مخشيّة الضرّ، قبل أن تكون مَرجُوَّة النفع، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله:

مـا حُورِبَـتْ قَـطُّ إلاَّ عـادَ مِـنْ حَـرَبٍ   أَعْـدَى الأعـادي إليهـا مُلقِـيَ السَّـلَمِ

رَدَّتْ بلاغَتُهـــا دَعْـــوى مُعارِضِـــها   ردَّ الغيـــور يـــدَ الجـــاني عـــن الحُـــرَمِ

كلمة صدق، ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدةٍ ونزاهةٍ لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتابٌ خطرُ رهيب، يحمل عدوه على الإيمان به، والخشوع لديه. ولو صَحَّت – لا صحّت – أراجيف المُلحدين من أن القرآن من إنشاء مُحَمَّد بن عبد الله لكان مُحَمَّد هذا أعظم رجل شهده هذا الوجود.

وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز:

لهَــا مَعــانٍ كَمَــوْجِ البَحْــر فِي مَــدَدٍ   وفَــوْقَ جَــوْهَرِهِ فِي الحُسْــنِ والقِــيَمِ

فمـــا تُعَـــدُّ وَلا تُحْصَـــى عَجَائِبُهـــا   ولا تُسَـــامُ عَلَـــى الإكثَـــارِ بِالسَّـــأَمِ

قَـــرَّتْ بِهَـــا عَـــينُ قَارِيهـــا فَقُلْـــت لَـــه: لَقَـــد ظَفِـــرْتَ بِحَبْـــلِ الله فَاعْتَصِـــمِ

إنْ تَتْلُهـــا خِيفَـــة مِـــنْ حَـــرّ نارِ لَظَـــى   أطْفَـــأْتَ نارَ لَظَـــى مِـــنْ وِرْدِهـــا الشَـــبمِ

لا تعْجَـــبَنْ لِحَسُـــودٍ راحَ يُنكِرُهَـــا   تَجَـــاهُلًا وهْـــوَ عَـــينُ الحَـــاذِقِ الفَهِـــمِ

قد تُنْكِرُ العيْنُ ضوْءِ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ   ويُنْكِـــرُ الفَـــمُّ طَعْـــمَ المـــاءِ مِـــنْ سَـــقَم

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال، وهو غاية في تقريع المكابرين ...

أما شوقي فقد قال:

جـــاءَ النبيّـــونَ بِالآياتِ فَانصَـــرَمَتْ   وَجِئتَنَـــا بِحَكِـــيمٍ غَـــيرِ مُنصَـــرِمِ

آياتُـــهُ كُلَّمـــا طـــالَ المَـــدى جُـــدُدٌ   يَـــزِينُهُنَّ جَـــلالُ العِتـــقِ وَالقِـــدَمِ

يَكـــادُ فِي لَفظَـــةٍ مِنـــهُ مُشَـــرَّفَةٍ   يوصـــيكَ بِالحَـــقِّ وَالتَقـــوى وَبِالـــرَحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود ألا يكتفي شوقي في وصف القرآن بهذه الأبيات ...، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال:

يا أَفصَـــحَ النـــاطِقينَ الضـــادَ قاطِبَـــةً   حَـــديثُكَ الشَـــهدُ عِنـــدَ الـــذائِقِ الفَهِـــمِ

حَلَّيـــتَ مِـــن عَطَـــلٍ جِيـــدَ البَيـــانِ بِـــهِ   في كُـــلِّ مُنتَثِـــرٍ في حُســـنِ مُنـــتَظِمِ

بِكُـــلِّ قَـــولٍ كَـــريمٍ أَنـــتَ قائِلُـــهُ   تُحيِـــي القُلـــوبَ وَتُحيِـــي مَيِّـــتَ الهِمَـــمِ

وقول شوقي:

آياتُـــهُ كُلَّمـــا طـــالَ المَـــدى جُـــدُدٌ   يَـــزِينُهُنَّ جَـــلالُ العِتـــقِ وَالقِـــدَمِ

أروع من قول البوصيري:

فمـــا تُعَـــدُّ وَلا تُحْصَـــى عَجَائِبُهـــا   ولا تُسَـــامُ عَلَـــى الإكثَـــارِ بِالسَّـــأَمِ

وقول البوصيري:

إنْ تَتْلُهـــا خِيفَـــة مِـــنْ حَـــرّ نارِ لَظَـــى   أطْفَـــأْتَ نارَ لَظَـــى مِـــنْ وِرْدِهـــا الشَّـــبمِ

فيه ضعف؛ لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله، وهو تهذيب النفوس، وتثقيف العقول، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذه وردًا من أوراد الصباح أو المساء، كما فعل المتأخرون.

وقوله:

حَلَّيتَ مِن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِهِ　　　في كُلِّ مُنتَثِرٍ في حُسنِ مُنتَظِمِ

غير جيد المعنى، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس «أما القرآن فهو زينة البيان، وقلائد العقيان»، وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من الشمول، وجودة الوصف لا تتم إلا بتجديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عُنِيَ العرب كثيرًا بوصف الحرب، فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة، والتمدح بآثار المجاهدين، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عدلٌ على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمنًا غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعًا قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق، وفعل مثل ذلك في الفكاهات والمُلح والنسيب، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمديح: وهي الفنون التي تترجم النفس العربية، وتكشف عما فيها من مطويّ النوازع، ومكنون الميول، وكذلك مُهّدت السبيل الشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك، وما اقتحم من الحروب، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض، وهو يتكلم عن أخبار القتال، فوصفُه للحرب وصفٌ فَضفاضٌ يصلح لبوسًا لكل موصوف. وانظر كيف يقول:

راعتْ قلوبَ العدا أنباءُ بعثتهِ　　　كَنَبْأَة أَجْفَلَتْ غَفْلًا مِنَ الغَنَمِ

ما زالَ يلقاهمُ في كلِّ معتركٍ　　　حتى حَكَوْا بالقَنا لَحْمًا على وضَمِ

وَدُّوا الفِرَار فكَادُوا يَغبِطونَ بهِ　　　أشلَاءَ شَالَتْ مَع العِقبَانِ والرَّخمِ

تَمضِــي اللَّيــالِي ولا يَــدرونَ عــدَّتَهَا ... مـا لَمْ تَكُـنْ مِـنْ لَيَـالِي الأَشْـهُرِ الحُـرُمِ
كَأنَّمَـا الـدِّينُ ضَـيْفٌ حَـلَّ سَـاحَتَهُمْ ... بِكُـلِّ قَـرْمٍ إلَى لَحْـمِ العِـدَا قَـرِمِ
يَجُـرُّ بَحْـرَ خَمِــيسٍ فَـوقَ سَـابِحَةٍ ... يَرمِـي بِمَـوجٍ مِـن الأبطَـالِ مُلْـتَطِمِ
مِــن كُـلِّ مُنتَـدِبٍ لله مُحتَسِـبٍ ... يَسْـطو بِمُسْتَأْصِـلٍ لِلْكُفْـرِ مُصـطَلِمِ
حَتَّى غَـدَتْ مِلَّـة الإسـلاَم وهْـيَ بِهِـمْ ... مِـنْ بَعْـدِ غُرْبَتِهـا مَوْصُـولَة الـرَّحِمِ

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من أصحاب الرسول:

هُـم الجِبـالُ فَسَـلْ عـنهمْ مُصادِمَهُمْ ... مـاذا رأى مِـنْهُمُ في كـلِّ مُصـطَدَم
وَسَـل حُنَيْنًـا وَسَـلْ بَـدرًا وَسَـلْ أُحُـدًا ... فُصُـولَ حَتْـفٍ لهُـمْ أدْهَـى مِـنَ الـوَخَم
المُصـدِرِي البِيضَ حُمرًا بعدَ ما وَرَدَت ... مِـن العِـدَا كُـلَّ مُسْـوَّدٍ مِـن اللِّمَـمِ
وَالكَـاتِبِينَ بِسُـمْرِ الخَـطِّ مَـا تَرَكَـتْ ... أقلاَمُهُـمْ حَـرفَ جِسـمٍ غَـيرَ مُـنعَجِمِ
شَـاكِي السِّـلَاحِ لَهُـم سِـيمَا تُمَيِّـزُهُمْ ... والـوَردُ يَمتَـازُ بِالسِّـيما مِـن السَّـلمِ
تُهْـدِى إلَيـكَ رِياحُ النَّصـرِ نَشـرَهمُ ... فَتَحسبُ الزَّهرَ في الأكمَامِ كُلَّ كَمي

وقد يستضعف قوله:

كَـأَنَّهُمْ فِي ظُهُـورِ الخيـلِ نَبـتُ رُبًا ... مِـنْ شِـدَّة الحَـزْمِ لاَ مِـنْ شِـدَّة الحُـزُمِ
طَارَت قُلُوبُ العِدَا مِن بأسِهِمِ فَرَقًا ... فمــا تُفَــرِّقُ بــين الـبَهم والـبُهمِ

أما البارودي – جعل الله له لسان صدقٍ في الآخرين – فقد وصف الحرب وصفًا حيًّا صارخًا يبعث ميت العزم، ويثير مدفون الصيّال، وما ظنك بجندي سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين همُوا ببناء الصروح الشوامخ؛ ليبلغوا أسباب السماوات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلال أجمل من الهدى، وغي أهدى من الرشاد!

ولننظر كيف يقول:

قـامَ النَّـبِيُّ لِنَصـرِ الحَـقِّ مُعتَزِمـا ... بِجَحفَـلٍ لِجُمُـوعِ الشِّـركِ مُحْـتَرِمِ

تَبــدُو بِـهِ البِـيضُ وَالقَسـطالُ مُنتَشِـرٌ   كَالشُّهبِ في اللَّيلِ أَو كَالنّارِ فِي الفَحَمِ
لَمـعُ السُّـيُوفِ وَتَصـهالُ الخُيـولِ بِـهِ   كَـالبَرقِ وَالرَّعـدِ في مُغـدَودِقٍ هَـزِمِ
عَرمــرَمٌ يَنسِــفُ الأَرضَ الفَضــاءَ إِذا   سَـرى بِهـا وَيَـدُكُّ الهَضـبَ مِـن خِـيَمِ
فِيـــهِ الكُمـــاةُ الَّـــتي ذَلَّـــت لِعِزَّتِهـــا   مَعـــاطِسٌ لَم تُـــذَلَّل قَبـــلُ بِالخُطُـــمِ
مِـــن كُـــلِّ مُعتَـــزِمٍ بِالصَّـــبرِ مُحتَـــزِمٍ   لِلقِـــرنِ مُلتَـــزِمٍ فِي البَـــأسِ مُهتَـــزِمِ
طالَـت بِهِـم هِمَـمٌ نالُـوا السِّـماكَ بِهـا   عَـن قُـدرَةٍ وَعُلُـوُّ الـنَّفسِ بِالهِمَـمِ
بِـــيضٌ أَســـاوِرَةٌ غُلـــبٌ قَســـاوِرَةٌ   شُكسٌ لَدى الحَربِ مِطعامونَ فِي الأُزُمِ
طابَـت نُفُوسُـهُمُ بِالمَـوتِ إِذ عَلِمُـوا   أَنَّ الحَيـاةَ الَّـتي يَبغُـونَ فِي العَـدَمِ
ساسُــوا الجِيــادَ فَظَلَّــت فِي أَعِنَّتِهــا   طَـــوعَ البَنانَـــةِ فِي كَـــرٍّ وَمُقـــتَحَمِ
تَكــادُ تَفقَــهُ لَحــنَ القَــولِ مِــن أَدَبٍ   وَتَســبِقُ الــوَحيَ وَالإِيمــاءَ مِــن فَهَــمِ
كَـــأَنَّ أَذنابَهـــا فِي الكَـــرِّ أَلوِيَـــةٌ   عَلَــى سَــفِينٍ لِأَمــرِ الــرِّيحِ مُرتَسِــمِ
مِــن كُــلِّ مُنجَــرِدٍ يَهــوِي بِصــاحِبِهِ   بَـينَ العَجـاجِ هـوِيَّ الأَجـدَلِ اللَّحِـمِ
وَالبِيضُ تَرجُـفُ فِي الأَغمـادِ مِن ظَمَـأٍ   وَالسُّـمرُ تَرعـدُ فِي الأَيمـانِ مِـن قَـرَمِ
مِـــن كُـــلِّ مُطَّـــرِدٍ لَـــولا عَلائِقُـــهُ   لَسـابَقَ المَـوتَ نَحـوَ القِـرنِ مِـن ضَـرَمِ
كَأَنَّـــــهُ أَرقَـــــمٌ فِي رَأسِـــــهِ حُمَـــــةٌ   يَســتَلُّ كَيــدَ الأَعــادي بِابنَــةِ الــرَّقَمِ
فَلَــم يَــزَل ســائِرًا حَــتّى أَنافَ عَلــى   أَرباضِ مَكّـــةَ بِالفُرســـانِ وَالـــبُهَمِ
وَلَفَّهـــم بِخَمِـــيسٍ لَـــو يَشُـــدُّ عَلـــى   أَركـانِ رَضـوى لَأَضـحى مائِـلَ الـدِّعَمِ
فَـأَقبَلوا يَسـأَلُونَ الصَّـفحَ حِـينَ رَأَوا   أَنَّ اللَّجاجَـــةَ مَـــدعاةٌ إِلى النَّـــدَمِ
رِيعُــوا فَــذَلُّوا وَلَــو طاشُــوا لَــوَقَّرَهُم   ضَــربٌ يُفَــرِّقُ مِــنهُم مَجمَــعَ اللِّمَــمِ

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين ترى البارودي يَفتَنّ في تصوير الحرب، وهو يتحدث عن الغزوات غَزوةً، غَزوةً وانظر كيف يقول مثلًا في يوم بدر:

يَــومٌ تَبَسَّــمَ فيــهِ الــدِّينُ وَانهَمَلَــت ... عَلَى الضَّلالِ عُيونُ الشِّركِ بِالسَّجَمِ
أَبلَــى عَلِــيٌّ بِــهِ خَــيرَ الــبَلاءِ بِمــا ... حَباهُ ذُو العَرشِ مِن بَأسٍ وَمِن هِمَمِ
وَجــالَ حَمــزَةُ بِالصَّمصــامِ يَكســؤُهُم ... كَسًّــا يُفَــرِّقُ مِــنهُم كُــلَّ مُــزدَحَمِ
وَغــادَرَ الصَّــحبُ وَالأَنصــارُ جَمعَهُــمُ ... وَلَــيسَ فيــهِ كَمِــيٌّ غَــيرُ مَنهَــزِمِ
تَقَسَّــمَتهُم يَــدُ الهَيجــاءِ عادِلَــةً ... فَالهــامُ لِلبِــيض وَالأَبــدانُ لِلــرَّخَمِ
كَأَنَّمــا البِــيضُ بِالأَيــدي صَــوالِجَةٌ ... يَلعَــبنَ في ســاحَةِ الهَيجــاءِ بِالقِمَــمِ
لَم يَبــقَ مِــنهُم كَمِــيٌّ غَــيرُ مُنجَــدِلٍ ... عَلــى الرَّغــامِ وَعُضــوٌ غَــيرُ مُــنحَطِمِ
فَمــا مَضَــت ســاعَةٌ وَالحَــربُ مُســعَرَةٌ ... حَــتّى غَــدا جَمعُهُــم نَهبًــا لِمُقتَسِــمِ
قَــد أَمطَــرَتهُم سَمــاءُ الحَــربِ صــائِبَةً ... بِالمَشــرَفِيَّةِ وَالمُــرّانِ كَــالرُّجُمِ
فَــأَينَ مــا كــانَ مِــن زَهــوٍ وَمِــن صَــلَفٍ ... وَأَيــنَ مــا كــانَ مِــن فَخــرٍ وَمِــن شَمَــمِ
جــاءُوا وِللشَّــرِّ وَســمٌ في مَعاطِسِــهِم ... فَــأُرغِمُوا وَالــرَّدى في هَــذِهِ السِّــيَمِ
مَــن عــارَضَ الحَــقَّ لَم تَســلَم مَقاتِلُــهُ ... وَمَــن تَعَــرَّضَ لِلأَخطــارِ لَم يَــنَمِ

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفًا رقيقًا لا يلائم ما تقضي به الحروب من غَلَبة الغضب وشمول العبوث، ولننظر كيف يقول:

البَــدرُ دونَــكَ في حُســنٍ وَفي شَــرَفٍ ... وَالبَحــرُ دونَــكَ في خَــيرٍ وَفي كَــرَمِ
شُــمُّ الجِبــالِ إِذا طاوَلتَهــا انخَفَضَــتْ ... وَالأَنجُــمُ الزُهــرُ مــا واسَمتَهــا تَسِــمِ
وَاللَيــثُ دونَــكَ بَأسًــا عِنــدَ وَثبَتِــهِ ... إِذا مَشَيتَ إِلى شاكي السِلاحِ كَمي
تَهفــو إِلَيــكَ وَإِن أَدمَيــتَ حَبَّتَهــا ... في الحَــربِ أَفئِــدَةُ الأَبطــالِ وَالــبُهَمِ
مَحَبَّـــةُ اللهِ أَلقاهـــا وَهَيبَتُـــهُ ... عَلــى ابِــنِ آمِنَــةٍ في كُــلِّ مُصــطَدَمِ
كَأَنَّ وَجهَكَ تَحتَ النَقعِ بَدرُ دُجًى ... يُضــيءُ مُلتَثِمًــا أَو غَــيرَ مُلتَــثِمِ

بَـــدرٌ تَطَلَّـــعَ فِي بَـــدرٍ فَغُـــرَّتُ　　　كَغُـرَّةِ النَصـرِ تَجلـو داجِـيَ الظُلَـمِ

وهذا شعر جميل، لكنه أرَقُّ من أن يُوصَف به ذوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجلاد، ويعجبني قوله في وصف الغزاة:

مَهمـا دُعيـتَ إِلى الهَيجـاءِ قُمـتَ لَهـا　　　تَرمـي بِأُسْـدٍ وَيَرمـي اللهُ بِالـرُجُمِ

عَلـى لِوائِـكَ مِـنهُم كُـلُّ مُنـتَقِمٍ　　　للهِ مُسـتَقتِلٍ فِي اللهِ مُعتَـزِمِ

مُسَـبِّحٍ لِلِقـاءِ اللهِ مُضـطَرِمٍ　　　شَـوقًا عَلـى سـابِحٍ كَـالبَرقِ مُضـطَرِمِ

لَـو صـادَفَ الـدَهرَ يَبغـي نَقلَـةً فَرَمـى　　　بِعَزمِـهِ فِي رِحـالِ الـدَهرِ لَمْ يَـرِمِ

بـيضٌ مَفاليـلُ مِـن فِعـلِ الحُـروبِ بِهِـمْ　　　مِـن أَسـيُفِ اللهِ لا الهِندِيَّـةُ الخُـذُمُ

كَـم فِي الـتُرابِ إِذا فَتَّشـتَ عَـن رَجُـلٍ　　　مَن ماتَ بِالعَهدِ أَو مَن ماتَ بِالقَسَمِ

لَـولا مَواهِـبُ فِي بَعـضِ الأَنامِ لَمـا　　　تَفـاوَتَ النـاسُ فِي الأَقـدارِ وَالقِـيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال:

ذَاقُوا الـرَّدَى جُرَعًا فَاستَسـلَموا جَزَعًا　　　لِلصُّـلح والحَـرب مَرقَـاةٌ إلى السَّـلَمِ

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد، وأفصح عنها إفصاحًا يُرضي المنصف ويَكبَح جهل الكَنُود، ولننظر كيف يقول:

قـالوا غَـزَوتَ وَرُسـلُ اللهِ مـا بُعِثـوا　　　لِقَتـلِ نَفـسٍ وَلا جـاءوا لِسَـفكِ دَمِ

جَهـلٌ وَتَضـليلُ أَحـلامٍ وَسَفسَـطَةٌ　　　فَتَحـتَ بِالسَـيفِ بَعـدَ الفَـتحِ بِالقَلَـمِ

لَمّـا أَتـى لَـكَ عَفـوًا كُـلُّ ذي حَسَـبٍ　　　تَكَفَّـلَ السَـيفُ بِالجُهّـالِ وَالعَمَـمِ

وَالشَـرُّ إِن تَلقَـهُ بِالخَـيرِ ضِـقتَ بِـهِ　　　ذَرعًـا وَإِن تَلقَـهُ بِالشَـرِّ يَنحَسِـمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية، فقد كانت دين سلام وإخاء،

ولكنها لم تقم إلا بالسيف، وفي هذا يقول:

سَلِ المَسيحِيَّةَ الغَرّاءَ كَم شَرِبَتْ ... بِالصابِ مِن شَهَواتِ الظالِمِ الغَلِمِ
طَريدَةُ الشِركِ يُؤذيها وَيوسِعُها ... في كُلِّ حينٍ قِتالًا ساطِعَ الحَدَمِ
لَولا حُماةٌ لَها هَبّوا لِنُصرَتِها ... بِالسَيفِ ما انتَفَعَت بِالرِفقِ وَالرُحَمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد، فقال:

عَلَّمتَهُمْ كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ ... حَتّى القِتالَ وَما فيهِ مِنَ الذِمَمِ
لَولاهُ لَم نَرَ لِلدَولاتِ في زَمَنٍ ... ما طالَ مِن عُمُدٍ أَو قَرَّ مِن دُهُمِ
تِلكَ الشَواهِدُ تَترى كُلَّ آوِنَةٍ ... في الأَعصُرِ الغُرِّ لا في الأَعصُرِ الدُهُمِ
بِالأَمسِ مالَت عُروشٌ وَاعتَلَتْ سُرُرٌ ... لَولا القَذائِفُ لَم تَثلَمْ وَلَم تَصُمِ

المدنية الإسلامية

وقد انفرد شوقي بالإفصاح عن جلال المدنية الإسلامية، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان، وفي ذلك يقول:

دَع عَنكَ روما وَآثينا وَما حَوَتا ... كُلُّ اليَواقيتِ في بَغدادَ وَالتُوَمِ
وَخَلِّ كِسرى وَإيوانًا يَدِلُّ بِهِ ... هَوى عَلى أَثَرِ النيرانِ وَالأَيُمِ
وَاترُك رَعمَسيسَ إِنَّ المُلكَ مَظهَرُهُ ... في نَهضَةِ العَدلِ لا في نَهضَةِ الهَرَمِ
دارُ الشَرائِعِ روما كُلَّما ذُكِرَتْ ... دارُ السَلامِ لَها أَلقَتْ يَدَ السَلَمِ
ما ضارَعَتها بَيانًا عِندَ مُلتَأَمٍ ... وَلا حَكَتها قَضاءً عِندَ مُختَصَمِ
وَلا احتَوَت في طِرازٍ مِن قَياصِرِها ... عَلى رَشيدٍ وَمَأمونٍ وَمُعتَصِمِ
مَنِ الَّذينَ إِذا سارَت كَتائِبُهُمْ ... تَصَرَّفوا بِحُدودِ الأَرضِ وَالتُخَمِ
وَيَجلِسونَ إِلى عِلمٍ وَمَعرِفَةٍ ... فَلا يُدانَونَ في عَقلٍ وَلا فَهَمِ

يُطَــأطِئُ العُلَمــاءُ الهــامَ إن نَبَســوا مِـن هَيبَـةِ العِلـمِ لا مِـن هَيبَـةِ الحُكُـمِ

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الإسلام، وماكان لهم من الأثر في حياطة الدين. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله:

وَاتـرُك رَعمَسـيسَ إنَّ المُلـكَ مَظهَـرُهُ في نَهضَـةِ العَـدلِ لا في نَهضَـةِ الهَـرَمِ

فإنه من فرائد الأمثال ... ولنسجّل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سمى في المدائح النبوية سُمُوًّا لم يُوفق إلى معشَارِه في سائر شعره؛ وهذا أثرٌ لصدق العاطفة، بخلاف صاحبيه، فإن شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ، وصدق شوقي حين قال:

المــادِحونَ وَأَربابُ الهَــوى تَبَــعٌ لِصـاحِبِ الـبُردَةِ الفَيحـاءِ ذي القَـدَمِ

مَديحُـهُ فيـكَ حُـبٌّ خـالِصٌ وَهَـوًى وَصـادِقُ الحُـبِّ يُملـي صـادِقَ الكَلَـمِ

الفصل الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج: «سابق حَلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين» كما قال أبو حيان.

وكان الواجب أن نذكر شيئًا عن أبي نواس وعصره، ولكنا رأينا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون! قال: هات إذًا. فأنشده رائيته المشهورة:

أجَـــارَةَ بَيْتَيْنَـــا أَبُـــوكِ غَيُـــور ... وَمَيسُـــور مَـا يُرْجَـى لَـدَيك عَسِـير

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار، وعارضها كثير من الشعراء، منهم أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي – وسنبسط عنه القول – ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر، كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب، وفيها يقول:

عَسَـــى مِـــنْ دِيَارِ الظَّـاعِنِين بَشِـــيرُ ... ومِـــن جَـــور أَيَّام الفِـــرَاقِ مُجِـــيرُ

لَقَـد عِيـلَ صَـبرِي بَعـدَهمْ وَتَكَـاثَرتْ ... هُمُـــومِي ولِكِـــنَّ المُحِـــبَّ صَـــبُورُ

وكَـــم بَـــين أكنَـــافِ الثُغُـــورِ مُتَـــيَّمٌ ... كَئِيـــبٌ غَزَتـــه أعـــيَنٌ وثُغُـــورُ

وكم ليلة بالماطرون قطعتها   ويوم إلى الميطور وهو مطير
سَقَى اللهُ مِن سَطرًا ومَقرًا مَنازِلًا   بِهَا للنَّدامَى نَظرَة وسُرُورُ
ولا زَال ظِلُّ «النَّيرَينِ» فَإنَّه   طَويلٌ ويَومُ المَرءِ فِيه قَصِيرُ
وَيا بَرَدَى لا زَال مَاؤك بَاردًا   ومَاء الحَيَا مِن سَاحَتَيك نَمِيرُ
أبَى العَيشَ إلَّا بَيْنَ أكْنَاف جِلَّقٍ   وَقَد لَاح فِيهَا أَشْمُسُ وبُدُورُ
وكم بِحِمَى جَيرُونَ سِربُ جآذرٍ   حَبَائِلُهُنَّ المَالُ وهو نَفُورُ
ولكِن سَأَحوِيه إذا سِرت قَاصِدًا   إلى بَلَدٍ فِيه الصَّلاَح أمِيرُ

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله:

أَلا فَرَعَى اللهُ الصِّبَا مَا أَبَرَّهُ   وحيَّا شَبابًا مَرَّ وَهوَ نَضِيرُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافٌ تَرِفُّ ظِلالُهُ   عَلينا وسَلسالُ الوَفَاءِ نَمِيرُ
وَإِذْ نَحْنُ فيما بَيْنَ إِخْوَانِ لَذَّة   عَلى شِيَمٍ مَا إِنْ بِهِنَّ نَكِيرُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلاعِبٍ   بِهَا اللَّهْوُ خِدْنٌ وَالشَّبَابُ سَمِيرُ
فَأَلْحَاظُنَا بَيْنَ النُّفُوسِ رَسَائلٌ   وَرَيْحَانُنَا بَينَ الكُئُوسِ سَفِيرُ
عَقَدنَا جناحي لَيلِنَا بِنَهَارِنَا   وَطِرنَا مَعَ اللَّذَّات حَيثُ تَطِيرُ
وقُلنا لِساقينا أدِرها فإنَّما   بَقاءُ الفتى بَعدَ الشَبابِ يَسيرُ
فَطَافَ بِهَا شَمسيَّة لَهبيَّة   لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ ثُئُورُ
إذا ما شَرِبناها أقمنا مَكاننا   وَظَلَّتْ بِنَا الأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمائم الساجعة:

وَكَمْ لَيْلَة أَفْنَيْتُ عُمْرَ ظَلاَمِها   إلى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فيهِ قَتِيرُ
شَغَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاظِرِي   ونَعَّمتُ سَمعِى والبَنَانُ طَهُورُ

صَـنَعتُ بِهـا صُـنعَ الكَـرِيمِ بِأهلـهِ — وجِيرتِـــهِ والغَـــادِرونَ كَثِـــيرُ
فَمَـا رَاعَنَـا إِلَّا حَفِيـفُ حَمَـائِمٍ — لَهَـا بـينَ أطـرافِ الغُصـونِ هَـديرُ
تُجَـاوِبُ أَتْـرَابًا لَهَـا فِي خَمَائِـلٍ — لَهُـنَّ بِهَـا بَعـدَ الحَنـينِ صَـفيرُ
نَـوَاعِمُ لا يَعْـرِفْنَ بُـؤْسَ مَعِيشَـةٍ — ولا دائِـراتِ الـدَّهرِ كَيـفَ تَـدورُ
تَوَسَّـدُ هَامَـاتٌ لَهُـنَّ وَسَـائِدًا — مِـنَ الـرِّيشِ فِيـهِ طَائِـلٌ وَشَـكِيرُ
كَـأنَّ علـى أعطافِهـا مِـن حَبيكِهـا — تَمـائمَ لَمْ تُعقَـد لَهُـنَّ سُـيورُ
خَـوَارِجُ مِـنْ أَيْـكٍ دَواخِـلُ غَـيْرِهِ — زَهـاهنَّ ظِـلٌّ سَـابغٌ وغَـديرُ
إذا غازَلَتهَـا الشَـمسُ رَقَّـت كأنَّمـا — علـى صَـفَحَتَّيهَا سُـندُسٌ وَحريـرُ
فلمَّـا رَأيـتُ الصُـبحَ قَـد رفَّ جِيـدهُ — وَلَمْ يَبْـقَ مِـنْ نَسْـجِ الظَـلامِ سُـتُورُ
خَرَجْـتُ أَجُـرُّ الـذَّيْلَ تِيهًـا وَإِنَّمَـا — يَتِيـهُ الْفَـتَى إِنْ عَـفَّ وَهْـوَ قَـدِيرُ

ومن الوفاء أن ننّوه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه، وهو يقول:

وَلِي شِـيمَة تَأْبَى الـدَّنَايَا وَعَزْمَـة — تَـرُدُّ لُهَـامَ الجـيشِ وَهْـوَ يَمـورُ
إِذَا سِرْتُ فَـالأَرْضُ الَّـتِي نَحْنُ فَوْقَهَـا — مَـرادٌ لِمُهـري والمَعاقِـلُ دُورُ
فَـلا عَجـبٌ إن لَمْ يَصُـرنِي مَنـزِلٌ — فَلَـيسَ لِعِقبَـانِ الهَـوَاءِ وُكُـورُ
هَمامَـة نَفـسٍ لـيسَ يَنقـى رِكابَهَـا — رَواحٌ عَلـى طُـولِ المَـدى وبُكـورُ
مُعَـوَّدة ألاَّ تَكُـفَّ عِنانَهَـا — عَـنِ الجِـدِّ إلاَّ أن تَـتِمَّ أُمُـورُ
لَهَـا مِـنْ وَراءِ الغَيـبِ أُذنٌ سَمِيعَـة — وعَـينٌ تَـرَى مـا لا يَـرَاهُ بَصـيرُ
وَفيـتُ بِمـا ضَـنَّ الكِـرامُ فِراسـة — بِأَمْـرِي وَمِثْلِـي بِالْوَفَـاءِ جَـدِيرُ
وَأَصْـبَحْتُ مَحْسُـودَ الجَـلالِ كَـأَنَّنِي — عَلـى كُـلِّ نَفـسٍ فِي الزَمَـانِ أَمـيرُ
إذا صُـلتُ كَـفَّ الـدَّهرُ مِـن غُلَوَائـهِ — وإن قُلتُ: غَصَّت بِالقُلُوبِ صُـدورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظانّ الابتذال.

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلًا عن نفرة جارته منه، وانصرافها عنه، وأن يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين همَّ بالرحيل، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ثم عادّ فتكلم عن هيبته، وما أعد للسلم والحرب، وما له من طيب العنصر وكرم الأخلاق، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين:

وإنِّي جَـديرٌ إذ بَلَغْتُكَ بالمُنى ... وأنْتَ بِمـا أمَّلْتُ فِيكَ جَـدِيرُ
فَـإنْ تُـولِني مِنـك الجَمِيـلَ فَأهْلُـهُ ... وإلاّ فـإِنِّي عَـاذِرٌ وشَـكُورُ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها، فنذكر أولًا أنه حاور جارته بقوله:

أجَـارَةَ بَيْتَينَـا أَبُـوكِ غَيُـور ... وَمَيسُـور مَـا يُرْجَـى لَـدَيك عَسِـير
وإن كُنـتِ لا حِلمـا ولا أنـتِ زَوْجـة ... فَـلا بَرِحَـتْ دُونِي عَليـكِ سُـتُورُ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء، وعبارة «أجارة بيتينا» ثقيلة على السمع، وهي كذلك غير واضحة المدلول، أو هي تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتي جارته بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك، ولقد أذكر – من باب الفكاهة – أني كنت أناقش الأستاذ مُحَمَّد الههياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب، فقال: كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس: أجارة بيتينا أبوك غيور

لقد كان يكسر التاء من بيتينا ظنًا منه أن هذا اسم مكان [1] !!

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن بيته الأول بقوله:

وإن كُنـتِ لا حِلمـا ولا أنـتِ زَوْجـةٌ   فَـلا بَرِحَـتْ دُونِي عَليـكِ سُـتُورُ

فهو أولًا يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب أن تكون مرجع هواه، ثم يصرح بأنها لست زوجة ولا صديقة، فيضطرك إلى أن تسأله: وإلامَ تقصد حين تقول: «فلا برحت دوني عليك ستور»؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر وقلق النفس، فيقول:

وجَـاوَرْتُ قوْمًـا لا تَـزاوُرَ بَيَـنَهمْ   ولا وَصْـلَ إلَّا أن يَكُـونَ نُشُـورُ

فَمَـا أنا بالمَشْـغُوفِ ضَرْبَـة لازِبٍ   ولا كـلّ سُـلطَانٍ عَلَـيَّ قَـدِيرُ

وهو بهذا يتململ من أسر فؤاده وحبس أمانيه في تلك البقعة التي لم يقرّ لقلبه فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم، حين تأنس العيون بالعيون، وتسكن القلوب إلى القلوب ...! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء وخطرات النفوس، فقال:

وإنِّي لِطَـرْفِ العَـينِ بالعـينِ زَاجِـرٌ   فَقَـد كـدْتُ لا يَخْفَـى عَلَـيّ ضَـمِيرُ

والزجر هنا ليس معناه الردع، وإنما هو من زجر الطير. وأصله أن يرمي الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن ولّاه في طيرانه ميامنه تفاءل به، وإن ولاه مياسره تطاير منه، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به وقسوتها عليه، وإن لم تصرح بالقطيعة، ولم تعلن الصدود ... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة، بل شبّه نظرته بنظرة العُقاب في سكون الريح، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأزغب، فقال:

كَمـا نَظَـرَتْ والـرِّيحُ سَـاكِنَة لَهَـا   عُقَـابٌ بأرسَـاغِ اليـدَيْن نَـدُورُ

(١) عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدعابة التي مست أخاه ولكننا لا نرى بأسًا من تسجيل بعض هفوات من عرفناهم من الأدباء، وهي مع ذلك لا تعض من المنفلوطي الكاتب، فقد شغل الشبان في عصره، وكان بلا جدال من أقطاب البيان.

طوَتْ لَيلَتين القُوتَ عَن ذِي ضَرُورَة ... أُزَيْغِـــبَ لَمْ يَنْبُـــتْ عَلَيـــهِ شَـــكِيرُ
فأوْفَـتْ عَلَـى عَلْيـاءَ حِـينَ بَـدَا لَهـا ... مِـن الشَّـمْسِ قَـرْنٌ والضَّـرِيبُ يَمُـورُ
تُقَلِّـبُ طَرْفـا في حِجَـاجَيْ مَغَـارَة ... مِـن الـرَّأس لَم يَـدْخُلْ عَلَيـه سُـرُورُ

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته، إذ هي تقليد صريح لأسلوب الأعراب، ويظهر أن أبا نواس كان يُعني في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين، من كل رخيم الصوت، أو أصبح الوجه، أو عذب الحديث، وهو الذي يقول:

قَـد أسـحَب الـزِّقَّ يَأبَانِي وأكرِهُـه ... حَـتَّى لَـه في أديم الأرض أُخـدُود
لا أرحِـل الـرّاح إلا أن يَكُـون لَهَـا ... حَـادٍ بِمُنتَحـل الأشـعِار غِرِّيـد
فاستَنطِق العُوّد قَد طَال السُّكُوت بِه ... لَـن يَنطِـق اللَّهـو حَـتى يَنطِـق العُـود

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته، وصدق فراسته، إلى الحديث عن حوار زوجه، فقال:

تَقُـولُ الـتي مِـن بَيتِهَـا خَـفَّ مَـرْكَبِي: ... عَزِيـزٌ عَلينَـا أن نَـرَاكَ تَسِـيرُ
أمَـا دُونَ مِصْـرٍ للِغـنَى مُتَطَلّـبٌ؟ ... بَلَـى إنّ أسْـبابَ الغِـنَى لَكَثـيرُ
فَقُلـتُ لَهـا واسـتَعجَلَتْها بَـوَادِرٌ ... جَـرتْ فَجَـرى مِـن جَـرْيِهِنَّ عبَـيرُ:
ذَرِيـني أكَثّـرْ حَاسِـدِيكِ بِرِحْلَـة ... إلى بَلَـدٍ فِيـه الخَصِـيبُ أمـيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير، وانظر الصدق في قوله:

أمَـا دُونَ مِصْـرٍ للِغـنَى مُتَطَلّـبٌ؟ ... بَلَـى إنّ أسْـبابَ الغِـنَى لَكَثـيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء، وكان هذا بابًا لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد والمناقب، لكل

من جُنَّ له الدهر فظفر بإثارة من الملك أو زاد بسطة في المال - وقوله:

ذَرِيــني أُكَثّــرْ حَاسِــدِيكِ بِرِحْلَــة إلى بَلَــدٍ فِيــه الخَصِــيبُ أمــيرُ

من الأبيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات المستملحة، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت: إذًا يكثر حسادها، وتبلغ أملها. وأمر له بألف دينار، ثم قال في مدح الخصيب:

إذَا لَمْ تَــزُرْ أرْضَ الخَصِــيبِ رِكابُنــا فَــأيّ فَــتًى بَعــدَ الخَصِــيبِ تَــزُورُ
فمــا جَــازَهُ جُــودُ ولا حَــلَّ دُونَــه ولكِــنْ يَصِــيرُ الجُــودُ حَيــثُ يَصِــيرُ

وليس لهذين البيتين قيمة أدبية، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه، ولا يحل دونه، وإنما يصير حيث يصير، إلى ما هناك من وثبات الخيالا، وقد نال منه الضعف والإسفاف حين قال:

فلَــمْ تَــرَ عَيــني سُــؤدُدًا مِثــلَ سُــؤدَدٍ يحِــلّ أبــو نَصْــرٍ بِــه ويَسِــيرُ

ولكنه وُفق كل التوفيق حين قال:

فَــتًى يَشْــتَرِي حُسْــنَ الثَنَــاءِ بِمَالِــهِ ويَعْلَــمُ أنَّ الــدَّائِرَاتِ تَــدُورُ

فإنه يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة، والصيت البعيد، ويصفه مع هذا بضبط النفس، والحذر من عاديات النوائب، وجائرات الخطوب، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذِر الهيوب، الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر، وأن تثور من حوله الأقدار ... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس، فقال:

وأَطــرَق حَيَّــات الــبِلاَد لِحَيَّــةٍ خَصــيبيَّة التَّصــمِيم حِــين نَســور
سَمَــوتَ لِأهــلِ الجَــوْرِ في حَــال أمــنِهِمْ فَأضــحَوا وَكُــلٌّ في الــوَثَاق أسِــيرُ
إذا قَــام غَنَّتْــهُ عَلَــى السّــاقِ حِلَيَــة لَهَــا خُطــوة عِنــد القِيَــام قَصِــيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شيئًا من الاضطراب، وكانت لذلك طعمةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء، وأي سخر آلم للنفس، وأوجع للقلب، من قول أبي نُواس في أحد فتيان مصر وهو يوسف في الصّفاد:

إذا قَـام غَنَّتْـهُ عَلَـى السّـاقِ حِلَيَـةٌ ... لَهَـا خُطـوة عِنـد القِيَـام قَصِـيرُ

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال:

فَمَـنْ يَـكُ أمْـسَى جَاهِـلًا بِمَقَـالَتِي ... فَـإنَّ أمِـيرَ المُـؤمِنينَ خَبِـيرُ

ومَـا زِلـتَ تُولِيـهِ النَّصِـيحَة يَافِعـا ... إلى أن بَـدَا في العَارِضَـينِ قَتِـيرُ

إذا غَالَـهُ أمـرٌ فإمَّـا كَفَيْتَـهُ ... وإمَّـا عَلَيـه بالكِفَـاءِ تُشِـيرُ

وهذا من أجمل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك، وفي هذه القصيدة قطعة أخرها الشاعر، وكانت أولى بالتقديم، وهي وصف رحلة الشعراء إلى الخصيب، ونحن نسرد هذه القطعة تتميمًا للموضوع، ونصرح بأنها رديئة في العبارة، وفي السياق. قال:

رَحَلْـنَ بِنَـا مِـن عَقْرقُـوفَ وَقَـد بَـدَا ... مِـن الصُّـبْحِ مَفتُـوقُ الأدِيمِ شَـهِيرُ

فَمَـا نَجَـدَتْ بالمَـاءِ حَـتى رَأيتُهَـا ... مَـعَ الشَّـمسِ في عَيـنَيْ أبَاغَ تَغُـورُ

وغُمّـرْنَ مِـن مَـاءِ النُّقِيـبِ بِشَـرْبَة ... وَقَـد حَـانَ مِـن دِيـك الصَّـباحِ زَمِـيرُ

ووَافَـينَ إشْـرَاقا كَنَـائِسَ تَـدْمُرٍ ... وهُـنّ إلى رُعْـنِ المُـدَخّنِ صُـورُ

يُـؤَمِّمْنَ أهْـلَ الغُـوطَتَينِ كأنّمَـا ... لَهَـا عِنـد أهـلِ الغُـوطَتينِ ثُئـورُ

وقاسَـيْنَ لَـيْلًا دونَ بَيْسـانَ لم يكَـدْ ... سـنَا صُـبْحِهِ، للنـاظرينَ، يُنِـيرُ

وأصْبَحنَ بالجَوْلَان يَرْضَخن صَخرَها ... وَلَم يَبْـقَ مِـن أجْـرَاحِهِنّ شُـطُورُ

وأصْبحنَ قـد فوّزْنَ مـن نَهرِ فُطرُسٍ ... وَهُـنَّ عَـنِ البَيْـتِ المُقَـدَّسِ زُورُ

طوالِـبَ بالرّكْبـانِ غَـزَّة هَاشِـمٍ ... وَفي الفَرَمَـا مِـن حَـاجِهِنّ شُـقُورُ

واستأنف مدح الخصيب، فقال:

ولَمّـا أتَـتْ فُسْـطاطَ مِصْـر أجارهـا — علـى رَكبِهَـا أن لا تَـزَالَ مُجِـيرُ
مِـن القَـوْمِ بَسّـامٌ كـأنَّ جَبِينَـهُ — سَـنَا الفَجْـرِ يَسْـري ضَـوءه ويُنِـيرُ
زَهَـا بالخَصِـيبِ السّـيْفُ والـرُّمحُ في — وفي السِّـلْمِ يَزْهُـو مِنْبَـرٌ وسَـرِيرُ
جَـوَّادٌ إذَا الأيْـدِي كَفَفْـنَ عَـن النَّـدَى — ومِـن دونِ عَـوْرَاتِ النَّسَـاءِ غَيُـورُ
لَـهُ سَـلَفٌ في الأعجَمِـين كَـأنَّهُمْ — إذَا اسْـتُؤْذِنُوا يَـوْمَ السَّـلامِ بـدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في قصيدة ابن دَرّاج.

الفصل السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يأفكون، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن درَّاج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس، ولكنا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرّ، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسنرى كيف بذَّ أبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين: فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطًا إلى نشاط، وتقدم النقد تقدمًا ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون.

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي – التي وضعها في تفضيل بَرَ الأندلس على بر العَدوة، والتي أثبتها المقرِيّ – طيب الله ثراه – في نفح الطيب – تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، وإني لذاكر ما جاء عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارئ على أثر هو في جملته ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود [1].

---

(١) جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ ما نصه: «قال ابن سعيد، أخبرني والدي قال: كنت يومًا في مجلس صاحب سنه أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فخري بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم نزاع في التفضيل بين البرين. فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدوه، ولا شارف عنه فضيله، ولولا التوفير للمجلس لقلب ما نعلم. فقال الأمير أبو يحيى: أتريد أن تقول: كون أهل برنا

قال الشقندي بعد كلام طويل:وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله:

ولَيـــلٍ بِســـدِّ النَّهـــر أُنســـا قَطَعتُـــه بِـــذّات سِـــوار مِثـــل مُنعطـــف النّهـــر
نضت بُردَهَا عَن غًصن بَانٍ مُنعّمٍ فَياحُسن ما انشقّ الكمام عن الزّهر

وقوله في أبيه:

سَمّيــــذّعٌ يَهَـــــب الآلاف مُبتّـــــدِئًا وبّعْــد ذلِــك يُلفَــى وهـــو يعتـــذر
لـــه يَـــدٌ كُـــلٌّ جَبَّـــارٍ يُقَبِّلُهَـــا لَـــولا نـــدَهَا لَقلنَـــا إنَّهَـــا الحجـــر

ومثل ابنه الرضي في قوله:

مَـــرُّوا بِنَـــا أُصــلًا مِـــنْ غَـــيرِ مِيعَـــادِ فأوقَـــــدُوا نار قلـــــبي أيَّ إيقَـــــادِ
لا غـــروَ إن زَادَ في وَجـــدِي مُرُوْرُهمـــو فَرُؤيـــة المَـــاء تُـــذْكي غُلَّـــة الصّـــادي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتابًا في نحو مئة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطليوس، ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل، وأحب إلى الأسماع من حبيب وصل، التي منها:

أَثْمَـــرْتَ رُمْحَـــكَ مِـــنْ رُءُوسِ مُلُـــوكَهُمْ لَمَّـــا رَأَيْـــتَ الغُصْـــنَ يُعْشَـــقُ مُثْمِـــرَا
وَصَـبَغْتَ دِرْعَـكَ مِـنْ دِمَـاءِ كُمـاتِهِمْ لَمَّـــا رَأَيْـــتَ الحُسْـــنَ يُلْـــبَسُ أَحْمَـــرَا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقل – مع طولها – أرق منها في التشبيب، وهي

عربًا وأهل بركم بربر؟ فقال: حاش لله! فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول: هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدوة؟ فقال الأمير: الرأي عندي أن يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعًا وأرجو إذا أحلتما له فكر كما تصدر منكما ما يحسن تخليده ففعلا».

التي يقول فيها [1] :

كأنّنَا لَمْ نَبِتْ والوَصالُ ثَالثُنَا ... وَالسَّعدُ قَدْ غَضَّ مِن أجفَانِ وَاسِينَا
سِرّانِ في خاطِرِ الظّلْمَاءِ يَكتُمُنَا ... حَتى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبحِ يُفشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد، وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي:

إذَا ظَفِرَتْ منكِ العُيُونُ بنَظَرَةٍ ... أثَابَ بِهَا مُعيي المَطِيّ ورَازِمُهْ

فارتجل:

لَئِن جَاد شِعْر ابن الحسين فَإنَّمَا ... تُجِيد العَطَايا واللُّهَا تُفتَح اللَّهَا
تَنَبَّأ عُجبًا بِالقَريض ولَو دَرَى ... بَأنَّك تَروي شِعرَه لَتَألَّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي: هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام، الذي إن مدح الملوك قال قوله:

أَلَمْ تعلَمِي أنَّ الثَّوَاء هُو ... وأنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ
وأنَّ خَطِيرَات المَهَالِك ... لِرَاكِبِهَا أنَّ الجَزَاءَ خَطِير
تُخَوِّفُنِي طُول السِّفَار وإنَّه ... بِتَقبِيل كَفِّ العَامِرِيّ جَدِير
مُجِير الهُدَى والدِّين من كُلِّ مُلحِدٍ ... ولَيس عَلَيه لِلضَّلاَل مُجِير [3]

---

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب: «مدامع العشاق». فقد أثبتناها كلها هناك، وقد عارضها شوقي بنونية مطلعها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

(٢) النوى: الهلاك.

(٣) اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج، ولكنا اكتفينا بذكر هذه الأبيات لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية، وقد قال الشقندي في التعقيب على ما اختاره:وأنا أقسم مما حوته هذه الأبيات، من غرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر.

وإن ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال:

قَالَــتْ وقَــد مَــزَج الفِــرَاق مَــدَامِعًا بِمَــــدَامعٍ وَتَرَائِبًـــــا بِتَرَائِـــــب:
أَتَفّـــــرُّقٌ حَـــــتى بِمَنــــزل غُربَـــــة كَــم نَحْــن لِــلأيَّام نُهبَــة نَاهِــب
وَلَـئِن جَنَيـت عَلَيـك تَرحَـة رَاحِـلٍ فــأنَا الــزَّعِيم لَهَــا بفرحَــة آئِــب
هَــل أبصَــرت عَينَــاكِ بَــدرًا طَالِعًــا فِي الأفــقِ إِلَّا مِــن هِــلاَلٍ غَــارِب

وإن شبّه قال:

لِمَعَاقِــلٍ مِــن سَوسَــنٍ قَــد شَــيَّدَت أَيـدِي الرّبِيـع بِنَاءَهَـا فَـوق القُضُـب
شُــــرُفَاتُهَا مِــــن فِضَّــــة وحُمَاتُهَـــا حَـول الأمِـير لَهُـم سُيُوفٌ مِـن ذَهَـب

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة: فاستنبط ما يسحر به السحر، ويطيب به الزهر، وهو أبو عمرو بن فرج في قوله:

وَطَائِعَــة الوِصَــال عَفَفــت عَنهَــا ومَـــا الشَّـــيطَان فِيهَـــا بِالمُطَـــاع
بَـــدَت فِي اللَّيــل سَــافِرَةً فَبَاتَــت دَيَاجِـــي اللَّيْـــل سَـــافِرة القِنَـــاع
ومَـــا مِـــن لَحَظَـــةٍ إِلَّا وفِيهَـــا إِلَى فِـــتَن القُلُـــوب لَهَـــا دَوَاعِـــي
فَمَلَّكـت النُّهَـى حُجَّـاب شَـوقِي لِأجـرِي بِالعَفَـاف عَلَـى طِبَـاعِي
وبــتُّ بِهَــا مَبِيــت السَّــقب يَظمَــا فَيمتَعُــه العُكَــام مِــن الرَّضَــاع [1]
كَــذَاك الــرَّوضُ مَــا فِيــه لِمِثلِــي سِـــوَى نَظَـــر وَشَـــمٍّ مِـــن مَتَـــاع
وَلَســت مِــن السّــوَائم مُهمَــلات فأتَّخِـــذ الـــرّيَاض مِـــن المَرَاعِـــي

وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي:

عَــارِضٌ أقبَــل فِي جُــنح الــدُّجَى يَتَهَـــادَى كَتَهَـــادِي ذِي الـــوَجَى

---

(١) السقب: ولد الناقة. والعكام: ما يعكم به.

بَـــدَّدَت رِيـــح الصَّـــبَا لُؤلُـــؤَه   فَـــانَبرَى يُوقِـــد عَنـــه سُـــرُجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد:

وكَـــأَنَّ اللَّيـــل حِـــين لَـــوَى   ذَاهِبًـــا والصُّـــبح قَـــد لاَحَـــا

كِلَّـــــةٌ سَـــــودَاء أحرَقَهَـــــا   عَامِـــــدٌ أســـــرَج مِصـــــباحا

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة، من الحمرة على الوجنة، بمثل قول الشريف الطليق:

أصـــبَحَت شَمسًـــا وفُـــوه مَغـــرِبًا   وَيَـــد السّـــاقي المُحَيِّـــي مَشـــرِقَا

وَإِذَا مَـــا غَرَبَـــت في فَمِـــه   تَرَكَـــت في الخَـــدِّ مِنـــه شَـــفَقَا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل إنسان.

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس:

سَمَـوت إِلَيهَـا بَعْـد مَـا نَام أَهلُهَـا   سُمُـوَّ حَبَـاب المَـاءِ حَـالًا عَلَـى حَـال

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، واستلبه بلطفٍ استلاب ثغر الشمس لرضاب طل الأسحار، فلطفه تلطيفًا يمتزج بالأرواح، ويغني في الارتياح عن شراب الراح وهو ابن شهيد في قوله:

وَلَمّـــا تَمَـــلَأَّ مِـــن سُـــكرِه   وَنَام وَنَامَـــت عُيُـــون الحَـــرَس

دَنَـــوت إِلَيـــه عَلَـــى رِقبَـــةٍ   دُنُـــوَّ رَفِيـــقٍ دَرَى مَـــا الـــتَمس

أدِبُّ إِلَيـــه دَبِيـــب الكَـــرَى   وَأَسمـــو إِليـــه سُمُـــوَّ الـــنَّفَس

أقَبِّـــل مِنـــه بَيَـــاض الطَّلَـــى   وَأَرشُـــف منـــه سَـــوَاد اللَّعَـــس

فَبِـــتُّ بِـــه لَيلَـــتي نَاعِمًـــا   إلى أَنْ تَبَسَّـــم ثَغْـــر الغَلَـــس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزعاق، فقال وليته سكت:

ونَفَّضْتُ عَنِّي النَّوم أقبلتْ مِشيَةَ الـ ـــحُبَاب وركـــنِي خِيفَـــةَ القَـــوْم أَزْوَر

وأنا أقسم لو زار جملٌ محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله:

قَالَـــت لَقَـــد أعْيَيْتَنَـــا حِجَّـــة فَـــأْتِ إِذَا مَـــا هَجَـــع السّـــاهِر
وَاسْـــقُط عَلَيْنَـــا كَسُـــقُوط النَّـــدَى لَيْلَـــــــــــة لا ناهٍ وَلا زَاجِـــــــــــر

ولله در مُحَمَّد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا، حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال: وليته لم يزل يقول مثل هذا، فبمثله ينبغي أن يُتَكلم، ومثله يليق أن يدون:

ووَاعَــدتُهَا وَالشَّــمْس تَجْـنَح لِلنَّــوى بِزَورَتِهَـا شَمسًـا وَبَـدر الـدُّجَى يَسـري
فَجَـاءَت كَمـا يَمشِـي سَنَا الصُّـبْح في وَطَـورًا كَمـا مَـرَّ النسـيم علَـى النَّهـر
فَعَطَّـرت الآفَـاق حـولِي فَأشـعَرَت بِمَقْـدَمِهَا والعَـرف يُشـعِر بِالزَّهـر
فَتَابَعـــت بِالتَقبِيـــل آثارَ سَـــعيِهَا كَمَـا يَتَقصَّـى قَـارِئٌ أَحـرُف السَّـطْر
فَبِـتّ بِهَـا وَالليـل قـدْ نَام والهَـوَى تَنَبَّـه بَـين الغُصـن والحِقْـف والبَـدْر
أعَانِقُهَـــــا طَـــــورًا وأَلـــــثَم تَارَةً إلى أَن دَعَتنـا لِلنَّـوى رَايَـة الفَجـر
فَفَضَّـــت عُقُـــودًا لِلتَّعَـــانُق بَيْنَنَـــا فَيَـا لَيلَـة القَـدْر اتزِكِـي سَـاعَة النَّفْـر

وهل منكم من قُيِّد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر، فقال - وهو ابن اللبانة:

بنَفسِـي وَأهلِـي جـيرَةٌ مَـا اسـتَعَنتُهُم عَلَـى الـدَّهرِ إلَّا وانثَنَيْـت مُعَـانا
أرَاشُـوا جَنَـاحِي ثُمَّ بَلُّـوه بِالنَّـدَى فَلَـم أسـتَطِع مِـن أُرضِـهِم طَيَـرَانا

ومن يقول لقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان، فقابل ذلك بقطع مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضاح:

هَـــل كنْـــتُ إلَّا طَـــائِرًا بِفنَـــائِكُم في دَوح مَجـــدِكُم أَقُـــوم وَأَقعُـــد

إن تَسْـــلُبُوني رِيشَـــكُم وَتُقَلِّصُـــوا عَـــنّي ظِلاَلَكُـــم فكَيْـــف أُغَـــرّد

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح، وتشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديدًا، وكليله في الأفكار حديدًا، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق:

وأغيَــدٍ طَــاف بِالكئــوس ضُــحًى وَحَثَّهَــا وَالصَّــبَاح قَــد وَضَــحَا
والــرَّوض أهــدَى لَنَــا شَــقَائِقَه وَآسُــه العَنــبَرِيُّ قَــد نَفَحَــا
قُلْنَــا وَأيْــن الأقَــاحُ؟ قَــال لَنَــا: أَودَعْتُــه ثَغْــر مِــن سَــقَى الْقَــدَحَا
فَظَــلَّ سَــاقِي المُــدَام يَجْحَــد مَــا قَــال فَلَمَّــا تَبَسَّــم افتَضَــحا

وقال:

أدِيرَاهَــا عَلَــى الــرَّوْض المُنَــدَّى وَحُكْــم الصُّــبح في الظَّلْمَــاء مَاضِــي
وَكَــأس الــرَّاح تَنْظُــر عَــنْ حَبَــابٍ يَنُــوب لَنَــا عَــن الحَــدَق المِــراض
وَمَــا غَرَبَــت نُجُــوم الْأُفْــق لكِــن نُقلْــن مــن السَّــمَاء إلَى الــرّيَاض

وقال:

ورِيَاضٍ مِــن الشَّــقَائق أَضْــحت يَتهَــادى بِهَــا نَســيم الصَّــبَاح
زُرتُهَــا والغَمَــام يَجْلــد منْهَــا زَهَــرَاتٍ تَــرُوق لَــوْن الــرَّاح
قُلْــتُ مَــا ذَنْبُهَــا؟ فَقَــال مُجِيبــا سَــرَقَت حُمْــرَة الخُــدُود المِــلَاح

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين، وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه؟ وما يتعلق بذلك فانتهى إلى غاية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل:

وَعَشِــيَّ أُنــسٍ أَضــجَعَتنِي نَشــوَةٌ فِيهَــا يُمَهِّــد مَضــجَعِي ويُــدَمَّث

خَلَعَت عَلَيَّ بِهَا الأرَاكَة ظِلَّهَا	والغُصْن يُصغي والحَمَامُ يُحَدِّث
والشَّمس تَجنَح للِغُرُوب مَرِيضَةً	والرَّعْد يرقِي والغَمَامَة تَنفُث

والقائل:

لله نَهرٌ سَال في بَطحَاء	أشهَى وُرُودًا مِن لَمَى الحَسنَاء
مُتَعَطّفٌ مِثل السِّوَار كَأنَّه	والزَّهر يَكْنُفُه مَجَرُّ سَمَاء
قَد رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرصًا مُفْرَغًا	مِن فِضَّةٍ في بُردَة خَضْرَاء
وَغَدَت تَحُفُّ بِه الغُصُون كَأنَّهَا	هُدبٌ تَحُفُّ بمُقلَةٍ زَرقَاء
ولَطَالَمَا عَاطَيت فِيه مُدَامَةً	صَفرَاء تَخضِب أيدِي النُّدَمَاء
والرِّيح تَعبَث بِالغُصُون وَقَد جَرَى	ذَهَب الأصِيل عَلى لُجَيْن المَاء

والقائل:

حُثّ المُدَامَة والنَّسِيم عَلِيل	والظِّلُّ خَفَّاق الرِّوَاق ظَلِيل
والرَّوض مُهتَزُّ المَعَاطِف نَعمَةً	نَشوَان تَعطِفُه الصَّبَا فيَمِيل
رَيَّان فَضَّضَه النَّدَى ثُمّ انجَلَى	عَنه فَذَهَّب صَفحتَيه أصِيل

والقائل:

أذِن الغَمَام بِدِيمَةٍ وعُقَار	فامزُج لُجَينًا مِنهُما بِنُضَار
واربَع عَلَى حُكم الرَّبِيع بِأجرَعٍ	هَزِج النَّدَامَى مُفصِح الأَطيَار
مُتَقَسّم الألحَاظِ بَين مَحَاسِنٍ	مِن رِدف رَابِيةٍ وخَصر قَرَار
نَثرَت بِحِجر الرَّوض فِيه يَد الصَّبَا	دُرَر النَّدَى ودَرَاهِم الأنوَار
وهَفَت بتَغرِيدٍ هُنَالِك أيكَةٌ	خَفَّاقَةٌ بمَهَبّ رِيح عَرَار
هَزَّت لَه أعطَافَهَا ولَرُبَّمَا	خَلَعَت عَلَيه مُلاَءَة النُّوّار

والقائل:

سَــقْيًا لَهَــا مِــن بِطَــاح خَــزٍّ وَدَوح نَهْــــرٍ بِهَــا مُطِـــلّ
إذ لَا تَــرَى غَــير وَجــه شَمْــسٍ أطَـلّ فِيــه عِــذَار ظَــلّ

والقائل:

نَهَــرٌ كَمَـا سَـال اللّمَــى سَلسَـال وَصَــبًا بِليــلٌ ذَيلُهَــا مِكسَــال
ومَهَــبّ نَفحَــة رَوضَــةٍ مَطلُولَــةٍ في جَانِبَيهَــا لِلنّسِــيم مَجَــال
غَازَلَتْهَــا والأقحُوَانَــة مَبسَــمٌ وَالآسُ صُــدغٌ والبَنفسَــجُ خَــال

والقائل:

وَسَاقٍ كَحِيل اللَّحظِ في شَأو حُسنِه جِمَـاحٌ وبِالصَّــبر الجَمِيــل حِـرَان
تَــرَى لِلصِّــبا نَارًا بِخَدَّيــه لَم يَثُــر لَهَـا مِـن سَـوادي عَارضَـيِه دُخَـان
سَــقَاها وَقَــد لَاح الهِـلَال عَشِـيَّةً كَمَـا اعـوَجَّ في دِرعِ الكَمـيّ سِنَان
عُقَــارًا نَمَاهــا الكَــرْمُ فَهِــي كَرِيمَــةٌ ولَم تَـزن بِابـن المُـزْن فَهْـي حَصَـان
وَقَـد جَـال مِـن جَـونِ الغَمَامَـة أدهَـمٌ لَـه الـبَرق سَـوطٌ والشَّـتَان عِنَـان
وضَـمَّخ دِرع الشَّـمس نَحـر حَدِيقَـةٍ عَلَيـه مِـن الطَّـلّ السـقِيط جُمَـان
وَنَمَّــت بِأســرَار الــرّيَاض خَمِيلَــةٌ لَهَـا النَّـور ثَغـرٌ والنَّسِـيم لِسَـان

والقائل:

وأَشْــقَرٍ تَضــرم مِنــه الــوَغَى بِشُــعلَةٍ مِــنْ شُــعَل البَــاس
مِــن جُلَّنَــارٍ نَاضِــرٍ لَونُــه وأُذنُــه مِــن وَرَق الآس
تَطلُــع لِلغُــرَّة في شُــقرَةٍ حَبَابَــةً تَضــحَك في كَـاسٍ

وهل منكم من يقول منادمًا لنديمه وقد باكر روضًا بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطَّى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك، وهو أبو الحسن بن

بسام:

ألا بَادِر فَمَــــا ثَانٍ سِـــــوى مـــــا   عَهِــدت الكَـــأسُ والبَـــدرُ التَّمَـــام

ولا تَكْسَـــــــل برؤيَتِــــــه ضَـــــبَابًا   تَغَـــصُّ بِــــه الحَدِيقَــــة والمُـــدَام

فَـــــإنَّ الــــرّوْض مُلتَـــــثمٌ إلَى أن   تُوَافِيَــــــــه فَيَـــــــنْحَطَّ اللِّثَـــــام

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي:

قَــالُوا وَقَــد أكثَـرُوا فِي حُبِّـه عَـذَلِي: لَــو لَمْ تَهِــم بِمُــذَال القَــدْر مُبتَــذَل

فُقلـت لَـو كَـان أَمـرِي فِي الصَّـبَابَة لِي   لاخـتَرْتُ ذَاك ولكِـن لَـيسَ ذلِـك لِي

عَلِّقتُــــه حَبِـــيَّ الثَّغَّـــر عَـــاطِرَه   حُلـو اللَّمَـى سَـاحِر الأجفَـان والمُقَـل

غُزَيِّـــلٌ لَمْ تَـــزَل فِي الغَـــزِل جَائِلَـــةً   بَنَانُــه جَــوَلان الِفكـــر فِي الغَـــزَل

جَـــذلان تَلعَـــب بالمِســـواك أنمُلُـــه   عَلَـى السَّـدى لَعِـب الأيَّام بِالأجَـل

ضَــمَّا بكَفّيــه أو فَحصًــا بِأخمَصِــه   تَخَــبُّط الظَّــبِي فِي أشــرَاك مُحتَبِــل

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل:

وعَشِـــــــيٍّ رَائِـــــــقٍ مَنظَـــــــرُه   ألصَـــقَت بِالأرض خَـــدًّا للنُّــــزُول

والصَّـــــبَا تَرفَـــــع أذيَال الـــــرُّبا   ومُحَيَّـــا الجَـــوِّ كَـــالنَّهرِ الصَّـــقِيل

حَبَّـــــــذا مَنزِلُنَـــــــا مُغتَبَقًـــــــا   حَيـــثُ لا يَطرُقُنَـــا غَـــيرُ الهَـــدِيل

قَد قَطَعنَاه عَلَى صِرف الشَّمُول

وَكَأنَّ الشَّمس فِي أثنَائِه

وهل منكم من وصف غلامًا جميل الصورة راقصًا بمثل قول ابن خروف:

ومُنَـــزَّع الحَرَكَـــات يَلعَـــب بِالنُّهَـــى   لَـبِس المَحَاسـن عِنـد خَلـع لبَاســه

مُتَـــأوِّدًا كَالغُصـــن وَسْـــط رِيَاضِــه   مُتَلاعِبًـــا كَـــالظَّبي عِنـــد كِناســـه

بِالعَقــل يَلعَــب مُــدبِرًا أو مُقــبِلًا   كَالـدَّهر يَلعَـب كيـف شَـاء بِنَاسِـه
ويَضُــمٌّ لِلقَــدَمَين مِنْــه رَأسَــه   كَالسَّــيف ضُــمّ ذبابُــهُ لِرياسِــه

وهل منكم من وصف خالًا بأحسن من قول النشار:

أَلــوَّامِي عَلَــى كَلَفِــي بِحِــبّي   مَــتَى مِــن حُبِّــه أرجُــو سَــرَاحا
وبَــين الخَــدِّ والشَّــفَتَيْن خَــالٌ   كَزِنْجِــيّ أتَــى رَوضًــا صَــباحا
تَحَــيَّر فِي جَنَــاه فَلَــيس يَــدرِي   أيَجــنِي الــوَرد أم يجــنِي الأقاحــا

وهل منكم من اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله:

لمَّــا ظَفِــرْت بِلَيلــةٍ مِــن وَصــلِه   وَالصَّــبُّ غَــير الوَصْــل لا يَشْــفيه
أنضَــجْت وَرْدَة خَــدِّه بِتَنَفُّسِــي   وَطَفِقـتُ أرشُـف ماءَهـا مِـن فِيـه [(١)]

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره، وسواد شَعره، وهو الطُّليطِلي:

أَمَــا اشــتَقَت مِــنِّيَ الأَيَّامُ فِي وَطَــنِي   حَـتَّى تُضَـّايِق فِيمـا عَـنَّ مِـن وِطَـري
ولا قَضَـت مِـن سَـواد العَـيْنِ حَجَتَهـا   حَـتَّى تَكُـرَّ عَلـى مـا طَـلَّ فِي الشَّـعَر

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاّدة المروانية [(٢)] ، ومثل زينب بنت زياد المؤدب التي تقول:

ولَمَّــا أبَى الوَاشُــون إلَّا فِرَاقَنَــا   وَمَــا لَهُــم عِنْــدي وعِنْــدَك مِــن ثَار
وَشَــنُّوا عَلَــى أسمَاعِنَــا كُــلَّ غَــارَةٍ   وَقَــلَّ حُمــاتِي عِنْــد ذَاكَ وَأنصــارِي
غَزَوْتُهُمــو مِــن مُقلَــتَيَّ وَأدْمُعِــي   ومِـن نَفَسِـي بِالسَّـيف والسّـيل والنَـار

ثم قال الشقندي بعد كلام: وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر بن بقيّ

---

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها أهمية.

(٢) أنشد لها بيتين لم نر لهما قيمة.

ليكون الختام مسكًا:

عَاطَيْتُه واللَّيلُ يَسحَب ذَيْلَه ... صَهبَاءَ كَالمِسكِ الفَتِيق لِنَاشِق
وَضَممتُه ضَمَّ الكَمِيّ لِسَيفِه ... وَذُؤَابَتَاه حَمَائِلٌ في عَاتِقِي
حَتَّى إذَا مَالَت بِه سِنَة الكَرى ... زَحزَحتُه شَيئًا وَكَان مُعَانِقِي
بَاعَدتُه عَن أضْلُعٍ تَشْتَاقُه ... كَيْلَا يَنَام عَلى وِسَادٍ خَافِقِ [1]

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي:

هُمُو نَظَروا فَهَامُوا ... وَتَشرب لُبَّ شَارِبِهَا المُدَام
يَخَاف النَّاس مُقْلَتَهَا سِوَاها ... أيَذْعَر قَلْب حَامِلِه الحُسَام
سَمَا طَرفِي إِليهَا وهو باكٍ ... وتحتَ الشَّمس ينسكِب الغَمام
وأذكُر قدَّها فأنوحُ وَجدا ... عَلَى الأَغْصَان تَنْدِب الحَمَام

(١) كتب إلينا الأديب مُحَمَّد بن عباس القباج أن رين شباب الأندلس صفوان بن إدريس المتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين، عارض أبيات الشقندي فقال:

يا حسنه والحسن بعض صفاته ... والسحر مقصور على حركاته
بتنا نشعشعُ والعفافُ نديمنا ... خَمرين من غزلي ومِنْ كلماتِهِ
ضاجَعْتُهُ واللّيْلُ يُذكي تحتنا ... نارين من نفسي ومن وجناتِهِ
وضمَمتُهُ ضمَّ البَخِيلِ لمالِهِ ... يحنو عليه من جميعِ جهاتِهِ
أوثقتهُ في ساعديَّ لأنهُ ... ظبيٌ خشيتُ عليهِ من فلتانهِ
والقلبُ يرغبُ أن يصير ساعدًا ... ليفوزَ بالآمالِ منْ ضماتِهِ
حتى إذا هامَ الكرى بجفونِه ... وامتدَّ في عَضديّ طوعَ سناتِهِ
عَزَمَ الغرامُ عليّ في تقبيلِهِ ... فجعلتُ أبدي الطوعَ عن عزماتِهِ
وابى عفافي أن أقبلَ ثغرهُ ... والقَلْبُ مطويٌّ على جمراتِهِ
فاعجبْ لملتهبِ الجوانح غلة ... يَشكو الظَّما والماءُ في لهَوَاتِهِ

وأُعْقِــبَ بَيْنُهَــا في الصَّــدْر غَمًّــا   إذا غَرِبَــت ذُكَــاء أتَــى الظَّــلام

وبقوله أيضًا:

لهـــا رِدفٌ تَعَلَّـــق في لَطِيــــف   وَذَاك الـــرِّدْف لِي ولهَـــا ظَلُـــوم

يُعَـــذِّبُني إذا فكَّـــرت فِيـــه   وَيُتْعِبهَـــا إذَا هَمَّـــت تقُـــوم

تلك أيها القارئ نفحة الأندلسي، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج، الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان، وإنا لنرجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة، مع حرصهم على أن يمثل أغراض الحياة، وأطماع العقول، وألوان النفوس، وأهواء القلوب.

الفصل السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء، وكان بصقُع الأندلس كالمتنبي بصقُع الشام، كما قال صاحب اليتيمة، وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، كما نص صاحب الذخيرة، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب، فقد ضاع ديوان شعره [١] ، وضاعت رسائله البليغة، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الإبانة عن منزلته في عالم البيان.

ولنذكر أولًا ما قاله المؤرخون في وصفِه، ثم ننتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال.

قال ابن بسام في الذخيرة: «كان أبو عمر القسطلي في وقته لسان الجزيرة شاعرًا وأولًا حين عدّ معاصريه من شعرائها، وآخر حامل لوائها، وبَهجة أرضها وسمائها وأسوَة كُتابها وشعرائها ... به بُدئ ذكر الجميل وخُتم، حَل اسمه من الأماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالة قدره، وكانت الشام والعراق خطر ذكره، وقد أحرى الثعالبي طرفًا من أمره، وأغرب بلمع من شعره»، ثم قال: «وإنما ذكرته هنا وإن كان من شعراء ابن أبي عامر؛ لأنه تراحت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجته المحّن، وسالت به تلك الفتن».

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئًا من اللبس والغموض، وهذا يرجع إلى سببين: أولهما أن كتاب الذخيرة مُنّي بالمسخ والتحريف، ولا يزال إلى الآن مخطوطًا يجده الباحث

(١) سيرى القارئ في هامش مقبل أن الديوان لم يضع.

في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيدٌ يضطر الكاتب إلى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب.

وقال أبو حيان: «أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طَوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرته إلى النجعة، فاستقر ملوك الأندلس أجمعين، يهز كلًّا بمدحه، ويستعينه على نكبته وليس منهم من يصغي له، أو يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبطهم بمقوّله [1] فيصمّون عنه، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقطسة، فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده».

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس:ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على مَن تقدم، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يَشُك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصابيح لا تطفأ، وأن الأفهام مَرَاءٍ لا تتناهى صورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وأن هذا الشاعر في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يّدع له عارضًا يُسْتَمطر، ولا عارضةً تُذكَر. وإنه لحقيق أن ينشد:

وإنِّي وَإنْ كُنْتُ الأخِيرَ زَمَانُهُ ... لآتٍ بِمَا لم تَسْتَطِعْهُ الأوَائِلُ

وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعرًا مفلقًا يبخل بمثله الزمان، ولكن عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به المتقدمون.

شيء من نثره

يغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القارئ شيئًا من مستملح التشبيه، ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل:حاش لله أن أستشف المسيل قبل جموحه، وأستكره الدر

(١) المقول: اللسان.

قبل حفوله، أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأغفل عن الأدب الباهر في نظرة إلى ميسرة ... ولكن.

مــاذا تقُــول لِأفَــراخٍ بِــذِي مــرخ — حُمْــرِ الحَوَاصِــل لا مَــاءٌ ولا شَــجَرُ
مـا أَوضـحَ العُـذر لِي لـو أَنَّهـم عَـذَروا — وأجمَـل الصَّــبر بِي لــو أَنَّهــم صَــبرُوا
لكِــنَّهُم صَــغُروا عَــن أزمَــةٍ كَبُــرَت — فَمَــا اعتِــذَارِي عَمَّــن عُــذرُه الصِّــغَرُ

وقد قلبت لهم ظهر مجن الأمور، وميزت بين الميسور والمعسور، فما وجدت أحسن بدءًا، ولا أحمد عودًا مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضه، وسخّر لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلّب ففي كرمك، وأين نأمن ففي حَرَمِك، وحيث توحشنا دعوتك ولا تعدمنا نعمتك، فمن ملكك إلى ملكك، ومن يمينك إلى شمالك.

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب، وإن كنت أرتاب في نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف.

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرضَ القارئ بما نختاره من تلك القصائد التي أثبتها صاحب اليتيمة، أحسن الله له الجزاء، وإنا لنستجيد قوله في لوعة الشوق:

وَحشِــيَّة اللَّفــظ هَــل يُــؤذَى قَتــيلُكم — دَمِــي مُضَــاع وَجَــانِي ذَاكِ عيَنــاك
إِنِّي أرَاكِ بَقَتـل الـنَّفسِ حَاذِقـةً فـديتك — قُــولِي فَــدّيتُك مَــن بِالقَتــل أوصَــاك
مَــالِي ولِلــبَرق أستَســقِيه مِــن ظَمِــأ — هَيهَــــات لا رِيَّ إلَّا مِــــن ثَنَــــايَاك
لَــولَا الضُّــلوع لَظَــلَّ القَلــب نحــوَكمُ — ضَــعِي بِعينِــك فَــوقَ القَلــب يُمنَــاك
أُصــــلَيتِنِي لَوْعَــــة الهِجْــــرَان ظَالِمــــة — رُحمَــاك مِــن لَوعَــة الهِجْــرَان رُحمَــاك

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط:

إلَيــك شَــحَنَّا الفُلَــكَ تَهْــوِي كَأنَّهَــا وَقَد ذُعِرَت عَن مَغِرب الشَّمسِ غِربَانُ
عَلَـى لُجَـجٍ خُضْـرٍ إذَا هَبَّـت الصَّـبَا تَرَامَـى بِنـا فيهَـا ثَبِـيرٌ وَثَهـلان
وَإن سَـكَنَت عَنَّـا الـرِّيَاح جَـرَى بِنَـا زَفِـيرٌ إلَى الأحِبَّـة حَنَّـانُ
يَقُلـنَ وَمَـوَجُ البَحْـر وَالهَـمِّ والـدُّجَى تَمُـوج بِنَـا فِيهَـا عُيُـونٌ وَآذَان
ألا هَـلْ إلَى الـدُّنيَا مَعَـادٌ وهَـل لنَـا سِوَى البَحْر قَبرٌ أو سِوَى الماء أكفَانُ
وَهَبْنـا رَأينَـا مَعْلَـم الأرضِ هـل لنَـا مِن الأرْض مَأوىً أو مِنَ الإنسِ عِرْفَانُ
هَـوَت أُمَّهُـم مَـاذا هَـوَت بِرجَـالِهِم إلى نَازِحِ الآفَـاقِ سُـفْنٌ وَأظعَـانُ
كَوَاكِـبُ إلَّا أنَّ أفْـلَاكَ سَـيْرِهَا زِمَـامٌ وَرَحْـلٌ أو شِـرَاعٌ وَسُـكّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحباب:

وإنَّ بِـلَادًا أخْـرَجَتني لَعَاطِـلٌ وإنَّ زَمَـانًا خَـان عَهـدِي لَخَـوَّانُ
سَـلَامٌ عَلـى الإخـوَانَ تَسْـلِيم آيِـسٍ وَسَـقْيًا لِـدَهرٍ كَـان لِي فِيـه إخـوَانُ
فَـلا مُـؤنِسٌ إلَّا شَـهِيقٌ وَزَفْـرَةٌ ولا مُسـعِدٌ إلَّا دُمُـوع وأجفَـانُ
وَمَـا كَـان ذَاك البَـيْنُ بَـينَ أحِبَّـةٍ وَلَكِـنْ قُلُـوبٌ فَـارَقَتْهُنَّ أبـدَانُ

وما أوجَع ما يقول:

فَيَـا عَجَبًـا لِلصَّـبْر مِنَّـا كَأنَّنَـا لَهم غَيرُ مَنْ كُنا وَهُم غَيرُ مَن كَانوا
مَضَى عَيشُهُم بَعْدي وَعَيشِي بَعدَهُم كَـأنِّيَ قَـد خُنـتُ الوَفَـاءَ وقَـد خَـانوا

ومن مختار القصيد قوله:

لَـكَ الله بِالنَّصْـرِ العَزِيـزِ كَفيـلُ أَجَـدَّ مُقَـامٌ أم أَجَـدَّ رَحيـلُ
هُـوَ الفَـتحُ أمَّـا يَومُـهُ فَمُعَجَّـلٌ إلَيـكَ وَأمَّـا صُـنعُهُ فَجَزِيـلُ
وآيَاتُ نَصـرٍ مَـا تَـزَالُ وَلَمْ تَـزَلْ بِهِـنَّ عَمَـايَاتُ الضَّـلالِ تَـزولُ

سُيوفٌ تنُيرُ الحَقَّ أنَّى انْتضَيْتَها ... وَخَيلٌ يَجولُ النَصرُ حَيْثُ تَجولُ

أَلا فِي سَبِيلِ اللهِ غَزوُكَ مَن غَوى ... وَضَلَّ بِهِ فِي النَّاكثينَ سَبِيلُ

لئِنْ صَدِئَتْ أَلبابُ قَومٍ بِمَكرِهِمْ ... فَسَيفُ الهُدَى فِي رَاحَتَيْكَ صَقِيلُ

وَإِنْ يَحْيَ فِيهم مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ ... فَأَحجَارُ دَاودٍ لَدَيْكَ مُثُولُ

خَفِيفٌ عَلَى ظَهرِ الجَوَاد إِذَا عَدَا ... وَلكِن عَلَى صَدْرِ الكَمِيّ ثَقيلُ

وَجَرداءَ لَمْ تَبخَل يَدَاها بِغَايَةٍ ولا ... كَرُّهَا نَحو الطَّعَان بَخِيلُ

لَهَا مِن خَوَافِي لَقْوَةِ الجَوّ أَرْبَعٌ ... وَكَشحَانِ مِن ظَبِي الفَلا وَتَلِيلُ

وَبيضٌ تَرَكْنَ الشِّرْكَ فِي كُل مُنْتَأىً ... فُلُولًا وَمَا أَزرى بِهِنَّ فُلُولُ

تَمُورُ دِمَاءُ الكُفرِ فِي شَفَراتِهَا ... وَيَرجِعُ عَنهَا الطَّرْفُ وَهوَ كِلِيلُ

وَأَسمَرَ ظَمآنِ الكُعُوبِ كَأَنَّمَا ... بِهِنَّ إِلَى شُرْبِ الدِّمَاءِ غَلِيلُ

إِذا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَيقَنْتَ أَنَّه ... بِصَرف الرَّدَى نَحْو النُّفُوس رَسُولُ

وفيها يقول:

كَتائبُ عِزُّ النصرِ فِي جَنَبَاتِهَا ... وكُلُّ عَزِيزٍ يَمَّمْتَه ذليلُ

يَسَيرُ بِهَا فِي البرّ والبَحرِ قَائدٌ ... يَسِيرٌ عَلَيْهِ الخَطْبُ وَهْوَ جَلِيلُ

إِذا انْشَقَّ لَيْلُ الحَرْبِ عَن صُبْحِ وَجْهِهِ ... فَقَد حَانَ مِن يَومِ الضَّلاَلِ أُفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة، ولكنها لم تسلم من التحريف، نختار منها قوله:

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ اللَّيْل مُعتَسِفًا ... إِلّا وقَرن رَخِيم الدَّلِّ بَارِعُهُ

تَحِيَّتِي مِنه تَقبيلٌ ومُعتَنَقٌ ... يَشُدُّنِي غُلُّهُ فِيهِ وجَامِعُهُ

لَم أخلَعِ الدِّرْعَ إِلّا حِينَ شَقَّقَهُ ... عَن صفَحِ صَدريَ مَا تَحوي مَدَارِعُهُ

ولا تَوَقَّيتُ سَهْمًا مِنْ لَواحِظِهِ — يُذيبُ سَيفِي وَفِي قَلبِي مَواقِعُهُ
غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَندَاءَ الغَمَام فَمَا — يُطوِّقُ الدُّرَّ إِلّا وَهْو جَازِعُهُ
يَميسُ سُكْرًا وسُكرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ — وَتَارَةً وانثِنَاءُ الوَشْيِ لاذِعُه
فَبِتُّ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيلِ ثَانِيَهُ — والشَوْقُ ثَالِثُنا والوَصْلُ رَابعُهُ
والسِّحْرُ مِن لَفظٍ يُنَازِعُني — والمِسكُ يَعبقُ مِن كَأْسٍ أُنَازِعُهُ
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحتِهِ — لَولا النُّهى لجَرَتْ فِيهَا أَصَابعُهُ
كَأَنَّما ذَاب فِيهَا وَرْدُ وَجْنتِه — وَشجَّهَا رِيقُه المَعْسُول مَائِعُهُ
جَنَى حَيَاةٍ دَنتْ مِنّي مَطَاعِمُهُ — مِن بَعدِ مَا قَدْ نَأَتْ عنّي مطامِعُهُ
قَدْ أَنهَبَ المِسْكَ والكَافُورَ خازِنُهُ — وأرخَصُ الوَرْدَ والتُّفاحَ بَائِعُهُ
فيا ظَلامَ نُجومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمَتْ — بَدْرَ السماءِ وَفِي حِجري مَضَاجِعُهُ
ويا حَنِينَ ظِبَاءِ القَفْرِ إذ فَقَدَتْ — غَزَالَهُنَّ وَفِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر، التي عارض بها رائية أبي نواس في مدح الخصيب، وقد ضن الدهر علينا أيضًا بهذه القصيدة، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك [(١)] ، وقد راجعت كل ما وصلت إليه من تاريخ الأندلس، وسألت كل من أعرف أنه شغُل بتاريخ الأدب في تلك البلاد، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة، وإنما يبدءون بقوله:

أَلَمْ تعلَمِي أنَّ الثَوَاء هُو التَّوَى — وأنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ

(١) أصبحت القصيدة كلها تحت يدنا، وعرفنا أن الديوان لم يضع، فهو في مخطوط خزانة المؤرخ الكبير النقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكي في المغرب، وقد تفضل السيد محمد بن عباس القباج، فأرسل لنا الرائية كاملة، فله منا أطيب الثناء.

ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر مقدمة لهذا الحوار [1].

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس:

تَقُولُ التي مِن بَيتهَا خَفَّ مَرْكَبِي: عَزِيزٌ عَلينَا أن نَرَاكَ تَسِيرُ
أمَا دُونَ مِصْرٍ لِلغِنَى مُتَطَلَّبٌ؟ بَلَى إنّ أسْبابَ الغِنَى لَكَثيرُ
فَقُلْتُ لَهَا واستَعجَلَتْها بَوَادِرٌ جَرتْ فَجَرى مِن جَرْيِهِنَّ عبَيرُ:
ذَرِيني أكَثّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إلى بَلَدٍ فِيهِ الخَصِيبُ أميرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج:

أَلَمْ تعلَمِي أنَّ الثَوَاء هُو التَّوَى وأنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ
وأنَّ خَطِيرَات المَهَالِك ضُمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أنَّ الجَزَاءَ خَطِير
تُخَوِّفُني طُول السِّفَار وإنَّه بِتَقبِيل كَفِّ العَامِرِيّ جَدِير
ذَرِينِي أَرِد مَاء المَفَاوِزِ آجِنًا إلى حَيْثُ مَاء المَكْرُمَات نَمِير

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذ أبا نواس وبَرَعَه، بقوله في توديع زوجه ووليده:

ولَمَّا تَدانَت لِلوَدَاع وَقَد هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِير
تُنَاشِدُنِي عَهْد المَوَدّة وَالْهَوى وَفي المَهْد مَبْغُوم النِّدَاء صغير
عَيِيٌّ بِمَرجُوع الخِطَاب وَلحْظُه بِمَوقع أهْوَاء النُّفُوس خَبِير
تَبَوَّأَ مَمْنُوع القُلُوبِ وَمُهِّدَت لَه أَذْرُعٌ مَحْفُوفَة وَنُحُور
عَصَيْت شَفِيع النَّفْس فيه وَقَادَنِي رَوَاح لِتَدْآبِ السُّرَى وبُكُور

---

(١) هذا هو المطلع:

دعي عزمات المستضام تسير فتنجد في عرض الفلا وتغور
لعل بما اشجاك من لوعة النوى يعز ذليل أو يفك أسير

وَطَـار جَنَـاح البَـيْنِ بِي وَهَفَـت بِهَـا جَـوَانِح مِـن ذُعْـرِ الفِـرَاقِ تَطِـير
لَـئنْ وَدَّعَـت مِـني غَيُـورًا فَـإِنَّني عَلَـى عَـزْمَتِي مِـن شَـجوِها لَغَيْـور

ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين، إذ لم يترك ببغداد زوجة ينازعه إليها الوفاء، ولا طفلًا تعطفه إليه نوازع الشوق ولواعج الحنين.

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت:

تُنَاشِـدُني عَهْـد المَـوَدّة وَالْهَـوى وَفِي المَهْـد مَبْغُـوم النِّـدَاء صـغير

وكلمة «مبغوم النداء» كلمة مختارة بارعة المدلول، وقوله:

عَيِـيٌّ بِمَرجُـوع الخِطَـاب وَلحْظُـه بِمَوقـع أهْـوَاء النُّفُـوس خَبِـير

بيت نادر المثال، وقوله:

تَبَـوَّأ مَمْنُـوع القُلُـوبِ وَمُهِّـدَت لَـه أَذْرُعٌ مَحْفُوفَـة وَنُحُـور

من أرق ما صور به الحنان، وما أوجع ما يقول:

عَصَـيْت شَـفِيع الـنَّفْس فيـه وَقَـادَني رَوَاح لِتَـدْآبِ السُّـرَى وبُكُـور
وَطَـار جَنَـاح البَـيْنِ بِي وَهَفَـت بِهَـا جَـوَانِح مِـن ذُعْـرِ الفِـرَاقِ تَطِـير

وانظر تصوير الحزم بقوله:

لَـئنْ وَدَّعَـت مِـني غَيُـورًا فَـإِنَّني عَلَـى عَـزْمَتِي مِـن شَـجوِها لَغَيْـور

وقول أبي نواس:

ولَمّـا أتَـتْ فُسْـطاطَ مِصْـرٍ أجارَهَـا علـى رَكبِهَـا أن لا تَـزَالَ مُجِـيرُ
مِـن القَـوْمِ بَسّـامٌ كـأنَّ جَبِينَـهُ سَـنَا الفَجْـرِ يَسْـري ضَـوءه ويُنِـيرُ
زَهَـا بالخَصِـيبِ السّـيْفُ والـرُّمحُ في وفي السِّـلْمِ يَزْهُـو مِنْبَـرٌ وسَـرِيرُ
جَـوَّادٌ إذَا الأيْـدِي كَفَفْـنَ عَـن النَّـدَى ومِـن دونِ عَـوْرَاتِ النِّسَـاءِ غَيُـورُ

لَـهُ سَـلَفٌ فِي الأعجَمِـين كَـأنَّهُمْ إذَا اسْـتُؤذِنُوا يَـوْمَ السَّـلامِ بـدُورُ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج:

تَلاقَـت عَلَيـه مِـن تَمِـيمٍ ويَعْـرُبٍ شُمُـوسٌ تَـلَألَأ فِي العُـلَا وَبُـدُورُ
مِـن الحِمـيَرِيْنَ الـذِين أكُفُّهُـم سَـحَائِبُ تَهْمِـي بِالنَّـدَى وبُحُـورُ
هُـو صَـدَّقُوا بِالـوَحْي حِينَ أتَاهُـمُ وَمَـا النَّـاسُ إلّا عَابِـدٌ وكَفُـور
مَنَاقب يَعيَا الوَصْف عَن كُنْه قَدْرِها وَيَرْجِـع عَنْهَـا الـوَهْم وَهْـو حَسِـير
ألا كُـلُّ مَـدْحٍ عَـنْ نَـدَاك مُقَصِّـرٌ وَكُـلُّ رَجَـاءٍ فِي سِـوَاكَ غُـرُور

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهرًا في أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله:

مَنَاقب يَعيَا الوَصْف عَن كُنْه قَدْرِها وَيَرْجِـع عَنْهَـا الـوَهْم وَهْـو حَسِـير

فهو ظاهر الغُلُو، واضح التكلف، أما قوله:

هُـو صَـدَّقُوا بِالـوَحْي حِينَ أتَاهُـمُ وَمَـا النَّـاسُ إلّا عَابِـدٌ وكَفُـور

فهو بيت ضعيف.

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفًا لا قيمة له، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال:

وَلَـوْ شَـاهَدَتنِي وَالهَـوَاجِر تَلْتَظِـي عَلَـيَّ وَرَقـرَاق السَّـرَاب يَمُـور
أسَـلِّط حَـرِّ الهَـاجِرَات إذَا سَـطَا عَلَى حُـرِّ وَجْهِـي وَالأَصِـيل هَجِـير
وأَسْتَنْشِـق النَّكْبَـاء وَهْـي لَـوَاقِح وأَسْـتَمطِئ الرَمْضَـاءَ وَهْـي تَفُـور
وَللمَـوْت فِي عَـيْن الجَبَـان تَلَـوُّنٌ وَلِلـذُّعْرِ فِي سَمْـع الجَـرِيء صَـفِير
وَلَـو شَاهَدتنِي وَالسُّرَى جُلُّ عَـزْمَتِي وَجَرْسِـي لِجِنَّـان الفَـلاَة سَمِـير
وَأَعْتَسِـف المَوْمَـاة فِي غَسَـق الـدُّجَى وَلِلأُسْـد فِي غِيـل الغِيَـاض زَئِـير

أَمِــيرٌ عَلَــى غُــول التَّنَــائِف مَالَــه ‏ ‏ إِذَا رِيــــعَ إلا المَشْــــرَفِي وَزِيـــــر

وَقَــدْ خَيَّلَــتْ طُــرْق المَجَــرّة أَنَّهَــا ‏ ‏ عَلَــى مَفْــرِق اللَّيْــل البّهِــيم قَتِــير

وَدَارَت نُجُــوم القُطْــبِ حَــتى كَأَنَّهَــا ‏ ‏ كئــوسُ طَلَــيّ والَى بِهِــن مُــدِير

لَقَــد أَيْقَنَــت أَنَّ المُــنَى طَــوْعَ هِمَّــتِي ‏ ‏ وَأَنِّي بِعَطْــفِ العَــامِرِيُّ جَــدِير

وهذا شعر جَزلٌ رصين، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيءٌ كثير [١] .

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال:

وَلَمــا تَوَافَــوا لِلسَّــلاَم وَرُفِّعَــت ‏ ‏ عَن الشَّمْسِ في أُفْقِ الشُّرْوق سُتُور

وَقَــد قَــام مِــن زُرْق الأَسِــنَّة دونَــه ‏ ‏ صُفُوف ومِن بِيضِ السُّيُوف سُطُور

رَأَوْا طَاعَــةَ الــرَّحْمن كَيْــف اعتِزَازُهَــا ‏ ‏ وَآيَات صُــنْع الله كَيْــف تُنِــير

وَكَيْــف اسْــتَوى بِالــبِرّ والبَحــرِ مَجْلِــسٌ ‏ ‏ وَقَــام بِعِــبءِ الرَّاسِــيَاتِ سَــرِير

فَسَــارُوا عِجَــالاً والقُلُــوب خَوَافِــقٌ ‏ ‏ وَأَدْنُــوا بِطَــاء والنَّــوَاظِر صُــور

يَقُولــون والإِجْــلاَل يُخْــرِس أَلسُــنا ‏ ‏ وَحَــازت عُيُــونٌ مِــنهُمُ وصُــدُور

لَقَــد حَــاطَ أَعْــلاَم الهُــدى بِــكَ حَــائِطٌ ‏ ‏ وَقَــدَّر فِيــكَ المَكْرُمَــات قَــدير

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحتري في هيبة اللقاء:

وَلَمَّــا قَضّــوا صَــدْر السَّــلاَم تَهَــافَتُوا ‏ ‏ عَلَــى يَــدِ بسَّــامٍ ســجيّته البــذْلُ

إِذَا شَــرَعوا في خُطبَــةٍ قَطَعَتهُمُــو ‏ ‏ جَلاَلَــة طلــق الوَجْــه جَانبُــه سهْل

إذا نَكَّسَــوا أبْصَــارَهُم مِــن مَهَابــةٍ ‏ ‏ وَمَــالوا بِلَحــظٍ خِلــت أنَهُمــو قُبْــل

نَصَــبتَ لَهُــم طَرفًــا حَديــدًا وَمَنطِقًــا ‏ ‏ سَــديدًا وَرَأيًا مِثْــل مــا انتُضِــي النَّصْــل

---

(١) أشرت من قبل إلى أن هذه القصيدة صارت كلها تحت يدي بفضل صديقنا القباج.

فَمَـا بَرِحْـوا حَـتَّ تَعَاطَـتْ أكُفُهْـم قِـرَاكَ ولا ضِـغْنٌ لَـدَيْهم ولا ذحـل

بِـك التـأمَ الشَّـعبُ الَّـذي كَـانَ بَيـنَهُم عَلـى حـين بُعْـدٍ مِنْـه واجْتَمَـع الشَّـمل

وأبيات البحتري في هيبة اللقاء انتهبها كثير من الشعراء. وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصري قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠م في مدح الملك فؤاد، فوجهت نظره إلى ما انتهب من معاني البحتري، فغضب، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبيس.

الفصل الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

١

نوازن في هذا البحث بين نونيّتين من شعر إسماعيل صبري وخليل مطران، ونرى من الخير أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره، ونبدأ فنذكر أنه ولد في ١٦ فبرايل سنة ١٨٥٤، وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣، وكان من رجال القانون، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية.

كان صبري شاعرًا مجيدًا، ولكنه لم يكن من المكثرين، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية، واتفق له أن يغّذَي الغناء حينًا من الزمان، وهو صاحب الموّال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات:

الفَجر أهُو لاحْ قُومُوا يَا تُجَّارْ النُّوم

عَجَب تَنَامُوا وعَيْنِي ما تُشوف النُّوم

نَزَلت بَحْر المَحَبَّة أحسِب أنَّهُ عُوم

غَرقْت قالُوا جَميع النَّاس تسْتَاهِل

عِشْق الجَمَال غَنْدَره اليُومْ وغِيْر اليُومْ

وهو صاحب هذا الدور:

قَـــــدَّكْ أمِــــير الأَغْصَــــان — مــــــنْ غــــــير مُكَـــــابِر

وَوَرْد خَـــــــدَّاك سُـــــــلْطَان — عَلَـــــــــى الأزَاهِـــــــــر

دَا الحُــــبّ كُلُّــــوا أَشــــجَان — يَا قَلْــــــــبِ حَــــــــاذِر

وَالصَّــــــدّ وَيَّا الهِجْـــــرَان جَـــــــزَا المُخَـــــــاطِر

دور

يَا قَلــــبِ أدِنْـــتَ حَبِّيـــت ورَجَعْـــــــت تِنْـــــــدَم

وَصَـــبَحت تِشْـــكِي مَـــا رأيـــت لَــــــكْ حِـــــدّ يِــــرحَم

صَــــدَّقْت قَـــولِي وَرَأيـــتْ ذُلَّ المُتَـــــــــيَّم ... ...

يَامَـــــا نَصَــــتَك وَنَهِيـــت لَــــو كُنْـــــت تفْهـــــم

دور

أعْـــــرض لحُسْـــــنك أوْرَاق وَاكْتُـــــــــــــــــب وَدَوِّن

وَأبَات صَـــــرِيع الأَشـــــوَاق وَاكْتُـــــــب وَخَمِّـــــــن

دَا هَجْـــر وصَـــبَابِة وَفِـــرَاق يَا رَبِّ هَـــــــــــــوِّن

وَارْحَــــم قُلُـــوب العُشَّـــاقْ دَا شـــــــيء يِجَـــــنِّن

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملحُون، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء، وقد ظَلَّت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمنًا غير قليل، وهي محفوظة في ألواح [1] .

ومضى صبري يَفتنُّ افتتانًا شائقًا في مغازلة الصباحة، وهو صاحب القصيدة المأثورة «تمثال جمال»، وفيها تظهر براعته في مناغاة الحسناء:

يا لِـــوَاءَ الحُســـنِ أَحـــزابُ الهَـــوى أَيقَظـــوا الفِتْنَـــةَ في ظـــلِّ اللِّـــواءِ

فَــــرَّقَتهُم في الهَـــوى ثَارَاتُهُـــــم فَـــاجمَعِي الأَمْـــرَ وَصُـــوني الأَبـــرِيَاء

إنَّ هـــذَا الحُسْـــنَ كَالمَـــاءِ الَّـــذي فيــــهِ للأَنفُـــسِ رِيٌّ وَشِـــفَاء

لا تَـــذُودِي بَعضَـــنَا عَـــن وِردهِ دُونَ بَعْـــضٍ واعـــدِلِي بَـــيْن الظِّمَـــاء

(١) نريد بالألواح: أسطوانات الغناء.

أنــتِ يَمُّ الحُسْـــنِ فِيـــهِ ازدَحَمَـــت سُـــفُنُ الآمَـــالِ يُزجِيهَـــا الرَّجَـــاء
يَقـــذِفُ الشَّـــوقُ بِهَـــا في مَـــائجٍ بَـــيْن لجُـــينٍ عَنَـــاءٍ وَشَـــقَاء
شِـــــدَّةٌ تَمضِـــــي وَتَأتِي شِـــــدَّةٌ تَقتَفِيهَـــا شِـــدَّةٌ هَـــل مِـــن رَجَـــاء
سَـــاعِفِي آمَـــالَ أنضَـــاءِ الهَـــوى بِقبـــولٍ مِـــن سَـــجَاياكِ رُخَـــاء
وَتَجَلَـــي وَاجعَلـــي قَـــومَ الهَـــوى تَحْـتَ عَـرش الشَّـمسِ بِالحُكْـم سَـوَاء
أقبِلِـــي نَســـتَقبِل الـــدُّنْيَا ومَـــا ضَـــمِنَته مـــن مُعَـــدَّات الهَنَـــاء
واسـفِري تِلـكَ حُلًـى مَـا خُلِقَـت لِتُـــــوَارِي بِلثَـــــامٍ أو خِبَـــــاء
واخطِـري بَـينَ النَّـدَامَى يَحلِفـوا أنَّ رَوضًـــا رَاحَ فِي النَّـــادِي وَجَـــاء
وانطِقـــي يَنثُـــرِ إذا حَـــدَّثتِنَا نَاثِـــرُ الـــدُّرِّ عَلَينَـــا مـــا نَشَـــاء
وَابسِـــمِي مَـــن كَـــان هـــذَا ثَغْـــرُهُ يَمـــلأ الـــدُّنيَا ابتِسَـــاما وازدِهَـــاء
لا تَخَـــافِي شَـــطَطًا مِـــن أنفُـــسٍ تَعثُـــرُ الصَّـــبوةُ فِيهَـــا بالحَيَـــاء
رَاضَـــتِ النَخـــوةُ مِـــن أخلاَقِنـــا وارتَضَـــى آدَابَنَـــا صِـــدْقُ الـــوَلاَء
فلَــــو امتَـــــدَّت أمَانِينــــا إِلَى مَلَــكٍ مــا كَــدَّرَت ذَاكَ الصَّــفَاء
أنـــــتِ رُوحَانِيَّـــــةٌ لا تَـــــدَّعِي انَّ هــذَا الشَّــكل مِــن طِــينٍ ومَــاء
وانزِعِـي عَـن جِسـمِك الثَّـوب يَـبِن لِلمَـــلَا تَكـــوِينُ سُـــكَّانِ السَّـــماء
وأَرِى الـــدُّنَيا جَنَـــاحَي مَلَـــكٍ خَلـفَ تِمثـالٍ مَصـوغٍ مِـن ضِـيَاء

وهو أيضًا صاحب الأبيات الحسان:

أَبُثُّـــكِ مَـــا بِي فَـــإن تَرحَمِـــي رَحِمـتِ أَخَـا لَوعَـةٍ مَـاتَ صَـبَّا
وَأَشـكُو النَّـوَى مَـا أَمَـرَّ النَّـوى عَلَـى هَـائمٍ إِن دَعَـا الشَّـوقُ لَـبَّى
وَأخشَـى عَلَيـكِ هُبُـوبَ النَّسِـيم وَإن هُـوَ مِـن جَانِـبِ الـرَّوضِ هَبَّـا

وَأَسـتَغفِرُ اللهِ مِـن بُرهَـةٍ ... مِـنَ العُمـرِ لَمْ تَلقَـني فِيـكِ صَـبًّا
تَعَـالَي نُجَـدِّد زَمَـانَ الهَنَـاءِ ... وَنَنهَـب لَيَالِيَـهُ الغُـرَّ نَهبَـا
تَعَـالي أَذُق بِـكِ طَعْـمَ السَّـلام ... وَحَسـبِي وَحسْـبُكِ مَـا كَـانَ حَـربَا

وهو الذي يقول:

تُمسِـي تُـذَكِّرُنَا الشَّـبَابَ وَعهـدَهُ ... حَسـنَاء مُرهَفَـةُ القَـوَامِ فَنَـذْكُر
تَثِـبُ القُلُـوبُ إلى الـرُّءوسِ إذَا بَـدتْ ... وَتُطِـلُّ مِـن حـدقِ العُيـونِ وَتنظُـرُ

وهذا من وثبات الخيال.

وريحان هذا العصر أم كلثوم تغنّي من شعره هذه الأبيات:

أَقصِر فُـؤادي فَمَـا الـذِكرى بِنَافِعـةٍ ... ولا بِشَـافِعَةٍ في رَدِّ مَـا كَـانَا
سَـلا الفُـؤَادُ الـذِّي شَـاطَرتَهُ زَمَنًـا ... حَمـلَ الصَّـبابَةِ فَـاخفِق وَحـدَكَ الآنَا
هَـلَّا أخَـذتَ لِهـذَا اليَـومِ أُهبَتَـهُ ... مِن قَبْلِ أَن تُصبِحُ الأَشـوَاقُ أَشْـجَانَا
لَهفِي عَلَيكَ قَضَيتَ العُمـرَ مُقتَحِمًـا ... في الوَصْـلِ نَارًا وفي الهِجْـرانِ نِـيرانا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء، وكانت له سهرات تفيض بالنمير العذب من الأدب الرفيع، وفي أواخر أيامه أمضّ المرض، فكانت زيارة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء، وصفه الأستاذ أنطون الجميّل فقال: «كان في عزلته يتطلع إلى أخبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح إلى أخبار القتال (١) ».

وألهمته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصوّر آلام اليائس المحزون:

كَـمْ سَـاعَةٍ آلَمَـنِي مَسُّـهَا ... وَأَزعَجَتـنِي يَـدُهَا القَاسِـيَه
فَتَّشْـتُ فِيهَـا جَاهِـدًا لَمْ أَجِـد ... هُنَيهَـةً وَاحِـدةً صَـافِيَه

---

(١) هذا معنى العبارة التي سمعناها من خطبة أنطون الجميل، وقد ضاق الوقت عن مراجعة الأصل، وأخشى أن أكون لونت العبارة بعض التلوين.

وَكَــم سَــقَتني المُــرَّ أُخْــتٌ لَهَــا ... فَرُحـــتُ أَشْـــكُوها إِلَى التالِيَــه

فَأَسْـــلَمَتني هـــذِه عَنْـــوَةً ... لِســاعَةٍ أُخــرَى وَبِي مَــا بِيَــه

وَيْحَــكَ يَا مِسْـكِينُ هَـل تَشْـتَكِي ... جَارِحَـــةَ الظُفْـــرِ إِلَى ضَـــارِيَه

حَـاذِر مِـنَ السّـاعات ويْـلٌ لِمَــن ... يَأمَــنُ تِلْــكَ الفِئَــةَ الطَّاغِيَــه

وَإِن تَجِــد مِــن بَينِهَــا سَــاعَةً ... جَعْبَتُهَــا مِــن غَصَــصٍ خَالِيَــه

فَالــهُ بِهَــا لَهْــوَ الحَكِــيم الَّــذِي ... لَمْ يُنْسِــه حَاضِــرُه مَاضِــيَه

وَامــرَح كَمَــا يَمْــرَحُ ذُو نَشــوَةٍ ... فِي قُلَّــةٍ مِــن تَحتِهَــا الهَاوِيَــه

فَهِــيَ وَإِن بَشَّــت وَإِن دَاعَبَــت ... مُحتَالَــــةٌ خَتّالَــــةٌ عَادِيَـــه

عِناقُهَــــا خَنْــــقٌ وَتَقبِيلُهَــــا ... كَمَــا تَعَــضُّ الحَيَّــةُ البَاغِيَــه

هــذَا هُــو العَــيشُ فَقُــل لِلــذِي ... تَجرَحُــــهُ الســـاعةُ والثانِيَـــه

يا شــاكِيَ الســاعاتِ أَسِمَــع عَسَــى ... تُنجِيــكَ مِنْهَــا السَّــاعَةُ القَاضِــيَه

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس، يدل على ذلك قصيدة (الفزع الأكبر) إذ يقول:

غَـاضَ مَـاءُ الحَيَـاءِ مِـن كُـلِّ وَجـهٍ ... فَغَــدَا كَــالِحَ الجَوَانِــبِ قَفْــرا

وَتَفَشَّــى العُقُــوقُ فِي النَّــاسِ حَــتَّى ... كَــادَ رَدُّ السَّــلاَمِ يُحسَــبُ بِــرَّا

أوجُــهٌ مِثلَمَــا نَثَــرْتَ عَلَــى الأَجْــدَا ... ثِ وردًا إِن هُــنَّ أَبْــدَين بِشْــرا

وَشِــفَاهٌ يَقُلْــنَ أهــلًا وَلَــو أَدَّيــنَ ... مَــا فِي الحَشَــا لَمَــا قُلــنَ خَــيرا

عَمْــرَكَ اللهَ هــلْ سَــلاَمُ وِدَادٍ ... ذَاكَ أَم حَــاوَلَ المُسَــلِّمُ أمْــرا

وفي هذه القصيدة يقول:

تَعِـبَ الفَيلَسـوفُ فِي النَّـاسِ عَصـرًا ... وَتَــوَلّى السَّــرائِرَ الــدِّينُ عَصــرا

والـــوَرَى طَـــارِدٌ إزاءَ طَرِيـــدٍ ... وَعُقَــابٌ يُمسِــي يُطَــارِدُ صَــقرا

وَجُيُــوشٌ يُفُــلُّ مِــن بَعضِــها البَعْــ ـضُ وهُضْـبٌ كُـبرى تُنَـاطحُ صُـغرَى

حَـــاذِرِي يا ذِئَابُ صَـــولَةَ أُســـدٍ مِنــكِ أَقــوَى نَابًا وأنفَــذُ ظُفْــرا

لا تَنَـــــامِي يا أُسْــــــدُ إنَّ ذِئَابًا لَمْ تَـنم مِـن رَوَابِـضِ الغَيـلِ أَضـرَى

عِبَـــرٌ كَلُّهَـــا اللَّيَـــالي ولكِــــن أيــنَ مَــن يَفــتَحُ الكِتَــابَ ويَقــرَا

وما أحب أن يفوتني إثبات هذه الأبيات:

يا سَــرْحَةً بِجِــوَار المَــاءِ نَاضِــرةً سَـقَاكِ دَمعَـي إذا لم يُـوفِ سـاقيكِ

عَـارٌ عَلَيـكِ وَهَـذا الظِّـلُّ مُنتَشِـرٌ فَتـكُ الهَجـير بِمِثلـي في نَواحيـكِ

فمَــن مُعِــيري جَنــاحَي طــائرٍ غَـرِدٍ كَــي أَقْطَــعَ شَــدوًا في أَعالِيــكِ

فَـلا أُنَفَّـرَ عَـن أَرضٍ غُرِسْـتِ بِهـا وَلا يَــرِنُّ بِسَــمْعِي غِــيرُ وَاديــكِ

يا سَــرْحَةً بِجِــوَار المَــاءِ نَاضِــرةً سَـقَاكِ دَمعَـي إذا لم يُـوفِ سـاقيكِ

وإنما أكثرنا من الشواهد؛ لأن شعر صبري لم يُجمَع في ديوان، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون، وكان صبري نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك، فيجيب: وهبته للفناء!

٢

أما مطران فهو شاعر مدبع، وهو من المكثرين، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول، وشعره مدوَّن نشرت منه المجموعة الأولى باسم - ديوان الخليل - وينتظر أن يُجمَع شعره كله في عدة أجزاء، وقد عرفنا مطران وصحبنا، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء، وله في النثر أسلوب مضمَّخ بالنفحات الشعرية، وهو رجل خصب الذهن، مثقف العقل، مرهف الإحساس. ومن خصائص مطران التلطف والترفق، فليس له في مصر عدو واحد، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين، فلما مات شوقي سمَّوه شاعر الأقطار العربية، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب.

وقد تولى رياسة جمعية أبولّلو في مصر بعد شوقي، وهي جمعية شعرية أثَّرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور إبراهيم ناجي، وهما من أكثر الناس تغنيًا بالشعر بين أدباء هذا الجيل.

٣

نونية صبري

فرعون وقومه:

لا القَـومُ قَـوْمي وَلا الأَعْـوانُ أَعَـواني ... إذا وَنَى يـــومَ تَحْصـــيلِ العُـــلا وَانِي
وَلَسْـــــتُ إن لَمْ تُؤَيِّــــدني فَراعِنَـــــةٌ ... مِـنْكُم بِفِرعَـون عـالِي العَـرشِ وَالشَّـانِ
لا تَقْرَبـوا النِّيـلَ إن لَمْ تَعْمَلـوا عَمَـلًا ... فَمَـاؤُهُ العَـذْبُ لَمْ يُخْلَـق لِكَسْـلانِ
رِدُّوا المَجَـــرَّةَ كَـــدًّا دونَ مَـــورِدِهِ ... أو فَـــاطْلُبوا غَيْـــرَهُ رِيًّا لِظَمـــآنِ
وَابْنُـوا كَمَـا بَنَـتِ الأَجْيـالُ قَـبلَكم ... لَا تَترُكــوا بَعْـدَكَم فَخْـرًا لإِنْسَـانِ
أَمَـــرْتُكُم فَـــأَطِيعوا أَمْـــرَ رَبِّكُـــم ... لا يَـثْنِ مُسْـتَمِعًا عَـن طَاعَـةٍ ثَانِي
فَالمُلْــكُ أَمْــرٌ وَطاعــاتٌ تُســابِقهُ ... جَنْبًـا لِجَنْـبٍ إلَى غـاياتِ إحْسـانِ
لا تَترُكــوا مُسْــتَحِيلًا في اِسْـتِحَالتِهِ ... حَـتَّى يُمِـيطَ لَكُـم عَـن وَجْـهِ إمْكـانِ

•••

مَقالَــةٌ هَــوَت مِــن عَــرْشٍ قائِلِهــا ... عَلــى مَناكِــبِ أَبْطــالٍ وَشُـــجْعانِ
مَـادَت لَهـا الْأَرْضُ مِـنْ ذُعْـرٍ وَدَانَ لَهـا ... مَـا في المُقَطَّـمِ مِـنْ صَـخْرٍ وَصَـوَّانِ
لَـوْ غَيْـرُ فِرعَـونَ أَلْقاهـا عَلـى مـلإٍ ... في غَـيْرِ مِصْـرَ لَعُـدَّت حُلْـمَ يَقْظـانِ
لَكِـنَّ فِرعَـونَ إن نادَى بِهـا جَـبَلًا ... لَبَّـت حِجارَتُـه في قَبْضَـةِ الْبـانِي
وآزَرَتـــهُ جَمـــاهيرٌ تَسِـــيلُ بِهـــا ... بِطــاحُ وادٍ بِمَاضــي القَــوم مَــلْآنِ
يَبنـونَ مـا تَقِـفُ الأَجْيـالُ حـائِرَةً ... أمامَـــهُ بَـــيْنَ إعْجـــابٍ وَإذْعـــانِ
مِـن كُـلِّ مـا لَمْ يَلِـد فِكْـرٌ وَلا فُتِحَـت ... عَلَــى نَظــائِرِهِ في الكَــوْنِ عَيْنــانِ

وَيُشْبِهونَ إذا طارُوا إلَى عَمَلٍ   جِنًّا تَطِيرُ بِأَمْرٍ مِنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا بِذي الأَمْرِ لا خَوْفًا وَلا طَمَعًا   لكِنَّهُم خُلِقُوا طُلّابَ إتْقانِ

•••

أَهْرامُهُم تِلْكَ حَيِّ الفَنَّ مُتَّخِذًا   مِن الصُخورِ بُروجًا فَوْقَ كِيوانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْها وَهْيَ ساخِرَةٌ   بِما يُضَعْضِعُ مِن صَرْحٍ وَإِيوَانِ
لَم يَأخُذِ اللَّيْلُ مِنْها وَالنَهارُ سِوَى   ما يَأخُذُ النَّمْلُ مِن أَرْكانِ ثَهْلانِ [1]
كَأنَّها - وَالعَوَادي في جَوانِبِها   صَرْعَى - بِناءُ شَياطِينٍ لِشَيْطانِ
جاءَتْ إِلَيْها وُفُودُ الأَرْضِ قاطِبَةً   تَسْعى اشتِياقًا إلى مَا خَلَّدَ الفانِي
فَصَغَّرت كُلَّ مَوْجُودٍ ضَخامَتُها   وَغَضَّ بُنْيانُها مِن كُلِّ بُنْيانِ
وَعادَ مُنْكِرُ فَضْلِ القَومِ مُعْتَرِفًا   يُثْنِي عَلَى القَوْمِ في سِرٍّ وَإِعْلانِ
تِلْكَ الهَيَاكِلُ في الأَمْصارِ شاهِدَةً   بِأَنَّهُم أهْلُ سَبْقٍ أَهْلُ إمْعانِ
وَأنَّ فِرعَونَ في حَولٍ وَمَقْدِرَةٍ   وَقَوْمَ فِرعَونَ في الإقْدامِ كُفؤانِ
إذا أَقامَ عَلَيْهِم شاهِدًا حَجَرٌ   في هَيكَلٍ قامَتِ الأُخْرَى بِبُرْهانِ
كَأنَّما هِيَ وَالأَقْوامُ خاشِعَةٌ   أمامَها صُحُفٌ مِن عالَمٍ ثانِي
تَسْتَقبِلُ العَيْنَ في أَثْنائِها صُوَرٌ   فَصِيحةُ الرَّمْزِ دارَتْ حَوْلَ جُدْران
لَو أَنَّها أُعْطِيَت صَوْتًا لَكانَ لَه   صَدًى يُرَوِّعُ صُمَّ الإنْسِ وَالجانِ

•••

أَيْنَ الأُلَى سَجَّلوا في الصَّخْرِ سِيرَتَهُم   وَصَغَّروا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطان
بادوا وَبادَتْ عَلَى آثارِهِم دُوَلٌ   وَأدرجوا طَيَّ أَخْبارٍ وَأكفانِ
وَخَلَّفُوا بَعْدَهُم حَرْبًا مُخَلَّدَةً   في الْكَوْنَ ما بَيْنَ أَحْجارٍ وَأَزْمانِ
وزُحْزِحُوا عَن بَقايَا مجدهم وَسَطا   عَلَيْهِمُ العِلْمُ ذاكَ الجاهِلُ الجانِي

---

(١) ثهلان: اسم جبل.

وَيْــلٌ لَــهُ هَتَــكَ الأَسْــتَارَ مُقْتَحِمًــا جَــــلال أَكْــــرَمِ آثارٍ وأَعْيــــان
لِلْجَهْـــلُ أَرْجَـــحُ مِنْـــهُ فِي جَهَالَتِـــهِ إِذا هُمَــــا وُزِنا يوْمًــــا بِميــــزانِ

٤

نونية مطران

قال، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر:

أَكْــبِرْ بِرَمْسِــيسَ مَيْتــاً لاَ يُلِــمُّ بِــهِ مَــوْتٌ وَأَكْــبِرْ بِــهِ حَيًّــا إِلَى الآنِ
لَــوْلا تَمَاثِيلُـــهُ الأُخْـــرَى مُحَطَّمَـــةً مَـا جَـالَ فِي ظَـنٍّ فَـانٍ أَنَّـهُ فَـانِ
فِي مِصْــرَ عَــزَّ فِـرْاعِينٌ فَمَـا بَلَغُــوا بِهَــا مَبالِغَــهُ مِــنْ رِفْعَــةِ الشَّــانِ
وَلَمْ يَــتِمَّ لَهَــا فِي غَــيْرِ مُدَّتِــهِ مَـا تَمَّ مِـنْ فَضْـلِ إِثْـرَاءٍ وَعُمْـرَانِ
تَخَيَّــرَ الخُطَّــةَ المُثْلَــى لَــهُ وَلَهَــا يَعْلُـو فَتَعْلُـو بِـهِ وَالخَفْضُ لِلشَّانِي (١)
مَـا زَالَ بِالقَـوْمِ حَـتَّى صَـار بَيْنَهُمُـو إِلَـــهَ جُنْـــدٍ تُحَابِيـــهِ وَكُهَّـــانِ
وَرَبَّ سَـــائِمَةٍ بَلْهَـــاءَ هَائِمَـــةٍ تَشْــقَى وَتَهْــوَاهُ فِي سِــرٍّ وَإِعْــلانِ
يَسُـومُهَا كُـلُّ خَسْـفٍ وَهْـيَ صَـابِرَةٌ لا صَـبْرَ عَقْـلٍ وَلَكِـنْ صَـبْرَ إِيمَـانِ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُـبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُـبٍ يَلُــوحُ مِنْــهُ لَهَــا مَعْبُودُهَــا الجَــانِي
فَبَجَّلَــتْ تَحْـتَ تَاجِ المُلْـكِ مُـدْمِيهَا وَقَبَّلَــتْ دَمَهَــا فِي المَرْمَــرِ القَــانِي
مُخَلَّـــدًا دُونَ مَــــنْ قَـــاموا برِفْعَتِـــهِ مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانِ (٢)
مُخَالِسًــا ذِمَّــةَ العَلْيَــاءِ مُضْــطَجِعًا مِـنْ مَهْـدِ عِصْـمَتِهَا فِي مَضْـجَعِ الزَّانِي
بِحَيْــثُ آبَ وَكُــلُّ الفَخْــرِ حِصَّــتُهُ وَلَمْ يَــــؤُبْ غَيْــــرُهُ إِلاَّ بِحِرْمَــــانِ

(١) الشانيء: هو المبعض، وفي القرآن: إن شانئك هو الأبتر».

(٢) الشوس: جمع أشوس، وهو المتكبر.

كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ ... فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

•••

كَلاَّ وَعِزَّتِهِ فِيما طَغَى وَبَغَى ... وَذُلَّ مَنْ قَبِلَ الضِّيزَى بِإِذْعَانِ

هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ ... قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانِ

وَهُمُ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا ... فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دَيَّانِ

فِيمَ الأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ ... رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ

وَمَا لأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ ... شُعْثًا مُنَكَّرَةً فِي رَمْسِ كِتمَانِ

لَيْتَ البِلادَ الَّتِي أَخْلاقُهَا رَسَبَتْ ... يَعْلُو بِأَخْلاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ

أَلنَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِي مَجَالِ عُلًا ... مِنْ بَارِدِ العَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانِ

أَكْرِمْ بِذِي مَطْمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ ... يَنْجُو الأَذِلاَّءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ

يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ ... مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ

بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ ... فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لأَوْطَانِ

فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا ... تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لأُحْدَانِ

كَم فِي سَنَا الكَوْكَبِ الوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ ... فِي كُلِّ لَمْحٍ لأَضْوَاءٍ وَأَلْوَانِ

لَمْ تَرْقَ فِي حَقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ ... فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ

لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ ... بِسَابِقِينَ إِلَى الغَايَاتِ شُجْعَانِ

أَلا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا ... بِأَوْجُهٍ بَادِيَاتِ البِشْرِ غُرَّانِ

وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسٌ مُقَدَّمُهُمْ ... إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانِ

الفصل التاسع والعشرون

الموازنة بين النونيتين

وإني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغرّاوات، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السُورتين من سُوّر الشعر الرفيع، وفي الشعر قرآن وإنجيل.

تفرد صبري بالحديث عن وصية فرعون، أو ما سماه مقالة فرعون، ويا لها من مقالة تصدع الصخر، وتنبت الحماسة في صدور الأموات، وقد مثّل الرجل هول المجد، وعظمة النيل، حين قال:

لا تَقْرَبـوا النّيـلَ إن لَم تَعْمَلـوا عَمَـلًا　　فَمَـاؤُهُ العَـذْبُ لَم يُخْلَـق لِكَسْـلانِ

رِدُّوا المَجَـرَّةَ كَـدًّا دونَ مَـوردِهِ　　أو فَـاطْلُبوا غَيْـرَهُ رِيًّا لِظَمـآنِ

وبذلك دلّنا صبري على أن المجد في مصر لا يُتاح لأهل الكسل والخمود، ولكن أي مجد؟ إن صبري لم يكن يتمثل المجد المزيّف الذي يرتدي أثوابه الوارثون، لم يكن صبري يرى المجد فيما يتمتع به العَجَزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبري، وبأمثالهم تزدهر الدنيا في المشرق والمغرب، ومن جهودهم تنبع العلوم والآداب والفنون، أما الهانئون الناعمون يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، لو تُركت أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام، وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد، ولا تذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدّ الساهر والعمل الموصول.

انظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس: أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك: أسَاقَته إليك يدك الصنَّاع أم كنت ضيفًا على مائدة غيرك؟ وانظر في ثيابك: أكانت خيوطها من خيوط الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطًا مصنوعة من الرجس الذي اقترفته بالتزلف والتملق والنفاق؟

قد تقول: إن صبري لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يُدريك؟ إن وصية فرعون تحتمل كل ذلك، وشريعة الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجود ذاتيّ تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد، وسبيل المعاش.

ثم ماذا؟ ثم يبَيِّن صبري أساس السياسة: سياسة الملك والعمران، حين قال على لسان فرعون:

أَمَــرْتُكُم فَــأَطِيعوا أَمْــرَ رَبِّكُــمُ ... لا يَــثْنِ مُسْــتَمِعًا عَــن طَاعَــةٍ ثَانِي

فَالْمُلْــكُ أَمْــرٌ وَطاعــاتٌ تُســابِقهُ ... جَنْبًــا لِجَنْــبٍ إِلَى غــاياتِ إِحْســانِ

اسمعوا هذا: «الملك أمر وطاعات»، وهل كان الملك غير ذاك؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العيناء، ولا أقول: العمياء.

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل، والطاعة العيناء هي صورة التنفيذ، والملوك الموفقون طاعتُهم رشدٌ وعصيانهم ضلال، وكان فرعون ربًّا، وكانت رعيته عبيدًا، كان ربًّا حكيمًا، وكانوا عبيدًا مخلصين، وقد رأيتم ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص.

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عيناء، ولم أجعلها عمياء، أتعرفون لماذا؟ لأن الشاعر جعل المصريين أبطالًا شجعانًا يقدمون في طاعتهم إقدام الأبرار حين قال:

مَقالَــةٌ قــد هَــوَت مِــن عَــرْشِ قائِلِهــا ... عَلَــى مَناكِــبِ أَبْطــالٍ وَشُــجْعانِ

مَــادَت لَهــا الْأَرْضُ مِــنْ ذُعْــرٍ وَدَانَ لَهــا ... مَــا في الْمُقَطَّــمِ مِــنْ صَــخْرٍ وَصَــوَّانِ

لَــوْ غَيْــرُ فِرعَــونَ أَلْقاهــا عَلــى مــلإٍ ... في غَــيْرِ مِصْــرَ لَعُــدَّت حُلْــمَ يَقْظــانِ

لَكِــنَّ فِرعَــونَ إن نادَى بِهـا جَــبَلًا لَبَّــت حِجارَتُـــه في قَبْضَـــةِ الْبـــانِي

وآزَرَتـــــهُ جَمــــاهيرٌ تَسِـــــيلُ بِهـــــا بِطـــاحُ وادٍ بِماضــي القَــومِ مَــلْآنِ

يَبنــونَ مــا تَقِــفُ الأَجْيــالُ حــائِرَةً أمامَـــهُ بَـــيْن إعْجـــابٍ وَإذْعـــانِ

مِـن كُـلِّ مـا لَمَ يَلِـد فِكْـرٌ وَلا فُتِحَـت عَلـــى نَظـــائِرِهِ في الكَـــوْنِ عَيْنـــانِ

وَيُشْـــبِهونَ إذا طـــارُوا إلَى عَمَـــلٍ جِنَّـــا تَطِـــيرُ بِأَمْـــرٍ مِـــنْ سُـــلَيْمَانِ

بِـرًّا بِـذي الأَمْـرِ لا خَوْفًـا وَلا طَمَعًـا لكِــنَّهُم خُلِقُــوا طُـــلّابَ إتْقـــانِ

وهذه القطعة تصوَّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون: فهو رب يأمر بالرشد، وهم عباد مخلصون «لا يطيعون خوفًا ولا طمعًا، وإنما يقبلون على المجد؛ لأنهم خُلِقوا طلاب إتقان»، وفي هذا المعنى سر عظيم، فالمجد لا ينهض به الملوك وحدهم، وإنما المجد صنيعة الأبرار بين الشعوب، والملك نفسه من روح شعبه، هو الجذوة التي نجد فيها نمس أصول اللهب المكبوت، ولو قام نبي بين الأموات وصرخ لما استجاب له مجيب، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس خيرة كمن فيها البر كما تكمن النار في الصخرة الصماء، والمصريون لعهد الفراعين كانوا «طلاب إتقان» وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون، وكانت أيديهم مفطورة على المهارة، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل، وعزائمهم مقدودة من الصوان، وكانت إرادة الملوك مظهرًا من إرادتهم الذاتية، فكان خضوعهم خضوع الأشراف لا خضوع العبيد. ومن ذا الذي يسمح له كرم الذوق، وشرف العقل، أن يحكم بأن قصر الكرنك لم يكن إلا مشيئة رجل فرد! إن في خرائب ذلك القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين تولوا هندسته وبناءه كانوا مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك وهو سلطان الفن وسلطان الجمال.

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعًا دون قصر الكرنك، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساي، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في تصور الانسجام بين الجمال والجلال.

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب؛ لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيدًا مسخَّرين يؤمَرون فيأتمرون، وماذا قال مطران! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال:

مَـا زَالَ بِالقَـوْمِ حَـتَّى صَـار بَيْـنَهُمُ ... إِلـــهَ جُنْـــدٍ تُحَابِيـــهِ وَكُهَّـــانِ

وَرَبَّ سَـــائِمَةٍ بَلْهَـــاءَ هَائِمَـــةٍ ... تَشْـقَى وَتَهْـوَاهُ فِي سِـرٍّ وَإِعْـلانِ

يَسُـومُهَا كُـلَّ خَسْـفٍ وَهْـيَ صَـابِرَةٌ ... لا صَـبْرَ عَقْـلٍ وَلَكِـنْ صَـبْرَ إِيمَـانِ

إِنْ بَاتَ فِي حُجُـبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُـبٍ ... يَلُـوحُ مِنْـهُ لَهَـا مَعْبُودُهَـا الجَـانِي

فَبَجَّلَـتْ تَحْـتَ تَاجِ المُلْـكِ مُـدْمِيهَا ... وَقَبَّلَـتْ دَمَهَـا فِي المَرْمَـرِ القَـانِي

مُخَلَّـدًا دُونَ مَـنْ قَـاموا برِفْعَتِـهِ ... مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَان [1]

مُخَالِسًـا ذِمَّـةَ العَلْيَـاءِ مُضْـطَجِعًا ... مِـنْ مَهْـدِ عِصْـمَتِهَا فِي مَضْـجَعِ الـزَّانِي

بِحَيْـثُ آبَ وَكُـلُّ الفَخْـرِ حِصَّـتُهُ ... ولَمْ يَـــؤُبْ غَيْـــرُهُ إِلاَّ بِحِرْمَـــانِ

كَـمْ رَاحَ جَمْـعٌ فِـدَى فَـرْدٍ وَكَـمْ بُـذِلَتْ ... فِي مُشْـــتَرَى سَـــيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْـــدَانِ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين، ولكن أين المنطق؟

إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه في السر والعلانية، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف. وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين، لا صبر العقلاء. ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية، وهو ظالم! كيف تَهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضيم والذل؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى، كنت تستطيع أن تقول: أنها كانت تخضع أو كانت تطيع، فالخضوع قد يكون عن ضعف، والطاعة قد تكون عن عجز، أما الهوى فلم يكون إلا عن بينة من نور القلوب.

---

(١) الشوس: جمع أشوس، وهو المتكبر.

إن مطران يصور الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن تتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود، وهل يُعبد الظالمون؟ كل شيء يُقبل إلا هذا، فالظالم لا يُعبد إلا حين يتمثل فيه العابدون ملامح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق ... إنك لَشاعر حين تقول:

فَبَجَّلَــتْ تَحْــتَ تَاجِ الْمُلْــكِ مُــدْمِيهَا   وَقَبَّلَــتْ دَمَهَــا فِي الْمَرْمَــرِ الْقَــانِي

ولكن أين المنطق؟ إن الفراش يحترق، وهو يغازل النور، ولكنه يعشق النور عشقًا يهوّن عليه قسوة الاحتراق، فمن أين علمت أن رعية فرعون لم تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت عنك، وقد جئت تغمزه بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال، وللسنين رمال، وفيها زوابع وأعاصير، رمالٌ من النسيان، وزوابع من العقوق.

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون، لا بد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرقة في أنفس من تعبوا في نحته وتذوقوا في سبيل روعته طعم الضجر والعناء، وللتعب طعم معسول في أذواق من يعرفون ما يصنعون [1] .

ثم ماذا؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبد بالمجد، واستبدّ بالخلود، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال.

رويدك أيها الشاعر، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنّة طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصر على رمسيس؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات في الأقطار الفرنسية والإنجليزية والجرمانية؟ قد تذكر أسماء بعض المهندسين، ولكن انتظر حتى يمر على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندي لك نسخة مذهبة من ديوان

---

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتخذ الأقصر قاعدة الملك، ومع ذلك وجدت تماثيله في جهات مختلفة من المدائن المصرية، وهذا يدل على أنه كان محبوبًا جدًا من الأهلين.

مطران!

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت، وهو من وحي شيطانك الرجيم:

مُخَالِسًـــا ذِمَّـــةَ العَلْيَـــاءِ مُضْـــطَجِعًا مِـنْ مَهْدِ عِصْـمَتِهَا فِي مَضْـجَعِ الـزَّانِي

فما هذا الدنس في التصوير؟ وما هذا الرجس في التمثيل؟

أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس؟ إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء، وقد وصل المصريون في عهد رمسيس إلى أشياء: كانوا لعهده من الغزاة الفاتحين، وكانوا لعهده أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون، فلك أن تتصور إلى أي غاية من غايات الفُتوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول:

فِي مِصْـــرَ عَـــزَّ فِـــرْاعِينٌ فَمَـــا بَلَغُـــوا بِهَـــا مَبالِغَـــهُ مِـــنْ رِفْعَـــةِ الشَّـــانِ

وَلَمْ يَـــتِمَّ لَهَـــا فِي غَـــيْرِ مُدَّتِـــهِ مَـــا تَمَّ مِـــنْ فَضْـــلِ إِثْـــرَاءٍ وَعُمْـــرَانِ

أتراه كان يحرث الأرض بيديه؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين؟

إن ما تم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية، وهل تخلص الرعية لجبار مستبد غَشوم؟

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح، قوانين من أنس القلوب بالقلوب، وقرب العقول من العقول، ولا بد أن يكون رمسيس الثاني ظفر في زمانه بقَبَس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع بها وهو فَرد أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد، فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف.

إن الذي يزور وادي الملوك في الأقصر، أو يزور وادي اللوار في فرنسا يقول: «كانت هناك أمة» قبل أن يقول: «كان هنا ملك» ولكن قضت سنة الخلود أن يكون في كل أرض جنديٌّ مجهول، والجنود المجهولون ليسوا في عُرف المجد بنكرات، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التي أقلّته من مكان إلى مكان، وكل نقش خُلد يحمل اسم

الفنّان الذي تعب فيه، وإن لم تشهد بذلك رسوم، ولا حروف، وسيأتي زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا ترى العيون، وقد سَبَقنا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلًا في خلود التماثيل.

من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية، ولكن في أي آذان؟ في آذان من يقرءون ولا يفقهون، أما الأمة التي خلدت رمسيس فهي باقية في ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك، على أيامه السلام.

وما هذا الظلم الذي تقترف أيها الشاعر، وأن تتمثّل ذلك الفرعون وهو في مضجع الداعرين؟

أنت تقول: إنه سَخر الشعب، وهل تعرف كيف تُسخر الشعوب؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية)، وهم جماعة من الممثلين يُعدون على أصابيع اليدين، وإن زادوا فهم يُعدون على أصابع اليدين والرجلين، فكيف تنتظر أن يُسخِّر رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصاريف الحرب، وإلى تكاليف السلم؟ أيفعل ذلك وهو يتَمَطى ويَتَثاءب تحت أشجار الجميز؟ أم يفعل ذلك وهو عقلٌ يفكر، ورأيٌ يُدبر، ولسانٌ يُبين؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته، وفيه خمس أنفس، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ، فمن عسى أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعَد بالملايين، ولكل قلب شهوات ولكل رأس نزوات، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقود! إن الملك الذي يجمع طوائق شعبه على رأي واحد لهو رَجُل سَحَّارٌ خلُقت إرادته من كل قلب، فسيطر على كل نفس، ووضع على عصره يدًا من حديد، وكذلك كان رمسيس الذي غمزته في شعرك غمزة لا رفق فيها ولا إشفاق.

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين؟

لقد فكرت في ذلك طويلًا، ثم بدا لي أن أرجع إلى الظرف الذي نظم فيه هذه القصيدة العصماء، فوجدت الدكتور محمد صبري يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة، ثم

أرسل إلى الأستاذ محمد أبياتًا لينشرها بالمؤيد، وأبيات مطران هي أصل ما في النونية، وفيها يقول عن فرعون:

شَادَ فأعلَى وَبَنَى فَوَطَّدا ... لا لِلعُلا وَلا لَهُ بَل لِلعِدا
مُسْتَعْبِداً أُمَّتَهُ في يَومِهَ ... مُسْتَعْبِداً بِنِيهِ لِلعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام:

إِنِّي أرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَا هُنا ... خَلائِقًا تَكْثُر أن تُعَدَّدَا
مُجْتَمِعِينَ أَبْحُرًا مُنْفَرِعِينَ أَنْهُرًا مُنْحَدِرِينَ صُعَّدَا
صُفْرَ الوجُوهِ نَاديًا جِبَاهُهُمْ ... كَالْكَلإِ اليَابِسِ يَعْلُوهُ النَّدَى
أَكُلّ هذي الأَنْفُسِ الهَلْكَى غَدًا ... تَبْنِي لِفَانٍ جَدَثاً مُخَلَّدا

وهذا من الشعر الحق، والشاعر يتمثل نفسه واقفًا ينظر العمال وهم يبنون الأهرام، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حدا إسماعيل صبري على نظم نونيته الشماء.

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود تليفونيًّا، وسألته متى نشر دالية مطران، فأجاب إنه لا يذكر بالضبط، وإنما يعرف أنه ترك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦م.

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمز الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد.

قد يسأل القارئ: وما خطر ذلك في هذه القضية؟

ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة تغلي غيظًا وحقدًا على السلطان عبد الحميد، وكان الناس في أكثر البلاد يرون في صورة عبد الحميد وجه الجبار السفاح، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى بعضهم بالشنق، الآن عرفنا من كان يعني مطران وهو يحارب رمسيس، إنه كان يحارب عبد الحميد وإن لم يخطر له ذلك على باله، ومهمة النقد الأدبي، هي إماطة اللثام عن المقنع من ضمائر الرجال.

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته؛ لأن مصر في ذلك الحين كانت ترى عبد الحميد خليفة المسلمين؛ ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغاضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف، على حين يجأر الخطباء فوق المنابر بالدعاء له، ويتَنسَّم الجمهور أخباره في المساجد والأسواق.

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس:

هُـمُ الَّـذِينَ عَلَـى عُسْـرٍ بِمَطْلَبِـهِ ... قَـدْ أَسْـعَفُوهُ بِأَمْـوَالٍ وَفِتْيَـانِ

وَهُـمُ عَلَـى سَـفَهٍ دَانُـوا بِمَـنْ نَصَـبُوا ... فَخَوَّلُـوهُ مَـدِينًا حَـقَّ دَيَّانِ

فِـيمَ الأُلَى صَـنَعُوا أَنْصَـابَهُ دَرَسَـتْ ... رُسُـومُهُمْ مُنْـذُ بَاتُـوا رَهْـنَ أَكْفَـانِ

وَمَـا لأَسْمَـائِهِمْ دُونَ اسْمِـهِ دُفِنَـتْ ... شُـعْثًا مُنَكَّـرَةً فِي رَمْـسِ كِتمَـانِ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد، الرجل الداهية الذي طوّق عصره بطوقٍ من فولاذ، واستطاع السيطرة والبطش عددًا من السنين.

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بألسنَةٍ حداد.

تلك كانت نفسية مطران، أما نفسية صبري فكانت مَلكية أكثر من المَلك، كان صبري فيما أفترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد، أو كان على الأقل من المحايدين، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت في رأسه العصبية المصرية، وانطلق يقول في تمجيد الفراعين:

أَيْنَ الأُلَى سَجَّلوا في الصَّخْرِ سِيرَتَهُم ... وَصَـغَّروا كُـلَّ ذِي مُلْـكٍ وَسُـلْطان

بادوا وَبادَتْ عَلَـى آثارِهِـم دُوَلٌ ... وَأدرِجـوا طَـيَّ أَخْبـارٍ وَأكفـانِ

وَخَلَّفُـوا بَعْـدَهُم حَـرْبًا مُخَلَّـدَةً ... في الْكَـوْنَ مـا بَـيْنَ أَحْجـارٍ وَأَزْمـانِ

فالمعارضة بين صبري ومطران لم تكن معارضة بين رجلين، وإنما كانت معارضة بين

حزبين، والشعر الذي نقرؤه ونتغنى به لا يمثل عواطف فردية في أغلب الأحيان، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح.

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب؛ لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَت خُلوًّا ظاهريًّا من المعنى الذي عرضناه، ولكن الناقد الذي يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصعب عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول.

١

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعبادًا مثل استعباد رمسيس، استعبادًا ترتفع به هاماتهم في الدنيا فيقفون مواقف الرجال.

ولننظر كيف يقول:

لَيْتَ البِلادَ الَّتِي أَخْلاقُهَا رَسَبَتْ ... يَعْلُو بِأَخْلاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ
النَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِي مَجَالِ عُلًا ... مِنْ بَارِدِ العَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانِ
أَكْرِمْ بِذِي طمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ ... يَنْجُو الأَذِلاَّءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ
يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ ... مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ
بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ ... فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لأَوْطَانِ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا ... تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لأُحْدَانِ
كَم فِي سَنَا الكَوْكَبِ الوَهَّاجِ مَهْلَكَةٍ ... فِي كُلِّ لَمْحٍ لأَضْوَاءٍ وَأَلْوَانِ
لَمْ تَرْقَ فِي حَقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ ... فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ
لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ ... بِسَابِقِينَ إِلَى الغَايَاتِ شُجْعَانِ
أَلا نَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا ... بِأَوْجُهٍ بَادِيَاتِ البِشْرِ غُرَّانِ
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسٌ مُقَدَّمُهُمْ ... إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانِ

هذا هو الشعر في منطق الحكماء، الآن يتمنى مطران لو أتيح للبلاد الهوامد أن تظفر

بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام، الآن يرى النار أرفق بالشعوب من العيش الوادع في ظلال الترف واللين، والآن يُرحب بطمع الطامعين الذين ينجو بهم الأذلاء من الخسف والخسران فينقلون من خفض العيش إلى ميادين القتال، الآن يرى من سنن المجد أن تفنى الجموع في سبيل الأفراد، ويرى بعين الشاعر أن سَنَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان، الآن يرى أن رمسيس الثاني رفع قومه بين الناس، وجعل وطنه فوق الأوطان، الآن يقرأ ما نقش على الصروح؛ ليرى كيف كان البشر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين.

فما معنى ذلك؟ أيكون معناه أن مطران وقع في تناقض؟

لا! لم يقع في تناقض، وإنما عرض صورتين مختلفتين: الصورة الأولى في معايب الاستبداد، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد، ولكل حقيقة وجهان: أحدهما دميم، والآخر جميل.

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وثب إليها صبري، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جولة شعرية عرض فيها لتقبيح الظلم والتنكيل بالظالمين، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول، هو وثبةٌ شعبيةٌ تجول بالصدور في كل أرض، وفي كل جيل.

فلنسجل الآن أن مطران تفرد في نونيته بهذه المحاولة العقلية، وهي عرض جانبين من الرأي في قصيدة واحدة، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون.

ولنذكر أن بيت القصيدة في نونية مطران هو قوله وقد راعته العظمة في تمثال رمسيس:

لَـــوْلا تَمَاثِيلُـــهُ الأُخْـــرَى مُحَطَّمَـــةً مَـــا جَـــالَ فِي ظَـــنّ فَـــانٍ أَنَّـــهُ فَـــانِ

وما أحب أن نضيع الفرصة بدون أن أوجه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك التمثال، وليتهم يفكرون في نقله من الأقصر لينصب في ميدان باب الحديد، أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية لينصبوها في ميدان الكونكورد فتوحي إلى

شعرائهم آيات الشعر الرفيع، ونعجز نحن عن نقل تمثال رمسيس ليُنصب في ميدان باب الحديد، فيكون شاهدًا على ماضي مصر في إعزاز العظَمة مخلّدةً بروائع الفن الجميل.

٢

نظم صبري قصيدته ليرد على مطران فكان لا بدّ له من وقفة يشرح بها ما في الأهرام من جلال:

أَهْــرامُهُم تِلْــك حَــيِّ الفَــنَّ مُتَّخِــذًا ... مِــن الصُــخورِ بُروجًــا فَــوْقَ كِيــوانِ
قَــدْ مَــرَّ دَهْــرٌ عَلَيْهــا وَهْــيَ ســاخِرَةٌ ... بِمــا يُضَعْضَــعُ مِــن صَــرْحٍ وَإِيــوَانِ
لَمْ يَأخُــذِ اللَّيْــلُ مِنْهــا وَالنَهــارُ سِــوَى ... مــا يَأخُــذُ النَّمْــلُ مِــن أَرْكــانِ نَهْــلانِ

أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلا بمقدار ما يأخذ النمل من أركان الجبل! لقد تمرد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تخدش معاولهم غير الطلاء.

وما هذا البيت:

كَأنَّهَــا – وَالعَــوَادي في جَوانِبِهــا ... صَــرْعَى – بِنــاءُ شَــياطِينٍ لِشَــيْطانِ

ما هذا البيت! من القليل أن نقول: إنه بيت القصيد، فإن جملة «والعوادي في جوانبها صرعى» من أرواع وثبات الخيال، وما أجدر هذا البيت أن ينقش على الأهرام ليكون صفحة جديدة في سِفر الفنون.

ثم ماذا يا صبري؟ ماذا تقول في أحجار الأهرام؟ أتقول:

كَأنَّمَــا هـــيَ وَالأَقْـــوامُ خاشِـــعَةٌ ... أمامَهـــا صُــــحُفٌ مِـــن عـــالَمٍ ثاني
تَسْـــتَقبِلُ العَـــيْنَ في أَثْنائِهـــا صُـــوَرٌ ... فَصِـيحةُ الرَّمْــزِ دارَتْ حَــوْلَ جُــدْران
لَــو أَنَّهَــا أُعْطِيَــت صَــوْتًا لَكــانَ لَــه ... صَــدىً يُــرَوِّعُ صُــمَّ الإِنْــسِ وَالجــانِ

ما هذا الشعر أيها الناس؟ هذا هو السحر الحلال الذي سمعنا باسمه في أخبار الأولين.

أما بعد: فإني أكاد أحكم بأن الشاعر إسماعيل صبري هو الذي سنَّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي، أليست ضادية شوقي مما نُظمَ بعد نونية صبري؟

إن كان فيما أحكم به شيء من الحق فإسماعيل صبري إمام أهل هذا العصر في الإشادة بآثار الفراعين.

وليس المجال في هذا الحديث بمتسع لدرس ضادية شوقي في قصر أنس الوجود، فليرجع إليها القارئ في الجزء الثاني من الشوقيات، وليتذكر أن قول شوقي:

رُبَّ سِــــرٍّ بِجَانِبِيْـــك مُـــذَالٍ كَـانَ حَـتَّى عَلَّـى الْفَـراعِنِ غَمْضَـا

إنما أخذ من قول صبري:

وزُحْزِحُــوا عَــن بَقــايَا وَسَــطا عَلَـيْهِمُ العِلْـمُ ذاكَ الجاهِـلُ الجـاني

وَيْــلٌ لَــهُ هَتَــكَ الأَسْــتَارَ مُقْتَحِمًـا جَــلال أَكْــرَمِ آثارٍ وأَعْيَــان

للْجَهْــلُ أَرْجَــحُ مِنْــهُ في جَهَالَتِــهِ إذا هُمَــا وُزِنا يوْمًــا بِميــزانِ

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ

الفصل الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان: قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه.

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صنعت يوم قضت بالنصر للمأمون.

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي: في سنة ١٩٣هـ. وأبو نواس ولد سنة ١٤١هـ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد.

وإنما اهتممنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا النواس كان يجدّ كل الجد في التحسر على ملاعب الشباب، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين، واثنتان وخمسون سنة تهد عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكئوس، وزوابع الدسائس والنمائم، وأعاصير الجد العاثر والزمن الكنود.

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين يبكون الديار ويقفون على الأطلال، كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكئوس والرياحين والوجوه الصباح ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمَن العافيات، فلما فعلت الاثنتان والخمسون فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه، تلفت فرأى الديار مما يستحق البكاء ... والله يعلم أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل وهو يقول:

يا دارُ! مـــا فعَلَـــتْ بـــكِ الأيّامُ　　　لم يبـــقَ فيـــكِ بشاشـــة تشـــتامُ

عَـرَمَ الزّمـانُ عَلَـى الّـذينَ عهـدتَهمْ　　　بـكِ قـاطِنِين وللزّمـان عُـرامُ [1]

أيّامَ لا أغْشَـــى لأَهْلِـــكِ مَنْـــزِلًا　　　إلاّ مُرَاقَبَـــة علـــيّ ظَـــلامُ [2]

وأبو نواس في هذه الأبيات يقاسي لوعتين: لوعة الوجد على الدار التي ذهبت ببشاشتها الأيام، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أجلَتْهم عن دار الهوى أحداث الزمان، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل أيام كان يتذوق حياة يراها الشاعر أرق من النجوى، وأطيب من شهيِّ العتاب.

ثم أنظروا هذه الصورة، صورة الفتك، في هذا البيت:

ولقـد نَهَـزْتُ مـع الغُـوَاةِ بِـدَلْوِهِمْ　　　وأَسَمْـتُ سَـرْحَ اللّهْـوِ حيـثُ أسـاموا

تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب، ثم انظروا كيف جمع أطراف المغامرات الجنونية، مغامرات اللهو والشباب.

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال:

وبلَغــتُ مـــا بَلَـــغَ امـــرُؤٌ بشَـــبابِهِ　　　فـــإذا عُصـــارَة كـــلّ ذاكَ آثامُ

الله أكبر، هذا هو الشعر، وذلك هو الشاعر أبو نواس!

قصيدة أبي نواس عدَتها عشرون بيتًا، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتًا، ولكن هذه الأبيات الخامسة، أو هذه الفاتحة في السُورة النواسية هي التي هاجت البارودي، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاه، فقال:

ذَهَـــبَ الصِّـــبَا وَتَوَلَّـــتِ الأَيَّامُ　　　فَعَلَـى الصِّـبَا وَعَلَـى الزَّمَـانِ سَـلامُ

تَاللهِ أَنْسَـــى مَـــا حَيِيـــتُ عُهُـــودَهُ　　　وَلِكُـــلِّ عَهْـــدٍ فِي الْكِـــرَام ذِمَـــامُ

---

(١) العرام. الشدة والعنف.

(٢) جملة (على الظلام) جملة حالية.

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس، وأكاد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف، فإن نفثته لم تكن نفثة ملتاع، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف، ومفتون بأخلاق الماجدين، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان الماجنين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمال الأبطال.

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برؤوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون، على نحو ما كان ندمان أبي نواس، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات، وإنما يعاقرون الكأس في القصور، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس، ومعاني الجود.

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجّد، وتلك حال من يعقل، لا حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع.

وانظروا كيف يقول:

إذ نَحْــنُ فِي عَــيْشٍ تَــرِفُّ ظِلالُــهُ ... وَلَنَــــا بِمُعْـــتَرَكِ الْهَـــــوَى آثَامُ

تَجْـرِي عَلَيْنَـا الْكَـأْسُ بَـيْنَ مَجَـالِسٍ ... فِيهَـــا السَّــــلامُ تَعَـــانُقٌ وَلِـــزَامُ

فِي فِتْيَـــةٍ فَـــاضَ النَّعِـــيمُ عَلَـــيْهِمُ ... وَنَمَـــاهُمُ التَّبْجِيـــلُ وَالإِعْظَـــامُ

ذَهَبَـتْ بِهِـمْ شِـيَمُ الْمُلُـوكِ فَلَـيْسَ فِي ... تَلْعَـــابِهِمْ هَـــــذْرٌ وَلا إِبْـــــرَامُ

لا يَنْطِقُـــونَ بِغَـــيْرِ آدَابِ الْهَـــوَى ... سُمْـحُ النُّفُـوسِ عَلَـى الْـبَلاءِ كِـرَامُ

مِــنْ كُــلِّ أَبْلَــجَ يُسْتَضَــاءُ بِنُــورِهِ ... كَالْبَـــدْرِ حَلَّـــى صَـــفْحَتَيْهِ غَمَـــامُ

سَــهْلُ الْخَلِيقَــةِ لا يَسُــوءُ جَلِيسَــهُ ... بَـــيْنَ الْمَقَامَـــةِ وَاضِــــحٌ بَسَّــــامُ

مُتَوَاضِــــعٌ لِلْقَـــوْمِ تَحْسَـــبُ أَنَّـــهُ ... مَــوْلًى لَهُــمْ فِي الــدَّارِ وَهْــوَ هُمَـامُ

تَرْنُـــو الْعُيُـــونُ إِلَيْـــهِ فِي أَفْعَالِـــهِ ... وَتَسِـــيرُ تَحْـــتَ لِوَائِـــهِ الأَقْـــوَامُ

فَـــإِذَا تَكَلَّــمَ فَـــالرُّءُوسُ خَوَاضِـــعٌ ... وَإِذَا تَنَـــاهَضَ فَالصُّـــفُوفُ قِيَـــامُ

نَلْهُـو وَنَلْعَـبُ بَـيْنَ خُضْـرِ حَـدَائِقٍ لَيْسَـتْ بِغَـيْرِ خُيُولِنَـا تُسْـتَامُ
حَـتَّى انْتَبَهْنَـا بَعْـدَ أَن ذَهَـبَ الصِّبَا إِنَّ اللَّـذَاذَةَ وَالصِّـبَا أَحْـلامُ

وهذا الشعر في غاية الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه، فهؤلاء الندمان العابثون هم رجال أعمال، وليسوا فتيان غواية، هم أقطاب الحرب، وأعلام السلم، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى، والإثم ألوان: هناك إثم الأطفال، وهناك آثام الأبطال، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس. هيهات، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجمل والتعقل والافتعال، وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطياف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت: إن الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب، ومن أجل ذلك أيضًا نراه يتكلف الحكمة إذ يقول:

لا تَحْسَـبَنَّ الْعَـيْشَ دَامَ لِمُتْـرَفٍ هَيْهَـاتَ لَـيْسَ عَلَـى الزَّمَـانِ دَوَامُ
تَأْتِي الشُّـهُورُ وَتَنْتَهِـي سَـاعَاتُهَا لَمْـعَ السَّـرَابِ وَتَنْقَضِـي الأَعْـوَامُ
وَالنَّـاسُ فِيمَـا بَـيْنَ ذَلِـكَ وَارِدٌ أَوْ صَـادِرٌ تَجْـرِي بِـهِ الأَيَّامُ
لا طَـائِرٌ يَنْجُـو وَلا ذُو مِخْلَـبٍ يَبْقَـى وَعَاقِبَـةُ الْحَيَـاة حِمَـامُ

كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء، أما البارودي فقد قصر قصيدته على شجون قلبه وهموم دنياه، فرأيناه يندفع في وصف الخمر فيقول:

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ بِالْكَـأْسِ فَهْـيَ عَلَـى الْهُمُـومِ حُسَـامُ
فَـالْعَيْشُ لَـيْسَ يَـدُومُ فِي أَلْوَانِـهِ إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْـهِ الجَـامُ
مِـنْ خَمْـرَةٍ تَـذَرُ الْكَبِـيرَ إِذَا انْتَشَـى بَعْـدَ اشْـتِعَالِ الشَّـيْبِ وَهْـوَ غُـلامُ
لَعِـبَ الزَّمَـانُ بِهَـا فَغَـادَرَ جِسْـمَهَا شَـبَحًا تَهَافَـتُ دُونَـهُ الأَوْهَـامُ
حَمْـرَاءُ دَارَ بِهَـا الْحَبَـابُ فَصَـوَّرَتْ فَلَكًـا تَحُـفُّ سَمَـاءَهُ الأَوهَـامُ

لا تَسْـــتَقِيمُ الْعَـــيْنُ فِي لَمَعَانِهَـــا وَتَـــزِلُّ عِنْـــدَ لِقَائِهَـــا الأَقْـــدَامُ
تَعْشُـو الرِّكَـابُ فَـإِنْ تَـبَلَّجَ كَأْسُـهَا سَـــارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّـــيَاءُ أَقَـــامُوا
حُبِسَـــتْ بِأَكْلَـفَ لَمْ يَصِـلْ بِفِنَائِـهِ نُـــورٌ وَلَمْ يَبْـــرَحْ عَلَيْـــهِ ظَـــلامُ
حَـتَّى إِذَا اصْـطَفَقَتْ وَطَـارَ فِـدَامُهَا وَثَبَـتْ فَلَـمْ تَثْبُـتْ لَهَـا الأَجْسَـامُ
وَقَـــدَتْ حِمَيَّتُهَـــا فَلَـــوْلا مَزْجُهَـــا بِالْمَــاءِ بَعْـدَ الْمَــاءِ شَـبَّ ضِـرَامُ
تَسِـــمُ الْعُيُـــونَ بِنُورِهَـــا لَكِنَّهَـــا بَـــرْدٌ عَلَـــى شُـــرَّابِهَا وَسَـــلامُ
فَاصْـقُلْ بِهَـا صَـدْأَ الْهُمُـومِ وَلا تَكُـنْ غِـــرًّا تَطِـــيشُ بِلُبِّـــهِ الآلامُ

وهذا شعر جميل، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه الأبيات وهو تعبان؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح، هي نظم منسجم مسبوك، ولكنها كالكأس التي قتلت بالماء فلم يبق مناه غير الشعاع الخامد الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان.

أيرانا القارئ نتحامل على البارودي؟ وكيف، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك، ولم تطف بالرأس غاشيات الضلال.

إن خمرية البارودي هذه لن تهوى بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمريات أبي نواس فقصد صيّرت قبره سعيرًا لا يخمد له أورار، وسيكون يوم الدين جبلًا يتفجر بالبراكين.

قلت لكم: إن البارودي نظم قصيدته، وهو تعبان، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة، فقال:

يَهْـوَى الْفَـتَى طُـولَ الْحَيَـاةِ وَإِنَّهَـا دَاءٌ لَـــهُ لَـــوْ يَسْـــتَبِينُ عُقَـــامُ
فَـاطْمَحْ بِطَرْفِـكَ هَـلْ تَـرَى مِـنْ أُمَّـةٍ خَلَـدَتْ وَهَـلْ لاِبْـنِ السَّـبِيلِ مُقَـامُ
هَـذِي الْمَـدَائِنُ قَـدْ خَلَـتْ مِـنْ أَهْلِهَـا بَعْـــدَ النِّظَـــامِ وَهَـــذِهِ الأَهْـــرَامُ

لا شَــيءَ يَخْلُــدُ غَيْــرَ أَنَّ خَدِيعَــةً　　فِي الــدَّهْرِ تَنْكُــلُ دُونَهَــا الأَحْــلامُ
وَلَقَــدْ تَبَيَّنْــتُ الأُمُــورَ بِغَيْرِهَــا　　وَأَتَــى عَلَــيَّ الــنَّقْضُ وَالإِبْــرَامُ
فَــإِذَا السُّــكُونُ تَحَــرُّكٌ وَإِذَا الْجُمُــو　　دُ تَلَهُّــبٌ وَإِذَا السُّــكُوتُ كَــلامُ
وَإِذَا الْحَيَــاةُ وَلا حَيَــاةَ مَنِيَّــةٌ　　تَحْيَــا بِهَــا الأَجْسَــادُ وَهْــيَ رِمَــامُ
هَــذَا يَحُــلُّ وَذَاكَ يَرْحَــلُ كَارِهَــا　　عَنْــهُ فَصُــلْحٌ تَارَةً وَخِصَــامُ
فَــالنُّورُ لَــوْ بَيَّنْــتَ أَمْــرَكَ ظُلْمَــةٌ　　وَالْبَــدْءُ لَــوْ فَكَّــرْتَ فِيــهِ خِتَــامُ

وهذا شعر رجل تعبان، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة، وكأنّ البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال:

لِــدُوا لِلْمِــوْتِ وَابْنُــوا لِلخَــرابِ　　فكُلُكُمْــو يصــيرُ إلى تبــاب

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس لأنها في المديح؛ ولأن البارودي وقف في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب، على أنه لا مانع من الإشارة إلى أن البارودي حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون آطاف يقول أبي نواس في مدح الأمين:

مَلِكٌ أَغَرُّ إذا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ　　لَمْ يَعْدُكَ التّبْجيلُ والإعْظامُ

ولا بأس من توجيه القارئ إلى العذوبة البادية في قول أبي نواس:

وإذا المَطــيّ بِنــا بَلَغْــنَ مُحَمَّــدًا　　فظُهُــورُهُنّ عَلــى الرّجــالِ حَــرامُ
قَرَّبْنَنَــا مِــن خَــيْرِ مَــن وَطِــىَء الحَصَــا　　فَلَهَــا عَلَيْنَــا حُرْمَــة وذِمــامُ
رُفِــعَ الحِجــابُ لَنــا فَــلاحَ لِنــاظِرٍ　　قَمَــرٌ تَقَطَّــعُ دونَــهُ الأوْهــامُ
مَلِــكٌ إذا عَلِقَــتْ يَــداكَ بحَبْلِــهِ　　لا تَعْتَرِيــكَ البُــؤْسُ والإعْــدامُ
سَــبْطُ البَنَــانِ إذا احْتَــبى بِنجــادِهِ　　فَــرَعَ الجَمــاجِمَ والسّــماطُ قِيــامُ
مَلِــكٌ إذا اعْتَــبَرَ الأمــورَ مَضَــى بــهِ　　رَأيٌ يَفُــلُّ السّــيفَ وهــو حُســامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دنّس بها أنصار المأمون أخبار الأمين.

الفصل الحادي والثلاثون

بين البارودي وأبي فراس

في كل لغة شعراء وكُتاب وخطباء يخلقون أجواء [1] من الفكر والعبقرية فيزيدون في عمر لغتهم، ويصلون بينها وبين القلوب والعقول، فتزداد تأصلًا وقوةً وحيوية، فاللغة الفرنسية مَدينة في حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين، واللغة الإنجليزية مدينة لأمثال بيرون وشيلي وشكسبير، واللغة الألمانية مدينة لأمثال شيللر وجوته، والناس متفقون على أن اللغة الإيطالية مدينة لدانتي أثقل الدّين.

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات، أبو فراس الذي وصف الضعف الإنساني أجمل وصف، وشرحه أحسن شرح، ومَثَّله أصدق تمثيل.

أبو فراس ضحية الكبرياء، والحب والمجد، أبو فراس الوتَر الحنَان الذي خلَد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس الذي أبكى كل عين، وأحزن كل قلب، وشغل كل باب، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجل.

كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس، فستعرف أن القوة الإنسانية في حاجة إلى من يبكيها حين تزول، وليت القلم يطاوعني لأشرح بعض ما أريد، وأنا أريد أن أقول: إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة، ولكنها كنوز معرّضة للتزييف حين يعروها الخمود، العنفوان في الرجل الشجاع هو أنضر من الصباحة في الوجع الجميل، والصباحة تجد من يبكيها حين تزول، أما العنفوان حين يخمد فلا يجد من يشيّعه بطيف

(١) الجو يجمع على جواء بكسر الجيم، وهي اللفظة التي آثرناها في كتاب النثر الفني. ولكنا آثرنا هنا أن نجمعها على أجواء.

من الرثاء.

وما قرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال، تمثلت عُنْفُوان الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر، وهزيمة القلب وانصهار الروح.

لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعرّي، ولا وجد ابن زيدون، كل أولئك أحمالهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى يعود طفلًا يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول:

مُصـــابِي جَليـــلٌ وَالعَـــزاءُ جَميـــلُ ... وَظَـــنّي بِأَنَّ اللهَ سَـــوفَ يُـــديلُ
جِـــراحٌ تَحاماهـــا الأُســـاةُ مَخافَـــةٌ ... وَسُـــقمانِ بادٍ مِنهُمـــا وَدَخيـــلُ
وَأَسْـــرٌ أُقاســـيهِ وَلَيْـــلٌ نُجومُـــهُ ... أَرَى كُـــلَّ شَـــيءٍ غَـــيرَهُنَّ يَـــزولُ
تَطُـولُ بِيَ السـاعاتُ وَهـيَ قَصـيرَةٌ ... وَفي كُـــلِّ دَهْـــرٍ لايَسُـــرُّكَ طُـــولُ
تَناســـانِيَ الأَصْـــحابُ إِلّا عُصَـــيبَةً ... سَـتَلحَقُ بِالأُخْـرَى غَـدًا وَتَحُـولُ
وَإِن الَّـذي يَبْقَـى عَلَـى العَهْـدِ مِـنْهُمْ ... وَإِن كَثُـــرَت دَعْـــواهُمُ لَقَليـــلُ
أُقَلِّـبُ طَـرْفِي لا أَرَى غَيْـرَ صـاحِبٍ ... يَميـلُ مَـعَ النَعْمـاءِ حَيْـثُ تَميـلُ
وَصِـــرنا نَـــرى أَنَّ المُتَـــارِكَ مُحْسِـــنٌ ... وَأَنَّ خَلـــيلًا لايَضُـــرَ وصـــولُ
أَكُـلُّ زَمَـانٍ أَنْكَـدٌ غَـيرُ مُنْصِـفٍ ... وَكُـــلُّ زَمـــانٍ بِالكِـــرامِ بَخيـــلُ
فَيـا حَسْـرَتِي مَـن لي بِخِـلٍّ مُوافِـقٍ ... أَقـــولُ بِشَـــجْوي مَـــرَّةً وَيَقـــولُ
وَإِنَّ وَراءَ السَّـــتْرِ أُمًّـــا بُكَاؤُهَـــا ... عَلَـــيَّ وَإِن طَـــالَ الزَمـــانُ طَويـــلُ
فَيـا أُمَّتـا لا تُخطِئـي الأَجـرَ إِنَّـهُ ... عَلـى قَـدَرِ الصَـبرِ الجَميـلِ جَزيـلُ
تَأَسّـــي كَفـــاكِ اللهُ مـــا تَحْذَرينَـــهُ ... فَقَـد غـالَ هَـذا الـدَّهْر قَبلَـكِ غـولُ
لَقِيـتُ نُجـومَ اللَّيْـل وَهـيَ صَـوارِمٌ ... وَخُضْـتُ سَـوَادَ اللَيـلِ وَهـوَ خُيـولُ

وَلَم أَرْعَ لِلنَفسِ الكَرِيمَةِ خِلَّةً عَشِيَّةَ لَم يَعطِف عَلَيَّ خَليلُ
وَلَكِن لَقيتُ المَوتَ حَتّى تَرَكتُها وَفيها وَفي حَدِّ الحُسامِ فُلولُ

أترون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل؟ إن التوجع لآلام الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو يُؤسرون، وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يُؤسر، وقضت عليه أن ينتظر من يَفديه فلا يظفر بالفداء، قضت عليه الدنيا أن يعاني آلام الجروح فلا يسعفه طبيب، ولا يواسيه رفيق، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلتاعةً لا يرْقأ لها دمع، ولا يهدأ لها فؤاد، ويا ويل من تضعف نفسه فيرق لأحزان الأمهات!

على أن أبا فراس كان يتجلد أحيانًا في أسره فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علمًا بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء، كان يتجلد فيستطيع أن يقرع سيف الدولة بمثل هذا العتاب:

أَمَا لِجَميلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوابُ وَلا لِمُسيءٍ عِنْدَكُنَّ مَتابُ
لَقَد ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَواهُ خَريدَةٌ وَقَد ذَلَّ مَن تَقْضي عَلَيهِ كَعابُ
وَلَكِنَّني وَالحَمْدُ لِلَّهِ حازِمٌ أَعِزُّ إِذا ذَلَّت لَهُنَّ رِقابُ
وَلا تَمْلِكُ الحَسناءُ قَلبِيَ كُلَّهُ وَإِن مَلَّكْتَها رَوْقَةٌ وَشَبابُ (١)
إِذا الخِلُّ لَمْ يَهجُركَ إِلّا مَلالَةً فَلَيسَ لَهُ إِلّا الفِراقَ عِتابُ
إِذا لَم أَجِدْ في بَلْدَةٍ ما أُرِيدُهُ فَعِندي لِأُخرى عَزمَةٌ ورِكابُ
فَلَيسَ فِراقٌ ما اِستَطَعتُ فَإِن يَكُن فِراقٌ عَلى حالٍ فَلَيسَ إِيابُ
صَبُورٌ وَلَو لَم تَبقَ مِنّي بَقِيَّةٌ قَئولٌ وَلَو أَنَّ السُيوفَ جَوابُ
وَقورٌ وَأَهْوَالَ الزَمانِ تَنوشُني وَلِلمَوتِ حَولي جيئَةٌ وَذَهابُ

(١) الروقة والروق: أول الشباب. ويقال أيضًا مضى ريق الشباب.

وَأَحـــظُ أَحـــوالَ الزَمـــانِ بِمُقلَـــةٍ بِها الصُدقُ صِدقٌ وَالكِذابُ كِذابُ
بِمَـــن يَثِـــقُ الإِنْســـانُ فيمـــا يَنُوبُـــهُ وَمِـن أَيـنَ لِلحُـرِّ الْكَـريمِ صِـحابُ
وَقَـد صـارَ هَـذا النـاسُ إِلّا أَقَلَّهُـمْ ذِئابًا عَلـــى أَجســـادِهِنَّ ثِيـــابُ
تَغابَيـتُ عَـن قَـومي فَظَنّـوا غَبـاوَتي بِمَفـــرِقِ أَغْبَـــانا حَصًـــا وَتُـــرابُ
وَلَــو عَرَفــوني حَــقَّ مَعــرِفَتي بِهِــم إِذًا عَلِمـــوا أَنّي شَـــهِدْتُ وَغـــابوا
وَمــا كُـــلُّ فَعّـــالٍ يُجــازَى بِفِعْلِـــهِ وَلا كُـــلُّ قَـــوّالٍ لَـــدَيَّ يُجـــابُ
وَرُبَّ كَـــلامٍ مَـــرَّ فَـــوْقَ مَســـامِعي كَمــا طَــنَّ في لَــوْحِ الْهَجــيرِ ذُبابُ
إِلى اللهِ أَشْـــكو أَنَّنـــا بِمَنَـــازِلٍ تَحَكَّـــمُ في آسَـــادِهِنَّ كِـــلابُ
تَمُـرُّ اللَيـالي لَـيْسَ لِلنَفـعِ مَوضِـعٌ لَـــدَيَّ وَلا لِلمُعتَفـــينَ جَنـــابُ
وَلا شُـدَّ لي سَـرْجٌ عَلَـى ظَهـرِ سـابِحٍ وَلا ضُـــرِبَت لي بِالعَـــرَاءِ قِبـــابُ
وَلا بَرَقَـــت لي في اللِقـــاءِ قَواطِـــعٌ وَلا لَمَعَـت لي في الحُـروبِ حِـرابُ
سَـــتَذْكُرُ أَيّامـــي نُمَيْـــرٌ وَعـــامِرٌ وَكَعْـــبٌ عَلـــى عَادَاتِهـــا وَكِـــلابُ
أَنا الجَـارُ لا زادِي بَطِــيءٌ عَلَــيهُمُ وَلا دونَ مـــالِي لِلحَـــوادِثِ بابُ
وَلا أَطلُــبُ العَــوْراءَ مِـنهُم أُصِـيبُها وَلا عَـــوْرَتي لِلطَّـــالِبينَ تُصـــابُ
وَأَســطو وَحُــبّي ثابِــتٌ في قُلــوبِهِم وَأَحلَـــمُ عَـــن جُهّـــالِهِم وَأُهـــابُ
بَــني عَمِّنــا لا تَتْرُكــوا الحَــرْب إِنَّنــا شِـدادٌ عَلـى غَـيرِ الهَـوانِ صِـلابُ
بَـني عَمِّنـا مـا يَصْـنَعُ السَـيْفُ بَيْنَنـا إِذا فُـــلَّ مِنـــهُ مَضْـــرِبٌ وَذُبَابُ
بَــني عَمِّنــا نَحــنُ السَــواعِدُ وَالظُبَــا وَيوشِــكُ يَومًــا أَنْ يَكــونَ ضِــرابُ
وَإِنَّ رِجـالًا مـا اِبـنَهُمْ كَـابِنِ أُخْـتِهِم حَرِيُّـونَ أَن يُقْضَـى لَـهُ وَيُهـابُ
فَعَــن أَيِّ عُــذْرٍ إِن دُعُــوا وَدُعِيــتُمُ أَبَيـــتُم بَـــني أَعمامِنـــا وَأَجـــابوا

وَما أَدَّعي ما يَعلَمُ اللهُ غَيرَهُ ... رِحابُ عَلِيٍّ لِلعُفاةِ رِحابُ
وَأَفعالُهُ بِالراغِبينَ كَريمَةٌ ... وَأَموالُهُ لِلطالِبينَ نِهابُ
وَلَكِن نَبا مِنهُ بِكَفَّيَّ صارِمٌ ... وَأَظلَمَ في عَينَيَّ مِنهُ شِهابُ
وَأَبطَأَ عَنّي وَالمَنايا سَريعَةٌ ... وَلِلمَوتِ ظُفرٌ قَد أَطَلَّ وَنابُ
فَإِنْ لَمْ يَكُن وُدٌّ قَديمٌ نَعُدُّهُ ... وَلا نَسَبٌ بَينَ الرِجالِ قُرابُ
فَأَحوَطُ لِلإِسلامِ أَنْ لا يُضيعَني ... وَلي عَنهُ فيهِ حَوْطَةٌ وَمَنابُ
وَلَكِنَّني راضٍ عَلَى كُلِّ حالَةٍ ... لِنَعْلَمَ أَيُّ الخُلَّتَيْنِ سَرابُ
وَما زِلتُ أَرْضَى بِالقَليلِ مَحَبَّةً ... لَدَيهِ وَما دُونَ الكَثيرِ حِجابُ
وَأَطلُبُ إِبقاءً عَلى الوُدِّ أَرضَهُ ... وَذِكري مُنًى في غَيرِه وَطِلابُ
كَذاكَ الوِدادُ المَحْضُ لا يُرتَجى لَهُ ... ثَوابٌ وَلا يُخْشى عَلَيْهِ عِقابُ
وَقَد كُنْتُ أَرْضَى الهَجرَ وَالشَّمْلُ جامِعٌ ... وَفي كُلِّ يَوْمٍ لقيةٌ وَخِطابُ
فَكَيفَ وَفيما بَينَنا مُلكُ قَيصَرٍ ... وَلِلبَحرِ حَولي زَخرَةٌ وَعُبابُ
أَمِن بَعدِ بَذلِ النَفسِ فيما تُريدُهُ ... أُثابُ بِمُرِّ العَتبِ حينَ أُثابُ
فَلَيتَكَ تَحْلُو وَالحَياةُ مَريرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرضَى وَالأَنامُ غِضابُ
وَلَيتَ الَّذي بَيْني وَبَينَكَ عامِرٌ ... وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس، فذلك رجل أسير ضَعْضعه اليأس، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب، وهو يتكلم كلام الطليق، لا كلام الأسير، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع، والعقاب والثواب، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول:

تَمُرُّ اللَيالي لَيْسَ لِلنَفعِ مَوضِعٌ ... لَدَيَّ وَلا لِلمُعتَفينَ جَنابُ
وَلا شُدَّ لي سَرْجٌ عَلَى ظَهرِ سابِحٍ ... وَلا ضُرِبَت لي بِالعَراءِ قِبابُ

وَلا بَرَقَــت لي في اللِقــاءِ قَواطِــعٌ وَلا لَمَعَــت لي في الحُــروبِ حِــرابُ

وأقسى ما يعاني الرجل أن يمسي لا يملك الضر، ولا يملك النفع، وغايات الفتوّة أن يكون الرجل نَفَّاعًا ضرّارًا يخشاه العدو ويرجوه الصديق، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال، ومعاذ الأدب أن يتجنى عليه، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير، ولا نعرف ما قُوبل به أسره في بلاط سيف الدولة، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء، وذلك إن وقع شيءٌ منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع، يحوله إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء.

قلت: إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق. ألم تر كيف ابتدأها بالنسيب؟ ألم تر كيف دعا إلى مواصلة الحرب؟ ألم تر كيف يمتدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول:

وَرُبَّ كَــلامٍ مَــرَّ فَــوْقَ مَســامِعي كَمــا طَــنَّ في لَــوْحِ الْهَجــيرِ ذُبابُ

ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس، فمن المستبعد جدًّا أن نتصور أن الرجل كان يراسل قومه من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد؟

إن الصلة بين القصيدين الماضيتين ليست بعيدة، فالأولى توجع، والثانية تجلد، وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل.

والشاعر في القصيدتين غير متكلف، وإنما هو يمثل ما يمر بالنفس الإنسانية من صور وأطياف، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف، وفيها جبروت واستخذاء، والشاعر الحق هو الذي لا يكذب على الطبع: وإنما يبتهج ويبتئس، ويقسو ويلين، وفقًا لبسمات

العيش أو نكد الزمان.

قد يقول معترض: وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو في القَيد؟

ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان يتمثل أحداث الغابة في كل حين.

والنفس تجتر ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبَس الذي يبدد غياهب البؤس، ويمحق ظلمات البأساء.

وكيف تحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعندنا البارودي، البارودي رجل السيف، الذي لم يصوّر أيام الحرب والفتوة إلا بعد أن ألقته الحوادث منفيًّا في جزيرة سيلان.

إن إحساس البارودي بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نزعت عنه الحوادث شارات المجد، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفتوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب، وتريه الدنيا كيف تصوح الأزهار، وكيف تجف الأنهار، وكيف تذبل الرياحين.

إن إحساس أبي فراس والبارودي بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعي مألوف، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا يتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره لا يكبت العدو ولا يسر الصديق.

ومن عجيب التشابه بين البارودي وأبي فراس أنهما ظلا في أيام المحنة واليأس يتذكران الأحباب ويشكوان سفه الراشين، وقد مرّ شاهد من شعر أبي فراس، فلنذكر بجانب ذلك قول البارودي:

رُدُّوا عليَّ الصّبا منْ عصْريَ الخالِي ... وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللِّمَةِ الْبَالِي

مَاضٍ مِنَ العَيْش ما لاحتْ مخايلهُ ... في صفحةِ الْفكرْ إلاَّ هاجَ بلبالي

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ في مَضاجِعِها ... بَعْدَ الْحَنِينِ وَقَلْبِي لَيْسَ بِالسَّالِي

لمْ يدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلْذَّتْهِ ... أَني بنَارِ الأسَى مِنْ هِجْرِهِ صالِ

يا غاضِبينَ عَلينْا هَلْ إلَى عِدَةٍ ... بِالْوَاصْلِ يَوْمٌ أُنَاغي فيهِ إِقْبَالي

غِبْــتُمْ فَــأَظْلَمَ يَــوْمِي بَعْــدَ فُــرْقَتِكُمْ   وَسَــاءَ صُــنْعُ اللَّيَــالي بَعْــدَ إِجْمَــالِ
قَـدْ كُنْـتُ أَحْسِـبُنِي مِـنْكُمْ عَلَـى ثِقَـة   حَــتى مُنِيــتُ بِمَــا لَمْ يَجْــرِ في بالي
لَمْ أَجْـنِ فِي الْحُـبِّ ذَنْبًـا أَسْـتَحِقُّ بِـهِ   عَتْبًــا ولكنَّهَــا تَحْرِيــفُ أَقْــوَالِ
وَمَــنْ أَطَــاعَ رُواة السُّــوءِ نَفَــرَهُ   عَـنِ الصَّـدِيقِ سَمَـاعُ الْقِيـلِ وَالْقَـالِ
أدْهَــى المَصَــائبِ غَــدْرٌ قَبْلَــهُ ثِقَــةٌ   وَأَقْــبَحُ الظُّلْــمِ صَــدٌّ بَعْــدَ إِقْبَــالِ

فماذا ترون في هذه الأبيات؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس، هو يتكلم كلام الطليق، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لوشاية ولا إرجاف.

تلك نزوات نفسية، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوثب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء.

وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلّ القارئ على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودي، وما يقرأ لأبي فراس. هما شاعران يشتركان في كثير من النوازع، ويشتركان في كثير من الصفات، وبَليّة النفي والأسر بلية واحدة وإن اختلفت الصور والظروف.

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموازنة بين الرائيتين فرصة لا تتاح في كل حين، فكلا الشاعرين يتغزل، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حرارٌ لا يدرك وَقْدَها إلا من ذاق الأسر والنفي، وقد ذقنا الأسر مرتين [1] ، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربة الروحية والغربة العقلية، وإلى الله نشكو ما نعاني من قسوة الاغتراب في هذا الزمان.

---

(١) كان المؤلف من الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية، وكان اسمه مقيدًا في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقًّا شعلة من الحرب، وكانت حليقة بأن ترهب انجلترا وتزعجها لو دامت بضع سنين.

الفصل الثاني والثلاثون

الموازنة بين الرائيتين

١

ونشرع في الموازنة بين الرائيتين فنقول:

يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس، فقصيدة البارودي خمسة وعشرون بيتًا، وقصيدة أبي فراس جاوزت الأربعين.

قد يقال: وما قيمة الكمية؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميمية أبي نواس نظر فرآها عشرين بيتًا، فجعل قصيدته أربعين، وذلك من شارات الاهتمام والاحتفال.

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتًا، وهو في قصيدة البارودي أحد عشر بيتًا.

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب إلى الفخر، أما البارودي فترفق في التخلص حين قال:

وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ ... عَلَى الأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

حَيَاءً وَكِبرًا أنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ ... بِهِ صَبوةٌ أو فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الهَجْرُ

وإنِّي امْرُؤٌ لَوْلَا العَوَائِقُ أذْعَنَت ... لِسُلْطَانِهِ الْبَدْو المُغِيرَة والحَضَرُ

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ ... لَهَا في حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَة فَجْرُ

وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ ... عَلَى الأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

وابتدأ أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال:

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شيمَتُكَ الصَّبْرُ ... أما لِلْهَوى نَهْيٌ عليكَ ولا أمْرُ

بَلــى أنا مُشْــتاقٌ وعنــديَ لَوْعَــةٌ ولكــنَّ مِثْلــي لا يُــذاعُ لــهُ سِــرُّ!

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال، فإن الرجل لا يعاب عليه الحب، وإنما يعاب عله أن يصير أحبابه مضغة الأفواه، ثم جعل الشكوى بينه وبين الليل، فقال:

إذا اللّيـلُ أَضْـواني بَسَـطْتُ يَـدَ الهـوى وأذْلَلْـتُ دمْعًـا مـن خَلائقِـهِ الكِبْـرُ

تَكــادُ تُضِــيْءُ النــارُ بــين جَــوانِحي إذا هــي أذْكَتْهــا الصَّــبابَةُ والفِكْــرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن يُدارَى بالكتمان، وتمثل نفسه محبًّا جامحًا لا يصدّه تهيب، ولا يردعه إشفاق، وكذلك قال:

طَرِبْــتُ وعَــادَتْني المَخيلَــةُ والسُّــكْرُ وَأَصْـبَحْتُ لاَ يُلْـوِي بِشِـيمَتِي الزَّجْـرُ

كَــأَنِّيَ مَخْمُــورٌ سَــرَتْ بِلِسَــانِهِ مُعَتَّقَــةٌ مِمَّــا يَضِــنُّ بِهَــا التَّجْــرُ

صَـرِيعُ هَـوى يُلْـوِي بِيَ الشَّـوْقُ كُلَّمَـا تَــلأْلأَ بَــرْقٌ أَوْ سَــرَتْ دِيمَــةٌ غُــزْرُ

إِذَا مَــال مِيــزَانُ النَّهــارِ رَأَيْتُــنِي عَلَــى حَسَــراتٍ لا يُقاوِمُهَــا صَــبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتم أسرار الحب، وأنه لا يشكو بثَّه إلا إلى ظلمات الليل، وإنما سلك البارودي مسلكًا آخر، حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتمان، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر وأخطر من الجنون، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب؛ لأن الحب في رقته ولطف مداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي كانت مواقعه مما يشيب ناصية الزمان:

يَقــولُ أُنَاسٌ إنَّــهُ السِّــحْرُ ضَــلَّة وَمَـا هِـيَ إلاَّ نَظْـرَة دُونَهَـا السِّـحْرُ

فَكَيْـفَ يَعِيـبُ النَّـاسُ أَمْـرِي وَلَيْسَ لِي وَلاَ لِامْرِىء في الحُبِّ نَهْيٌ وَلاَ أَمْرُ

ولَــوْ كــانَ مِمَّــا يُسْــتَطاعُ دِفاعــهُ لألـوَت بـهِ البَـيضُ المَبـاتيرُ والسُّـمْرُ

وَلَكِنَّــهُ الحُــبُّ الَّــذِي لَــوْ تَعَلَّقَــتْ شَــرارتُهُ بِالجَمْــرِ لاحــتَرَقَ الجمــرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف تستطيع العيون

النواعس أن تفعل بالرجال ما لا تفعل الصهباء، لا يعلم أحد كيف يتفق للرجل أن يَذلْ ويخضع في ميدان الحب، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد الأسيل – وهو أرق من الورد – أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف الصقيل.

لقد يخطر ببال الخليّين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر، وأفتك من الخمر، وأقتل من الداء العُضال، ولكن الذي مارس دنيا الصباحة، وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال يعجب من هذه المصاير المحزنة: مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء.

لقد كان البارودي ولا ريب من أقوياء الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل يهذي بأحلام حُلوان هذيان المحموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم يرحمه جواه في شدة ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه يحس بلواه كل الإحساس، وهو يقول:

وَلَكِنَّــهُ الحُــبُّ الَّــذِي لَــوْ تَعَلَّقَــتْ شَــرارتُهُ بِالجَمْــرِ لاحــتَرَقَ الجمــرُ

وللقارئ أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق شرارة الحب بالجمر، فيحترق الجمر، فالجمر يحرق ولكنه حين يمس الحب يحترق، وتلك من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حديث الشامتين، وكذلك استدرك فقال:

عَلَــى أَنَّــنِي كَاتِمٌــتُ صَــدْرِيَ حُرْقَــة مِنَ الْوجْدِ لاَ يَقْوَى عَلَى مْسَّهَا صَدْرُ
وَكَفْكَفْــتُ دَمْعًــا لَــوْ أَسَــلْتُ شــئُونَهُ عَلَــى الأَرْضِ مَــا شَــكَّ امْــرُؤٌ أَنَّــهُ بَحْــرُ
حَيَــاءً وَكِــبرًا أنْ يُقَــالَ تَرَجَّحَــتْ بــهِ صَــبوةٌ أو فَــلَّ مِــنْ غَرْبــهِ الهَجْــرُ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمة الصبر الجميل، ولولا لطف الله لغرف الناس في بحر من الدموع وهي ملح أجاج.

لقد أعجبني من البارودي أن يغرب في الوهم، فيقول:

وَكَفْكَفْـتُ دَمْعًـا لَـوْ أَسَـلْتُ شُـئُونَهُ عَلَـى الأَرْضِ مَـا شَـكَّ امْـرُؤٌ أَنَّـهُ بَحْـرُ

وعبارة: ما شك امرؤ عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر يفطن إلى أنه مقبل على أكاذيب، والكاذب في حاجة إلى القسم وإلى التأكيد.

وكنا نود لو اعتذرنا عنه، ولكن هذا الغلو المكشوف لم يُوشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكر الذي جعل به الجمر وَقودًا لنار الحب، والدنيا كلها وقودٌ لتلك النار التي يعذب الله بها من يشاء من عباده الشعراء.

٢

لم يمض البارودي في حديث هواه، أما أبو فراس فقدم صورًا من النسيب، عاتب حبيبته، فقال:

مُعَلِّلَـتي بالوَصْـلِ وَالمَـوْتُ دُونَـهُ إذا مِـتُّ ظَمْـآنًا فَـلا نَـزَلَ القَطْـرُ

وهذا البيت عرض له شوقي في مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات، فرآه من صُور الأثرة وفضل عليه قول أبي العلاء:

فَـلا هَطَلَـتْ عَلَـيَ ولا بِأرْضِـي سَـحائِبُ لَـيْس تَنْـتظِمْ الْـبِلادَا

ونحن نرى أبا فراس أصدق من أبي العلاء، فإن الأثرة من مظاهر الحيوية، والشاعر الحي لا يفكر إلا في نفسه؛ لأن الحياة تفرض الاستبداد، ونظرة أبي العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف، والأثرة هي سر كل شيء، فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مص الأرض واستنشاق الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يغير على معاصريه، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُحمل الألوف والملايين، والشمس لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضيائها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء، وكان القمر أقل عظمة من الشمس؛ لأنك ترى بجانبه نجومًا يخطئها العد فتحكم بأنه عجز عن الاستبداد بملك السماء، وقد يتفق أحيانًا أن نرى القمر نهارًا، ولكن كيف نراه؟ نراه في صورة التابع الذليل، وهو لم

يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس، ولو كفت برَّها عنه لعاش وهو مجهول.

فقول أبي فراس:

إذا مِتُّ ظَمْآنًا فَلا نَزَلَ القَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك، أما كرم أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء، وإنما يبذل عطايا الوَهم بلا حساب، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا ممن يملك الإفضال على الناس، أما الذي يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل، والسرور بما لا تبذل سرور الضعفاء.

وقد فرح ناس بملاحظة شوقي فراحوا يعيدونها في كل مجتمع، وهم لا يفقهون!

ومضى أبو فراس فأمتعنا بهذين البيتين:

بَــدَوْتُ وأهلــي حاضِــرونَ؛ لأنّــني أرَى أنَّ دارًا لَسْـتِ مِـنْ أهْلِها قَفْـرُ
وحارَبْــتُ قَــوْمي في هَــواكِ وَإنَّهُــمْ وَإيَّايَ لَـوْ لا حُبُّـكِ المـاءُ والخَمْـرُ

وهذا شعر بديع حقًّا، وإن كان البيت الأول مأخوذ من قول جميل:

أَبِيــتُ مَــعَ الْهُــلاَّكِ ضَـيْفًا لِأَهْلِهَــا وَأهْلـي قَرِيــبٌ موسِـعونَ ذَوو فضْــل

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثانية:

كَــأَنْ لَمْ نُحَــارِبْ يا بُثَــينَ لَوَانَّهَــا تَكَشَّــفُ غَماهــا وَأَنْــتِ صِــديقُ

ولننص على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل، أما البيت الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر أبي فراس.

ثم انظروا هذا البيت:

وَفَيْــتُ وفي بَعْــضِ الوَفَــاءِ مَذَلَّــةٌ لإِنْســانَةٍ في الحَــيِّ شِــيمَتُها الغَــدْر

انظروا هذا البيت وتأملوه، فعبارة وفي بعض الوفاء مذلة تصور ما يلقي الرجل في الحب، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون، والرجل لا يحب إلا وهو

مخبول، ولو كان يملك من أمره شيئًا لعرف أن نعيم الحب نعيم صغير بالإضافة إلى ما يُذال فيه عز النفوس.

وهذا البيت:

وَقــورٌ ورَيْعــانُ الصِّــبا يَسْــتَفِزُّها ... فَتَــأْرَنُ أحيــانًا كمــا أَرِنَ المُهْــرُ

هذا بيت نادر، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان، ولك أن تتذكر وقار العقلية المليحة التي تحيا برزانة الجبال، ثم يستفزها الصبا فتجنح إلى التعقب والتغضب، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفُتون، وهي أملح في العين وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين.

وانظروا هذا الحوار الطريف:

تُســائِلُني مَــنْ أنْــتَ وهْــي عَليمَــةٌ ... وَهَـلْ بِفَـتىً مِثْلَـي عَلَـى حالِـهِ نُكْـرُ

فَقُلْـتُ كَما شاءَتْ وَشاءَ لَها الهَوى: ... قَتيلُـكِ! قَالَـت أيُّهُـمْ؟ فَهُـمُ كُثْـرُ

فَقلــتُ لَهــا لَــوْ شَــئْتِ لم تَتَعَنَّــتي ... وَلَمْ تَسْــألي عَــنّي وعِنْــدَكِ بِي خُبْــرُ

وَلا كــانَ لِلأَحْــزان عِنْــدِيَ مَسْــلَكٌ ... إلى القَلْبِ لَكِـنَّ الهَـوَى لِلْـبِلا جِسْـر

فأيْقَنْــتُ أَن لا عِــزَّ بَعْــدِي لِعاشِــقٍ ... وأنّ يَــدي مِمَّــا عَلِقْــتُ بِــهِ صِــفْرُ

فَقالَـتْ لَقَـدْ أَزْرى بِـكَ الـدَّهْرُ بَعْـدَنا ... فَقُلْـتُ مَعـاذَ اللهِ بَـل أنـتِ لا الـدَّهر

وهذا أيضًا شعر، ولكن أي شعر! إنه من أقوى لَفحات الصبابة، وأطيب نَفحات الوجدان، والدنيا هكذا تصنع بالرجال، فذلك الفارس الذي فتك بمن فتك من الأبطال، وهدم ما هدم من الحصون، هذا الجبل يقف خاشعًا ذليلًا أمام إنسانة تقول: من أنت؟ فيقول: عاشق! فتقول: ولكن من أنت من العشاق؟ فيقول في ذلة المهزوم: أنتِ تعلمين!

ومن كانت هذه الإنسانة التي عناها أبو فراس؟

ولكن ما قيمة هذا السؤال؟ أكان من الحتم أن يكون لمثلها شأن حتى تكوي مثله على الجمر المشبوب؟ إن من أعجب تصاريف القدر أن لا ينبت الحسن المرموق إلا في

المراتع التي لا يُنصب حول حماها حصن، ولا يرفرف فوقها لواء.

إن أبا فراس لا يكذب في مثل هذا التحرق، ولكن من كان يحب! كان يحب إنسانة هي اليوم في ضمير شعره، لا في ضمير صدره، إنسانة أنطقته بهذه اللوعة الخالدة، ثم اندرجت في أكفان الفناء.

ثم انظروا هذا المصير المحزن، مصير كل عاشق حبله الهوى فضاع:

وقلَّبْتُ أَمري لا أَرَى لِيَ رَاحَةً   إِذَا البَيْنُ أَنْسَانِي أَلَحَّ بِيَ الهَجْرُ

فَعُدْتُ إلى حُكم الزّمانِ وحُكْمِها   لَهَا الذّنْبُ لا تُجْزى بِهِ وَلِيَ العُذْرُ

هذا مَصير كل عاشق: لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر. والعشق ذاته خروجٌ على المنطق، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية، إلا أن يثبت البحث أن الحب أسلوبٌ من الظفر بمكنونات الجمال، وأن مدامع العشاق في عالم المعقول كالمخلب والناب في عالم المحسوس، فالأسد يفترس، والعاشق يفترس، وإن اختلفت وسائل الافتراس.

نحن إذن نبكي لنخدر الفريسة، وعلى ذلك يكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان! أترونني كشفت سر المهنة؟ لا تراعوا أيها العشاق فلأهل الجمال غفلة هي أعجب الغفلات، هم يرون الشرك ويتجاهلون، لحكمة يعلمها من يصل القلوب بالقلوب، وينقل الظباء طائعة إلى مرابض الأسود.

وكأن أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال:

كَأَنِّيَ أُنادي دُونَ مَيْثَاءَ ظَبْيَةً   عَلى شَرَفٍ ظَمْياءَ جِلَيْنَها الذُّعْرُ

تَجَفَّلُ حِينًا ثُمَّ تَدْنو كأنّما   تُنادي طَلاًبًا بالجَري أعْجَزَهُ الحُضْرُ

وهو خيال بدوي أطاف به كثير من الشعراء، والمليحة هكذا خُلقت تأمن وتخاف، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال.

٣

ننتقل إلى الموازنة بين الشاعرين في الفخر فنقول:

يُحس البارودي أن أيامه انتهت، أيام المجد الحربي، فيزفر:

وإنِّي امْــرُؤٌ لَــوْلَا العَوَائِــقُ أذْعَنَــت لِسُــلْطانِهِ الْبَــدْو المُغــيرَة والحَضَــرُ

وعبارة «لولا العوائق» فيها تحفظ معقول: لأنه كان في القيد، أما أبو فراس فيشمخ:

وإنِّي لَنَـــــزَّالٌ بِكُـــــلِّ مَخوفَــــةٍ كَثــيرٍ إلى نُزَّالِهــا النَّظَــرُ الشَّــزْرُ

وحال الشاعرين مختلف، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الإنجليز بلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرجى له منها معاد، فهو خليق بأن يراعي ذلك في فخره. أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش، وكان ينتظر أن يُفك من الأسر، وفي ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهى ويختال، ويتمجد فيقول:

وَإِنِّي لَجَـــــرّارٌ لِكُـــــلِّ كَتيبَـــــةٍ مُعَـــوَّدَةٍ أنْ لا يُخِـــلَّ بِهـــا النَّصْـــرُ

فَأَصْـدَى إِلَى أَنْ تَرْتَـوي البيضُ وَالْقَنـا وأَسْـغَبُ حَـتَّى يَشْـبَعَ الـذِّئْبُ والنَّسْـرُ

وهذا نهاية الفخر، والخيال هنا بارع، فالفارس يظل صديان حتى ترتوي الرماح والسيوف، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء.

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه:

مِــنَ النَّفَــرِ الْغُــرِّ الَّــذِينَ سُــيُوفُهُمْ لَهَـا في حَوَاشِــي كُــلِّ دَاجِيَــة فَجْــرُ

إِذَا اسْــتَلَّ مِــنْهُمْ سَــيِّدٌ غَــرْبَ سَــيْفِهِ تفزَّعــتِ الأفْــلاكُ وَالْتَفَــتَ الــدَّهْرُ

والبيت الثاني وثبة هائلة من وثبات الخيال، ولا يخلو البيت الأول من حسن مرموق.

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه، فقد بُحَّ صوته وهو يستنجد بهم ليفدوه فلم يلتفتوا إليه، أما البارودي فلم تكن له بقيةٌ من مجدٍ غير آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال:

لَهُــمْ عُمُــدٌ مَرْفُوعــةٌ وَمَعاقِــلٌ وأَلْوِيَــةٌ حُمْــرٌ وأفْنِيَــةٌ خُضْــرُ
وَنَارٌ لَهَــا فِي كُــلِّ شَــرْقٍ ومَغْــرِبٍ لِمُــدَّرِعِ الظَّلْمَــاءِ أَلْسِــنَةٌ حُمْــرُ
تَمُــدُّ يَــدًا نَحْــوَ السَّــمَاءِ خَضِــيبَةً تُصــافِحُها الشِّــعْرَى ويلثِمُهــا الغَفْــرُ
وَخَيْــلٌ يَــرُجُّ الْخَــافِقَيْنِ صَــهِيلُهَا نزائــعُ معْقــودٌ بِأعْرافِهــا النَّصــرُ
مُعَــوَّدَة قَطْــعَ الْفَيــافِي كأنَّهــا خُداريَّــة فَتخــاءُ لَــيسَ لَهــا وكــرُ [١]

والجود في هذه الأبيات وضع في أخيلة بدوية، فإقامة النار لهداية السارين لا يعرفها القاهريون، وقوم البارودي الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك، وكان للبارودي فيما يقال أجداد من المماليك، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك، ويحبب إليه الصِّيال.

وعبارة: وَخَيْلٌ يَرُجُّ الْخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا عبارة قوية جدًّا، وهي لا تقل جمالًا عن تلفت الدهر وتفزع الأفلاك.

والبارودي يجعل قومه «مُعَوَّدَة قَطْعَ الْفَيافِي»، وهو تعبير طريف فهي ليست من الخيل المدللة التي تحيا في نعيم المرابض وتمسح أعرافها مسح التلطف والترفق، على نحو ما يقع في مرابض الوادعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب.

والبارودي كان يئس من كل شيء، يئس من نفسه؛ لأن الذين نفوه كانوا مُنتصرين؛ ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف، والقوم الذين أعنيهم أنا هُم المصريون، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي فهم أسلافه القدماء، وهؤلاء لم تبق منهم بقية؛ ولذلك بكاهم فقال:

أقــاموا زمــانًا ثمَّ بــدَّدَ شَمْلهُــم أَخـو فتكـاتٍ بالْكِـرام اسْمُـهُ الـدّهْرُ
فَلَـم يَبْـقَ مِـنْهُم غيَـرُ آثارِ نِعْمَـة تَضْـوعُ بريَّاهـا الأحاديـثُ والـذكرُ

---

(١) الخدارية بالضم: العقاب، والفتحاء من العقبان: اللينة الجناح.

وَقَـدْ تَنْطِـقُ الآثَارُ وَهْـيَ صَـوَامِتٌ ... ويُثْـنِي بِـرِيَّاهُ عَلـى الوْابـلِ الزَّهْـرُ

لَعَمْـرُكَ مَـا حَـيٌّ وَإِنْ طَـالَ سَـيْرُهُ ... يُعَـدُّ طَلِيقًـا والمُنُـونُ لَـهُ أسْـرُ

وَمَـا هـذِهِ الأيَّامُ إلاَّ مَنَـازِلٌ ... يَحُـلُّ بِهَـا سَـفْرٌ وَيَتْرُكُهَـا سَـفْرُ

فـلا تَحْسَـبَنَّ المـرءَ فيهـا بِخالـدٍ ... وَلَكِنَّـهُ يَسْـعَى وَغَايَتُـهُ الْعُمْـرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف؛ لأن الشاعر كان من اليائسين.

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول، فتحدث عن أدب الحرب فقال:

ولا أصْـبَحُ الحَـيَّ الخُلُـوفَ بِغـارَةٍ ... أوِ الجَـيْشَ مـا لَمْ تأْتِـهِ قَبْلِـيَ النُّـذْرُ

ومن أشرف آداب الحرب أن تُسبق بالنذير فلا يكون فيها تبييتٌ ولا اغتيال، وبلغ غاية الفخر حين قال:

ويا رُبَّ دارٍ لَمْ تَخَفْـني مَنيعَـةً ... طَلَعْـتُ عَلَيْهـا بِالـرَّدَى أنا وَالفَجْـرُ

وكلمة «لَمْ تَخَفْني» وكلمة «مَنيعَةً» من الكلمات الأصلية في هذا البيت، وعبارة:

طَلَعْتُ عَلَيْها بِالرَّدَى أنا وَالفَجْرُ

فيها رشاقة وفيها خيال.

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المُغير البطَّاش:

وَسَـاحِبَةِ الأذْيالِ نَحْـوي لَقِيتُهـا ... فَلَـمْ يَلْقَهـا جَـافِي اللِّقـاءِ وَلا وَعْـرُ

وَهَبْـتُ لَهـا مَـا حـازَهُ الجَـيْشُ كُلَّـهُ ... ورُحْـتُ وَلَمْ يُكْشَـفْ لأبْياتِهَـا سِـتْرُ

ولا راحَ يُطْغِيـني بِأثَوابِـهِ الغِـنَى ... وَلا باتَ يَثْنِيـني عَـن الكَـرَمِ الفَقْـرُ

وَمـا حـاجَتِي فِي المَـالِ أَبْغـي وُفـورَهُ ... إذَا لَمْ أَفِـرْ عِرْضِـي فَـلا وَفَـرَ الـوَفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال.

وانتقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره، فقال:

أُسِرْتُ وَما صَحْبِي بعُزْلٍ لَدَى الوَغَى ... وَلا فَرَسِي مُهْرٌ وَلا رَبُّهُ غِمْرُ
وَلكِنْ إذا حُمَّ القَضَاءُ عَلَى امرئٍ ... فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ ولا بَحْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة الباقية التي يفزع إليها الأبطال المنهزمون، والقدر له في الأدب الشرقي مكان، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود، وفي كتاب كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشئون الناس، وما نحب أن نفعل كما يفعل كتاب العرف فنقول: إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية، هيهات، فالناس في الشرق والغرب ضعفاء، وإن فتنهم النصر في بعض الأحيان، والإنسان حيوانٌ لئيم فهو لا يَذكر القَدر إلا حين يُغلب، وهو عند العاقبة يتسامى إلى منزلة الإله المعبود.

وما أخطر ما يلقى الرجال في مآزق الكَرب والضيم، حين يُخبر في الحرب بين بليتين: بلية الفرار، وبلية الهلاك، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق تصوير حين قال:

وَقال أُصَيْحَابِي الفِرارُ أو الرَّدَى؟ ... فَقُلْتُ هُما أمْرانِ أحْلاهُما مُرُّ
وَلكِنّنِي أَمْضِي لِمَا لا يَعِيبُنِي ... وحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَينِ خَيْرُهُما الأَسْر

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة «أصيحاب»، فإن لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء بصياغة الكلام.

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يمنون عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما يصنعون بالأسرى، ولعلهم لاحظوا أنه أمير، وأن الأمراء لهم في الأسر مقامٌ ملحوظ، فقرَّعهم بهذين البيتين:

يَمُنُّونَ أن خَلُّوا ثِيابِي وإنّما ... عَلَيَّ ثِيابٌ مِنْ دِمائِهِمُ حُمْرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمُ دُونَ نَصْلُهُ ... وأعْقابُ رُمْحٍ فِيهُمُ حُطِّمَ الصَّدْرُ

ويكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قيل فيه هذا القصيد، وأغلب الظن أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر، وإن كان في بقية القصيدة ما يشعر بالعتب على قومه إذ قال:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ ... وفي اللّيلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَا سَدَدْتُ اكْتَفوا بِهِ وَما كَان يَغْلو التِّبْرُ لوْ نَفَقَ الصُّفْرُ

فإن في هذين البيتين دلالةً على أنهم أبطئوا في افتدائه، وكانوا من الآثمين، ثم قال:

ونَحْـــنُ أُناسٌ لا تَوَسُّـــطَ بَيْنَنَـــا لَنـا الصَّـدْرُ دُونَ العـالَمِينَ أو القَبْـرُ

تَهُـــونُ عَلَيْنـــا في المَعَـــالي نُفوسُـــنا وَمَـنْ يخطـبُ الحَسْـناءَ لَا يُغْلِهـا المَهْـرُ

أعَـزُّ بَـني الـدُّنْيا وأعْـلا بَـني العُـلا وأكْـرَمُ مَـنْ فَـوقَ الـتُّرابِ ولا فَخْـرُ

وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد.

٤

أما بعد؛ فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض، وتَغنَى بها الناس في جميع البلاد العربية، وما فيها من التشسبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة أوديون للآنسة أم كلثوم، وكلمة:«لَنا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أو القَبْرُ»

يحفظها كل أديب ... والبيت:

تَهُـــونُ عَلَيْنـــا في المَعَـــالي نُفوسُـــنا وَمَـنْ يخطـبُ الحَسْـناءَ لَا يُغْلِهـا المَهْـرُ

كتب ألف مرة ومرة في دفاتر الإنشاء.

أما قصيدة البارودي فقد نسيت مع الأسف الموجع، ولم يُحفظ منها غير هذا البيت:

إِذَا اسْـتَلَّ مِـنْهُمْ سَـيِّدٌ غَـرْبَ سَـيْفِهِ تفزَّعــتِ الأفْــلاكُ وَالْتَفَــتَ الــدَّهْرُ

وكذلك نكب البارودي مرتين: نُكِب حين نُفيَ ولم يَرجعه قومه بقوة السيف، ونُكِب حين نسي الناس شعره في منفاه.

وأكاد أحكم بأن البارودي كان في الحرب أفتك من أبي فراس، والحرب بين الجيش المصري ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التي اشترك فيها أبو فراس.

ولكن البارودي لظروف كثيرة فقد الحظَّين معًا، فلم ينتصر سيفه، ولم يسر شعره، والدنيا حظوظ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودي وكان عزمه يدُكُّ الجبل.

أيها البارودي العظيم!

لست أتكلف الغضب لك، والإشفاق عليك، أنت عبقريةٌ أضاعها المصريون وأضاعها الزمان، ولكن لا تأس، ولا تحزن، فلست أول من أضاعهم المصريون وأضاعهم الزمان!

الفصل الثالث والثلاثون

بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم

ملاعب الكرة في الشعر العربي

١

ملاعب الكرة فيها لطف وجاذبية، وفيها سحرٌ وفتون، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلًا، ولعل من أسباب تقصير الشعراء في هذا الباب أنهم كانوا في أغلب الأحوال لا يشاركون الشباب في ألعاب يأباها أدب الكهول، والشاعر يظل فتيَّ القلب والروح، ولكنه يتَوَقَّر كثيرًا فلا يشارك الشباب في ألعاب تنشأ أول ما نشأ بين الأطفال.

ولست أعرف ما صنع شعراء الإنجليز في وصف ملاعب الكرة، وهم من أمهر اللاعبين، ولكني أعرف جيدًا أن شعراء العصر الحاضر في مصر لم يُعْنَوا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُنوا بوصف المراقص مع أن لعب الكرة أحفل بالمعاني الحيوية، وهو أقدر من الرقص على العبث بأخيلة الشعراء.

ويمكن الحكم بأن اللعب تغلب عليه الصبغة الجدية بخلاف الرقص، ولكن أيكون الجدُّ مما يقضي على قرائح الشعراء بالركود؟ إن الجد في اللعب له معانٍ تخلب الألباب، وهو خليق بأن يحوِّل الشعراء إلى شياطين، فلنعرف ذلك ولننتظر من شعراء مصر أن يُسجلوا في أشعارهم روعات الحفلات السنوية التي تقام بالجزيرة، والتي ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحيوان، وهم يتقابلون صفين في ميدان الحرب العاتية التي تنتهي دائمًا بالسلام والصفاء.

وما أنس لا أنس ملعب الكرة في رحاب الجامعة المصرية، وقد أقيم في قصر الزعفران في شتاء سنة ١٩٢٦، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر في ذلك الحين، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال. ثم

مسّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعت المدفأة بين قدميه، ولبث ينتظر أخبار المباراة، وانتصر يومئذ الشبان المصريون على الشبان الأمريكان، ولكنهم تطامنوا في النهاية عامدين ليُمكنوا الصقور الأمريكية من الظفر المصنوع.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب، ولكن أين الشعراء؟ إن ملاعب الكرة تقام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدس والفول، وليس في مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم.

ما لي ولهذا؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفصل في قضية الشعراء، فلنتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء، وتنسى منهم من تشاء، ولننتقل إلى وصف ملعب الكرة في قصيدة أبي نواس، وقصيدة عبد الباقي إبراهيم.

٢

حدّث حمزة الأصفهاني أن أبا نواس خرج يومًا مع العباس بن موسى الهادي إلى «عيساناباذ»، فوجد في الميدان زهير بن المسبب والصقر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصوالجة فدخل مع القوم فصاروا حزبين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب، فلما طرب قال هذه الأرجوزة:

قَدْ أَشْهَدُ اللّهو بفتْيانٍ غُررْ ... مِنْ ولد العَبّاس سادات البشرْ
ومِن بَني قَحْطَانَ والحيّ مُضَرْ ... مِن كُلّ مَألوفٍ كَريمِ المُعْتَصَرْ (١)
زَيَّنَ حُسْنَ وَجْهِهِ طِيبُ الخَبَرْ ... عَلى حيَادٍ كَتَماثِيل الصُّوَرْ
مِن كُلّ طِرْفٍ أعوَجِيّ قَد ضَمَرْ (٢) ... لَمْ يَكوِهِ البَيْطارُ مِنْ داءِ الحَمَرْ (٣)

(١) كريم المعتصر: جواد عن السؤال.
(٢) الأعوجي: نسبة إلى أعوج، فرس كان لبني هلال ينتسب إليه الأعوجيات.
(٣) الحَمَر – بفتحتين – داء يعتري الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتش أفواها.

جِنٍّ عَلى جِنٍّ وَإنْ كانوا بَشَرْ ... كأَنَّمَا خِبطوا عَلَيْها بِالْإبرْ

أَوْ سَمَّر الفَارِسُ فيها فَانسَمَرْ ... بَيْنَ رياضِ مِثْلِ مَوْشِيِّ الحَبَرْ

مُكَلَّلاتٍ بَبَهارٍ وَزَهَرْ ... فانْتَدَبوا فِي يَوْم قُرٍّ وَخَصَرْ

إذ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمس فِي عِبَ مَطَرْ ... صَوَالحًا يَصْبو إلَيْها مَنْ نَظَرْ

مَحْنِيَّةً أطُرافُها فيها زَوَرْ (١) ... قَدَّرَها شابِرُها لَمَّا شَّبَرْ

فَلَم يَعِب طُولٌ ولا شانَ قِصَرْ ... وَقَدْ تَنادْوا فَتَرَامَوْا بالأكَرْ (٢)

مُدْمَجَةً الأرْكَانِ مَدْمَاةَ الطُّرَرْ ... شَدَّدَ صِفْقَي مَتْنِها حَشْو الشَّعَرْ (٣)

أحكَمَها صانِعُها لَمَّا فَطَرْ ... أَلْطَفَ بالإشفاءِ خَرْزًا إذْ دَسَرْ (٤)

فَلَيْسَ لِلإشْفْاء بِالْجِلْدِ أَثَرْ ... يُحْسَبْنَ تُفَّاحًا تَدَلَّى فِي شَجَرْ

حَتَّى إذا ما أُعْلَقَ القَوْمَ الخَطَرْ ... وَوَكَّلوا بِالبَزِّ مِقدامًا ذَكَرْ (٥)

مُحَرِّبًا يَوْمَ الرِّهَانِ المُحْتَضَر ... فَضَّلهُ حِذْقٌ وَضَربٌ مُشْتَهَرْ

فَلَم يَحُرْ مِنْهُم ولا العَيْن فَنَرْ ... واسْتَقْدَمَ القَوْمَ رَئِيسٌ ذو خطَرْ

بِكُرَةٍ دَحا بها ثُمَّ زَجَرْ ... فانحَدَرَت كالنَّجْمِ وَلَّى فَانْكَدَرْ

رَفعًا وَوَضْعًا أَيَّما ذاكَ اسْتَقَرْ ... تُدْفِعْ بِالضَّرْبِ إذَا الضَرْبُ اسْتَمَرْ

تَدافُعَ النَّبل بِإزْعاجِ الوَتَرْ ... فَلَمْ نَرَى فيهِمْ حَليمًا ذا وَقَرْ

---

(١) الزور بالتحريك: الميل...

(٢) الأكر جمع أكرة، وهي لغة في الكره.

(٣) الصفقان: مثنى صفق وهو الجانب.

(٤) الإشفاء – بالمد للضرورة – مثقب يخرز به الجلد. ودسر: أدخل الإشفى في الجلد.

(٥) البز. الغلبة والقهر.

إذا أجــادَ الضَّـــرْبَ فَـــدَّى ونَعَـــر ... وعَطْعط المرْءِ الّذي يرْجُو الَظّفَرْ [1]

وَاكتَأَبَــتْ نَفْـسُ الـذي خـاف الغِيَـرْ ... وأيْقَنــوا أنْ قـــدْ علاهُـــمْ وقهَـــرْ

حَــتَّى يَفــوزَ بِالرِّهـــان مــنْ قمــرْ ... يُســـاءُ هـــذاك وهــــذاك يُســـرْ

كذلك الدَهْرُ وتصْريف الْقَدَرْ

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن يتأملها القارئ ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير، وعيساناباد محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسة بن المهدي، وناباذ كلمة فارسية معناها العمارة، وهذه المحلة خلدها أبو نواس في هذا الرجز الطريف.

٣

أما عبد الباقي إبراهيم فقال قصيدته في وصف مباراة كرة القدم بين تلاميذ مدرسة محرم بك، وتلاميذ مدرسة رأس التين بمدينة الإسكندرية، مدينة الملاعب في الصيف وغير الصيف.

وإليكم أرجوزته:

أَذْكُــــرُ يَوْمًـــا أَعْلَـــن السُّـــرورا ... مَنعْـــت فيـــه العُـــين والضّـــميرا

يـــوْم الخَمـــيسِ الضّـــاحك النّضـــيرا ... لا بارد الجـــــــوّ ولا مطـــــــيرا

صــــحبْتُ فيــــهِ مَعْشـــرًا مـــبْرورا ... طـــووا علـــى حُـــبّ العُـــلا صُـــدْورا

حــــتَّى أَتَيْنــــا معْهـــدًا مشْــــهورا ... يفـــيضْ للشّـــعْب هُـــدىً ونُـــورا

حْيــــث شــــهدْنا لعبًـــا مشْـــكورا ... فيــــه الصُّـــــقْورْ بارت الصُّـــــقورا

أَبْنـــاء (رأس التّـــين) كـــانْوا سُـــورا ... أمـــام جـــيْشٍ جـــاءهُمْ مُغـــيرا

جيْشـــانِ مـــا ظـــلَّا دَمًـــا طهْـــورا ... ولا تـــرى مـــن بيـــنهمْ موْتُـــورا

قـــد نظَمـــوا صُـــفْوفهْم سُـــطورا ... بعْـــضٌ لـــبعْضٍ قـــد غـــدا ظهـــيرا

(١) عطعط: صاح.

وَنَمّروا ثِيابَهُمْ تَنْميرا   مِن العَدوِّ مبَّز النَّصيرا
تَساجَلوها كَرَّةً فَرورا   تَصدِف عَن وجه الثَّرَى نُفورا
فَمَرَّةً تَخْتَرِق الأثيرا   قُنْبلَةً تُهَدِّمُ القُصورا
ومَرَّةً تُصادِمُ النُّسورا   نَزْفِرُ في مَطارِها زَفيرا
تَرْمي بها الرِّجْلُ المَدَى القَصيرا   يَرْجِعُ طَرْفي دونَهُ حَسيرا
وإن بُرِدْها الرَّأسُ أنْ تَطيرا   سَمَت كمِنْطادٍ بَدا صَغيرا
لا تَلْمَس الكَفُّ لها شَكيرا   شَريعَةٌ تَجْعَلُه مَحظورا
وأشْعَلوا وَطيسَها سَعيرا   وَزَأَرَت أصْواتُهُم زَئيرا
فَذا تَراهُ أسَدًا هَصورا   وَذا تَراهُ بازِيًا حَدورا
ومِنْهُمُ مَن قَد هَوَى مَكْسورا   يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظَّهُ العَثورا
ظَلّوا عَلى هذا مَدىً قَصيرا   تَساجَلوا أثْناءَهُ السُّرورا
فَما اشْتَكَوْا عِيًّا ولا فُتورا   وَلَم تَرى في لِعْبِهِم مَنْكورا
حَتَّى إذا ما سَمِعوا صَفيرا   (قَدْكُمْ) أطاعوا الحَكَمَ الخَبيرا
وانصَرَفوا تَحْسَبُهُم مَنْثورا   مِن الأقاحِ ضاحَكَ المُنْثورا
ثُمَّ اجتَمَعْنا نُكْمِل الحُبورا   حَوْلَ خِوانٍ يَشْرَحُ الصُّدورا
أَفاضَتِ الحَلْوَى عليهِ النُّورا   وَأغرَت الأَعْيُنَ والثُّغُورا

وهذا أيضًا رَجَزٌ طريف، ولكن انظروا قليلًا في الموازنة بين القصيدتين.

٤

ولنذكر في بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائمًا أبو نواس، وبالرغم من الطرافة البادية في قصيدة عبد الباقي فإن قصيدة أبي نواس أرشق وأبدع وأظرف، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكئوس الصهباء، على حين ختمت حفلة رأس التين

بفناجين الشاي!

وربما كان من أسباب تفوق أبي نواس أنه اشترك في اللعب ثم فاز، أما عبد الباقي فكان من المتفرجين، وحماسة اللاعب أقوى وأعنف من حماسة المتفرج، يضاف إلى هذا أن الذيت تلاعبوا في ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ، على حين كان الذين تلاعبوا في عيساناباذ من الفتيان الميامين أمراء بني العباس.

وألفاظ أبي نواس كلها مُتخَيَّرةٌ، أما ألفاظ عبد الباقي ففيها القوي والضعيف.

يقول أبو نواس:

قَــدْ أَشْــهدُ اللّهــو بفتْيــانِ غُــررْ ... مــنْ ولــد العَبّــاس ســادات البشــرْ

ويقول عبد الباقي:

صــحبْتُ فيــهِ مَعْشــرًا مــبْرورا ... طــووا علــى حُــبّ العُــلا صُــدْورا

ولكم أن تنظروا الفرق بين «الفتيان الغرر» في كلام أبي نواس، و«المعشر المبرور» في كلام عبد الباقي، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين، أما عبد الباقي فيصف جماعة من الأساتذة قوّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب متثاقلين.

والمشهد مختلف بعض الاختلاف، فأصحاب أبي نواس يلعبون وهم فوق ظهور الجياد، أما أصحاب عبد الباقي فيلعبون فوق ظهر الأرض، ومن أجل ذلك تفردت قصيدة أبي نواس بهذه الشطرات في وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل.

جنٌ عَلى جِنٍ وَإنْ كانوا بَشَرْ

كأَنَّمَا خِبطوا عَلَيْها بِالْإبرْ

أَوْ سُمِّر الفَارِسُ فيها فَانسَمَرْ

وكذلك تفرد أبو نواس بوصف الجياد وليس لذلك في ملعب رأس التين مجال، ولم نكن نعرف لماذا شغر عبد الباقي نفسه بوصف الجو فذكر أنه لم يكن باردًا ولا مطيرًا، مع أن الحفلات السنوية للألعاب تقام في مطلع الربيع، وليس في مصر برد ولا مطر، والآن

نرجح أن هذه اللفتة وردت إلى ذهنه من قول أبي نواس:

فانْتَدَبوا في يَوْم قُرٍّ وَخَصَرْ

إذ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمس في عِبَ مَطَرْ

وتفرد أبو نواس بوصف الكرة، وكيف تأنق فيها الصانع فلم يبن في جلدها أثر للخرز حتى بدت كالتفاح تدلى من الشجر، وهو وصف حسّيٌّ ولكنه جميل لدلالته على قوة الكرة وصلاحيتها للكرّ في الفضاء، ولم يتحدث عبد الباقي عن شيء من ذلك؛ لأن الكرة في عصرنا لم تعد شيئًا غريبًا يوصف بالملاسة ومتانة الأركان.

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات:

فانْحَدَرَت كالنَّجْمِ وَلَّى فَانْكَدَرْ

رَفعًا وَوَضْعًا أَيْما ذاكَ اسْتَقَرْ

تَدافُعَ النَّبل بِإزْعاجِ الوَتَرْ

وأكاد أحكم بأن أبيات عبد الباقي في هذا المعنى أبرع إذ يقول:

تَساجَلوها كُرَةً فَرورا تَصدِف عَن وجه الثَّرَى نُفورا

فَمَرَّةً تَخْتَرِق الأثيرا فَتُبَلَةً تُهَدِّمُ القُصورا

ومَرَّةً تُصادِمُ النُّسُورا نَزْفِرُ في مَطارِها زَفيرا

تَرْمي بِها الرِّجْلُ المَدَى القَصيرا يَرْجِعُ طَرْفي دونَهُ حَسيرا

وإن يُرِدْها الرَّأسُ أنْ تَطيرا سَمَت كمِنْطادٍ بَدا صَغيرا

واشترك الشاعران في وصف حَسرة المنهزمين، وفي هذا قصَّر عبد الباقي فلم يزد على أن يقول:

ومِنْهُمُ مَن قَد هَوَى مَكْسورا يَندُبُ فِيهِمْ حَظْهُ العَثورا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مَسَاق الحكمة الباقية فقال:

وَاكتَأَبَتْ نَفْسُ الذي خاف الغِيَرْ

يُساءُ هذاك وهذاك يُسرْ

كذلك الدَهْرُ وتصْريف الْقَدَرْ

ومثل أبو نواس جَذَل الفائزين تمثيلًا طريفًا إذ قال يصف طيش اللاعبين:

فَلَــمْ نَــرَى فــيهِمْ حَليمًــا ذا وَقَــرْ إِذا أجــادَ الضَّــرْبَ فَــدَّى ونَعَــر

أما عبد الباقي فقد سما بلاعبيه إلى أفق الجد حين قال:

وأشْـــعَلوا وَطيسَـــها سَـــعيرا وَزَأَرَت أصْـــــواتُهُم زَئـــــيرا

فَـــذا تَـــراهُ أسَـــدًا هَصـــورا وَذا نَـــــراهُ بازِيًا حَـــــدورا

وتفرَّد عبد الباقي بالإشارة إلى ثياب الملعب إذ قال:

ونمّروا ثِيابَهُمْ تَنْميرا من العَدوّ مبَّز النَّصيرا

وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال:

وانصَــرَفوا تَحْسَــبُهُم مَنْثــورا مِــن الأقــاحِ ضــاحَكَ المنُثــورا

ثُمَّ اجتَمَعْنــا نُكْمِــل الحُبــورا حَــوْلَ خِــوانٍ يَشْــرَحُ الصُّــدورا

أَفاضْــتِ الحَلْــوَى عليــهِ النَّــورا وَأغــرَت الأَعْــيُنَ والثُّغُــورا

والذي يحكم بين اللاعبين هو في لغة هذا العصر، وفي أرجوزة عبد الباقي اسمه «الحكم» وفي أرجوزة أبي نواس اسمه «الرئيس».

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها في ملعب رأس التين مكان.

وتفرد عبد الباقي بالحديث عن صفاء القلوب في صدور اللاعبين حين قال:

أَبْنــاء رأس التّــين كــانْوا سُــورا أمــام جــيْشٍ جــاءهُمْ مُغــيرا

جيْشــانِ مــا طَــلَّا دَمًــا طهْــورا ولا تــرى مــن بيــنهمْ موْتُــورا

ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا في إشباع فعل مجزوم، فقال أبو نواس:

فَلَمْ نَرَ فيهِمْ حَليمًا ذا وَقَرْ

وقال عبد الباقي:

وَلَمَ تَرِ في لِعْبِهم مَنْكورا

ولم أفهم كلمة «الضمير» في قول عبد الباقي:

مَنعْت فيه العُين والضّميرا

ولعله يريد القلب.

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين في ملعب الكرة، وقد بقيت أشياء تمس اللغة وتمس الأسلوب، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوي الألباب.

الفصل الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

١

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان: مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي، ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية، ومراجعة قصيدتين شغلت أحداهما الناس تسعة قرون، وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية، شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقته الدسائس في الحب والملك، ولا يمكن أن تعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون، فالدسائس من ألوان الشر الوضيع، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تَسْطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد، فالرجل حين يُحرم تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدنيوية، والمجد الأدبي متاعٌ ليس بالقليل، وهو جدير بأن يوضع في الميزان ولا يغض من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يُحسون أثر عذا العوض، ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسًا مكتوبًا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلقم، والنعيم والجحيم.

أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمنا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق، فالوزارة منصب غادر ينتقل من يد إلى يد، كما ينتقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب، أما الحب فنفحة روحانية لا يعْبق طيبها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجر العبقرية في صدر ابن زيدون، ولكن أيّ حب؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية يرزقها الله إلى من يشاء، وهو خليقٌ بأن يصنع ما يصنع فيُعز ويذل، ويرفع ويضع، ويكرم ويهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب، وإنما يسيطر ويستطيل حين تجد رقيقًا من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنح الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين، وتحول الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يُقدّم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه، واستأثرت بنهاه:

هَـلْ رَاكِـبٌ ذاهِـبٌ عَـنْهُمْ يُحَيِّيـني ... إذْ لا كِتَـابَ يُـوافيني فيُحْيِيـني

قَـدْ مِـتُّ إلاّ ذَمَـاءً فِيَّ يُمْسِـكُهُ ... أنّ الفُـؤَادَ بِلُقْيـاهُمْ يِـرَجّيني

مَـا سَـرَّحَ الـدَّمْعَ مِـن عَيْـني وأطْلَقَـهُ ... إلاّ اعْتيـادُ أَسـىً فِي القَلْـبِ مَسْـجونِ

صَـبْرًا لَعَـلَّ الَّـذي بِالبُعْـدِ أَمْرَضَـني ... بِالقُـرْبِ يَوْمًـا يُـداوِيني فيَشْـفيني

كَيْـفَ اصْـطِباري وَفي كـانونَ فـارَقَني قَلْـبِي وهَـا نَحْـنُ في أعْقـابِ تَشْـرِينِ
شَـــخْصٌ يُـــذَكّرُني فـــاهُ وَغُرّتَـــهُ شَمْــسُ النَّهـــارِ وأنْفَـــاسُ الـــرّياحينِ
لـئنْ عَطشْـتُ إلى ذاكَ الرُّضَـابِ لكَـمْ قَــدْ بَاتَ مِنْــهُ يُسَــقّيني فَيُــرْويني
وَإنْ أفـاضَ دُمُـوعي نَـوْحُ باكِيَـة فكَـــمْ أرَاهُ يُغَنّيـــني فَيُشْـــجيني
وإنْ بَعْـدْتُ وأضْـنَتنْي الهمـومُ لَقَـد عَهِدْتُـــهُ وَهْـــوَ يُـــدْنيني فيُسْـــليني
أوْ حَـلَّ عَقْـدَ عَزائْـي نأيُـهُ فَلَكَـمْ حَلَلْـتُ عَـنْ خَصْـرِهِ عَقْـدَ الثَّمـانينِ
يا حُسْنَ إشْرَاقِ ساعاتِ الدُّنُوّ بدَتْ كَواكِبًـا في لَيـالي بُعْـدِهِ الجُـونِ
واللهِ مـا فـارقُوني باخْتَيـارِهِمُ وَإنّمَـا الـدَّهْرُ بالمَكْـرُوهِ يَـرْميني
ومـا تَبَـدّلْتُ حُبًّـا غَـيرَ حُـبّهِمِ إذًا تَبَـدّلْتُ دِيـنَ الكُفْـرِ مِـنْ دِيـني
أفْدِي الحَبيبَ الـذي لوْ كَانَ مُقْتَـدِرًا لكَــانَ بِالــنَّفْسِ وَالأهْلِـينَ يَفْــدِيني

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولّادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان:كانت من الأدب والظرف، وتَتْيِيم المِسْمع والطَّرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب.

كانت ولّادة فاتنة الجمال، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع، وتدرك أسرار الكلام البليغ. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين، ينعم بالحب، وينعم بالشعر، والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجّه أنغامه إلى أذن تسمع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلكم الأديبة الحسناء:

إنّي ذَكَرْتُــكِ بَالزّهْــراءِ مُشْــتاقا والأفقُ طَلْقٌ، ومَرْأى الأرْض قَدْ راقَا
وَلِلنَّســيمِ اعْــتِلالٌ في أصــائِلِهِ كَأنَّــهُ رَقّ لي فاعْتَــلّ إشْــفَاقَا
والـرَّوْضُ عَـن مَائِـه الفِضِّـيّ مُبْتَسِـمٌ كَمـا شَـقَقْتَ عَـنِ اللَّبّـاتِ أطْواقَـا
يَــوْمٌ كَــأيّامٍ لَــذّاتٍ لَنَــا انْصَــرَمتْ بِتْنَــا لَهَـا حـينَ نامَ الـدّهْرُ سُـرّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ العَيْنَ مِن زَهرٍ ... جالَ النّدَى فيهِ حَتَّى مالَ أعْناقَا
كَأنّ أعْيُنَهُ إذْ عايَنَتْ أرَقِي ... بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدَّمعُ رَقْرَاقَا
وَرْدٌ تألّقَ في ضاحِي مَنابِتِهِ ... فازْدادَ مِنهُ الضُّحَى في العْينِ إشْراقَا
سَرَى يُنافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عبِقٌ ... وَسْنَانُ نَبّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أحْدَاقَا
كُلٌّ يَهيجُ لنَا ذِكْرَى تَشَوّقِنَا ... إليكِ لَمْ يَعْدُ عنْها الصّدْرُ أن ضاقَا
لا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا عَنَّ ذِكْرَكُمُ ... فَلَم يَطِرْ بجَناحِ الشّوقِ خفّاقَا
لوْ شاء حَمْلي نَسيمُ الصُّبْحِ حينَ سَرَى ... وافاكُمُ بِفَتى أضْناهُ ما لاقَى
لوْ كَانَ وَفّى المُنَى في جَمعِنَا بِكمُ ... لَكانَ مِنْ أكْرمِ الأيّامِ أخْلاقَا
كانَ التَّجاري بِمَحْضِ الوُدِّ مِنْ زَمَن ... مَيْدانَ أنْسٍ جَرَيْنَا فيهِ أطْلاقَا
فالآنَ أحْمَدَ ما كُنّا (لِعَهْدِكُمُ) ... سَلَوْتُمُ وَبَقِينَا نَحْنُ عشّاقَا

٢

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون، وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنا بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد العربية، وهي في الشعر العربي تذكر بليالي موسِّيه في الشعر الفرنسي، فكما أن الفرنسيين جميعًا يعرفون ليالي موسِّيه، فالعرب يعرفون جميعًا نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجعل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجعل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول: إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب؟

والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يصدف عنها إلا الغافلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء [1] :

أضْحَى التَّنائي بَديلًا مِنْ تَدانِينا ... وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تَجافِينَا
ألاّ وَقَدْ حانَ صُبحُ البَيْنِ صَبَّحَنا ... حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بِانتِزاحِهِمُ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهرِ لا يَبْلَى ويُبْلِينَا
أَنْ الزَّمانَ الَّذي ما زالَ يُضْحِكُنا ... أَنْا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عاد يُبْكِينا
غَيْظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهَوَى فدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ فَقالَ الدّهْرُ: آمينَا
فَانْحَلّ ما كانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولًا بِأيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرّقُنا ... فاليومَ نَحْنُ ومَا يُرْجَى تَلاقِينَا

•••

يا لَيتَ شِعْرِي وَلم نُعْتِبْ أعادِيَكُم ... هَلْ نَالَ حَظًّا مِنْ العُتبَى أعادِينَا
لَم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إلاّ الوَفاءَ لكُمْ ... رَأيًا ولَمْ نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا
ما حَقَّنا أن تُقِرُّوا عَيْنَ ذي حَسَدٍ ... بِنا ولا أن تَسُرّوا كاشِحًا فِينَا
كُنّا نَرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه ... وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا
بِنْتُم وَبِنّا فَما ابتَلّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إلَيكُمْ وَلا جَفّتْ مآقِينَا
نَكادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا ... يَقْضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا
حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا فغَدَتْ ... سُودًا وكانتْ بكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا ... وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوصلِ دانيةً ... قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة؛ لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي، فإنها مختلفة الأغراض، وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك؟

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَما كُنْتُمْ لأرواحِنا إلاّ رَياحينَا

لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يُغيّرُنا إذْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أرْواحُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينَا

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصْرَ فَاسْقِ به مَنْ كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا

وَاسألْ هُنالِكَ هَلْ عَنَّى تَذكُّرُنا إلْفًا تذكُّرُهُ أمْسَى يُعنّينَا

وَيَا نَسيمَ الصَّبَا بلّغْ تَحِيّتَنَا مَنْ لَوْ عَلى البُعْدِ حَيّا كان يُحيِينا

فَهَلْ أرى الدّهْرَ يقْضينا مُساعفَة مِنْهُ وإنْ لم يكُنْ غبًّا تقاضِينَا

•••

رَبيبُ مُلْكٍ كَأنّ اللهَ أنْشَأهُ مِسْكًا وَقَدّرَ إنْشاءَ الوَرَى طِينَا

أوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوّجَهُ مِنْ نَاصِعِ التّبْرِ إبْداعًا وتَحْسِينَا

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ رَفاهِيّة تُومُ العُقُودِ وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

كانتْ لَهُ الشّمسُ ظئرًا في أكِلّته بَلْ مَا تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

كأنّما أثبتَتْ في صَحْنِ وجْنتِهِ زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزَيِينَا

ما ضَرّ أنْ لَمْ نَكُنْ أكْفاءَهُ شرَفًا وَفي المَوَدَّة كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

•••

يا رَوْضَة طالَما أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا وَرْدًا جَلاهُ الصِّبا غضًّا وَنَسْرِينَا

ويَا حَيَاةً تَمَلّيْنَا بِزَهْرَتِهَا مُنىً ضُروبًا وَلَذّاتٍ أفانينَا

ويَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبنا ذَيْلَه حينَا

لَسْنا نُسَمّيكِ إجْلالًا وَتَكْرِمَة فَقَدْرُكِ المُعْتَلي عَنْ ذاكِ يُغْنِينَا

إذا انفرَدْتِ وَما شُورِكْتِ في صِفَةٍ فَحَسْبُنا الوَصْفُ إيضَاحًا وتبْيينَا

يا جَنَّــة الخُلْــدِ أُبْــدِلْنا بِسَلْسَــلِها والكَــوْثَرِ العَــذْبِ زَقّومًــا وَغِسْــلينَا
كأنّنَــا لَمْ نَبِــتْ والوَصْــلُ ثالِثُنَــا وَالسَّعْدُ قَـدْ غَـضَّ مِـنْ أجْفـانِ وَاشـينَا
سِـرّانِ في خـاطِرِ الظُّلْمـاءِ يَكتُمُنـا حَـتَّى يَكـادَ لِسـانُ الصُّـبْحِ يُفْشـينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحُبَّ حينَ نَهتْ عَنْـهُ النُّهَـى وَتَرَكْنـا الصَّـبْرَ ناسِـينَا
إنّا قَـرَأنا الأسَـىَ يَـوْمَ النَّـوَىَ سُـورًا مَكْتوبَــةً وَأخَــذْنَا الصّــبرَ تَلْقِينَــا
أمَّـا هَـواكِ فَلَـمْ نَعْـدِلْ بمَنْهَلِـهِ شُــرْبًا وَإنْ كــانَ يُرْوِينَــا فيُظمِينَــا
لمْ نَجْـفُ أفْـقَ جَمـالٍ أنْـتِ كَوكبُـهُ سَــالِينَ عَنْــهُ وَلَمْ نَهْجُــرْهُ قالِينَــا
وَلا اخْتِيــارًا تَجَنّبْنــاهُ عَــنْ كَثَــبٍ لكِــنْ عَــدَتْنَا عَلَــى كُــرْهٍ عَوَادِينَــا
نأسَـى عَلَيْـكِ إذا حُثَّـتْ مُشَعْشَـعَة فِينــا الشَّــمُولُ وغنَّــانَا مُغنّينَــا
لا أكْـؤسُ الـرَّاحِ تُبْـدي مِـنْ شَمَائِلِنَـا سِــيّما ارْتيــاحٍ وَلا الأوْتارُ تُلْهِينَــا
دُومي عَلَـى العَهْـدِ مـا دُمْنا مُحافِظَـةً فَــالحُرُّ مَــنْ دانَ إنْصــافًا كَمَــا دينَـا
فَمـا اسْتَعَضْـنا خَلـيلًا مِنْـكِ يَحْبِسُـنا وَلا اسْــتَفَدْنا حَبِيبًــا عَنْــكِ يُثْنِينَــا
وَلَـوْ صَـبَا نَحْـوَنَا مِـنْ عُلـوِ مَطْلَعِـه بَـدْرُ الـدُّجَى لَمْ يَكُـنْ حاشـاكِ يُصْـبِينَا
أَبْلِــي وَفَــاءً وَإنْ لَمْ تَبْــذُلِي صِــلَةَ فَــالطَّيْفُ يُقْنِعُنَــا وَالــذِّكرُ يَكْفِينَــا
وَفِي الجَـوَابِ مَتَـاعٌ إنْ شَـفَعْتِ بـهِ بِـيضَ الأيادي الَّـتي مـا زِلْـتِ تُولينَـا

تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون.

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء، هيهات فلن يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب، مُرهف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسناء، ولو أنه دوّن جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات:

وَدَّع الصَّــــبْرَ مُحِــــبٌّ وَدَّعَــــكْ ذائِــعٌ مِــن سِــرِّهِ مــا اِسـتَودَعَك

يَقــرَعُ السِــنَّ عَلــى أَن لَم يَكُــن زادَ في تِلــكَ الخُطــا إِذ شَــيَّعَك
يا أَخــا البَــدرِ سَــناءً وَسَــنًا حَفِــظَ اللهُ زَمــانًا أَطلَعَــك
إِن يَطُــل بَعــدَكَ لَيلــي فَلَكَــم بِــتُّ أَشــكو قِصَــرَ اللَيــلِ مَعَــك

الفصل الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

١

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيّف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف لا نستكثر القول في شوقي، وقد ندّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرل العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري، ولكنهم عجزوا جميعًا عن الجري في ميدانه، ولم يُؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يَعبها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوق حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية إشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهًا به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

يا نائِحَ الطَّلْحِ أَشباهٌ عَوادينا ... نَشْجى لِواديكَ أَم نَأسَى لِوادينا
ماذا تَقُصُّ عَلَيْنا غَيْرَ أَنَّ يَدًا ... قَصَّتْ جَناحَكَ جالَتْ في حَواشينا
رَمى بِنا البَينُ أَيْكًا غَيرَ سامِرِنا ... أَخا الغَرِيبِ وَظِلًّا غَيْرَ نادينا
كُلٌّ رَمَتهُ النَوى، ريشَ الفِراقُ لَنا ... سَهْمًا، وَسُلَّ عَلَيْكَ البَينُ سِكّينا
إِذا دَعا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ ... مِنَ الجَناحَينِ عَيٍّ لا يُلَبّينا
فَإِن يَكُ الجِنسُ يا اِبنَ الطَلحِ فَرقَنا ... إِنَّ المَصائِبَ يَجْمَعنَ المُصابينا

لَمْ تَأْلُ مـــاءَكَ تَحْنــانًا وَلا ظَمَـــا وَلا ادِّكـــارًا وَلا شَـــجْوا أَفانينـــا
تَجُـرُّ مِـنْ فَـنَنٍ ذَيْـلًا إِلَى فَـنَنٍ وَتَسْـحَبُ الـذَيلَ تَـرْتادُ المُؤاسـينا
أُسـاةُ جِسْـمِكَ شَـتَّى حـينَ تَطْلُـبُهُم فَمَـن لِروحِـكَ بِالـنُطسِ المُـداوينا

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالين: حال المغترب وحال المقيم، فما تدري أيبكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تَجُـرُّ مِـنْ فَـنَنٍ ذَيْـلًا إِلَى فَـنَنٍ وَتَسْـحَبُ الـذَيلَ تَـرْتادُ المُؤاسـينا

وهي حال تشهدها في الطائر المحزون، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هُدى من أيْك إلى أيْك، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال:

أُسـاةُ جِسْـمِكَ شَـتَّى حـينَ تَطْلُـبُهُم فَمَـن لِروحِـكَ بِالـنُطسِ المُـداوينا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما يجد من يذبحه ويشويه، والناس ألأم من أن يطبُّوا لطائر جريح!

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته، فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال:

وَاهـا لَنـا نازِحَـي أَيْـكٍ بِأَنـدَلُسٍ وَإِن حَلَلْنـا رَفيقًـا مِـن رَوابينـا
رَسْـمٌ وَقَفْنـا عَلـى رَسْـمِ الوَفـاءِ لَـهُ نَجـيشُ بِالـدَمْعِ وَالإِجْـلالِ يَثنينـا
لِفِتيَـةٍ لا تَنـالُ الأَرْضُ أَدْمُعَهُـم وَلا مَفـارِقَهُم إِلّا مُصَـلّينا
لَـوْ لَمْ يَسـودوا بِـدينٍ فيـهِ مَنْبَهَـةٌ لِلنـاسِ كانَـتْ لَهُـمْ أَخلاقُهُـم دينـا
لَمْ نَسْـرِ مِـن حَـرَمٍ إِلّا إِلى حَـرَمٍ كَـالخَمرِ مِـن بابِـلٍ سـارَت لِـدارينا

لَمّــا نَبــا الخُلــدُ نابَــت عَنْــهُ نُسْــخَتُهُ ... تَمَاثُـــلَ الــــوَرْدِ خِـــيرِيًّا وَنَسْـــرينا

نَسْــقي ثَــراهُم ثَنــاءً كُلَّمــا نُثِــرَت ... دُموعُنـــا نُظِمَـــت مِنْهـــا مَرَاثينـــا

كـــادَت عُيـــونُ قَوافِينـــا تُحَرِّكُـــهُ ... وَكِــدنَ يــوقِظنَ فِي الــتُّربِ السَــلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالشاعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء؛ لأنه في ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وقدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل:

لَكِــنَّ مِصْــرَ وَإِن أَغْضَــت عَلَــى مِقَــةٍ ... عَــيْنٌ مِــنَ الخُلْــدِ بِالكــافورِ تَسْــقينا

عَلـــى جَوانِبِهـــا رَفَّـــت تَمائِمُنـــا ... وَحَـــوْلَ حافاتِهـــا قامَـــتْ رَواقينـــا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أحَـــبُ بِــلادِ الله مــا بَــيْنَ مِــنْعِجٍ ... إليَّ وسَـــلْمى لَـــو يَصـــوبُ سَـــحَابُها

بِــلادٌ بِهَــا نِيطَــتْ عَلــيَّ تَمَــائمي ... وأوَّلُ أرْضٍ مَـــسَّ جِسْـــمي تُرابُهـــا

والبِكْر هو قول شوقي:

مَلاعِـــبٌ مَرَحَـــتْ فيهـــا مَآرِبُنـــا ... وَأَربُـــعٌ أَنِسَـــت فيهـــا أَمانينـــا

وإنما كان هذا معنى بكرًا لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المآرب، وكيف تأنس الأماني؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١م، وكان دعاني للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك

المبْسم الساحر، وسألت نفسي: كيف كان ذلك الملاك في صِباه!

إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق؛ وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون، ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمخَةً بالسحر والفتون، وكان للجمال قدسيةٌ، وكان للصبا سُلطان، وكانت خطوب الزمان لا تهد النفوس كما تفعل هذه الأيام.

ومن البكر أيضًا قول شوقي:

بِنَّا فَلَمْ نَخْلُ مِن رَوْحٍ يُراوِحُنا ... مِن بَرِّ مِصْرَ وَرَيحانٍ يُغادينا

كَأُمِّ موسى عَلَى اِسمِ اللهِ تَكْفُلُنا ... وَبِاِسمِهِ ذَهَبَتْ في اليَمِّ تُلقينا

يريد أن يقول: إن مصر لم تلقه في يم النفي إلا خوفًا عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول!

٢

تذكرون قول ابن زيدون:

يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصْرَ فَاسقِ به ... مَنْ كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا

وَاسأَلْ هُنالِكَ هَلْ عَنَّى تَذكُّرُنا ... إلْفًا تَذكُّرُهُ أمْسَى يُعنّينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال:

يا سارِيَ البَرْقِ يَرمي عَن جَوانِحِنا ... بَعدَ الهُدوءِ وَيَهمي عَن مَآقينا

لَمّا تَرَقْرَقَ في دَمْعِ السَّماءِ دَمًا ... هاجَ البُكا فَخَضَبْنا الأَرْضَ بَاكينا

اللَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِك دَياجِيَهُ ... عَلَى نِيامٍ وَلَمْ نَهْتِف بِسالينا

وَالنَجْمُ لَمْ يَرَنا إلّا عَلَى قَدَمٍ ... قِيامَ لَيلِ الهَوَى لِلعَهْدِ راعينا

كَزَفرَةٍ في سَماءِ اللَّيْلِ حائِرَةٍ ... مِمَّا نُرَدِّدُ فيهِ حينَ يُضْوينا

بِاللهِ إن جُبتَ ظَلْماءَ العُبابِ عَلَى — نَجائِبِ النُّورِ مَحْدُوًّا (بِجرّينا)
تَرُدُّ عَنْكَ يَداهُ كُلَّ عادِيَةٍ — إنسًا يَعِثْنَ فَسادًا أَو شَياطينا
حَتَّى حَوَتكَ سَماءُ النّيلِ عالِيَةٍ — عَلى الغُيوثِ وَإِن كانَت مَيامينا
وَأَحْرَزَتكَ شُفوفُ اللّازَوَردِ عَلَى — وَشْيِ الزَبَرْجَدِ مِن أَفوافِ وادينا
وَحازَكَ الرّيفُ أَرجاءً مُؤَرَّجَةً — رَبَت خَمائِلَ وَاهتَزَّت بَساتينا
فَقِفْ إِلى النيلِ وَاهتُف في خَمائِلِهِ — وَانزِل كَما نَزَلَ الطَلُّ الرَّياحينا
وَآسِ ما بَاتَ يَذْوي مِن مَنازِلِنا — بِالحادِثاتِ وَيَضْوى مِن مَغانينا

انظروا. ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صورًا من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعرًا ودَّع دنياه حين وَدع النيل.

وقال ابن زيدون:

وَيَا نَسيمَ الصَّبَا بلِّغْ تَحيّتَنَا — مَنْ لَوْ عَلى البُعْدِ حَيّا كان يُحيِينا

عارضه شوقي فقال:

وَيا مُعْطِّرَةَ الوادي سَرَت سَحَرًا — فَطابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِن مَرامينا
ذَكِيَّةُ الذَّيْلِ لَو خِلنا غِلالَتَها — قَمِيصَ يوسُفَ لَم نُحْسَب مُغالينا
جَشِمْتِ شَوْكَ السُرَى حَتَّى أَتَيتِ لَنا — بِالوَردِ كُتْبًا وَبِالرَّيَّا عَناوينا
فَلَو جَزَيْناكِ بِالأَرْواحِ غالِيَةً — عَن طيبِ مَسْراكِ لَم تَنهَضْ جَوازينا
هَل مِن ذُيولِكِ مَسْكِيٌّ نُحَمِّلُهُ — غَرائِبَ الشَّوقِ وَشْيًا مِن أَمالينا
إِلى الَّذينَ وَجَدنا وُدَّ غَيرِهِمُ — دُنْيا وَوُدَّهُمو الصَّافي هُوَ الدِّينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال: «يا نسيم الصبا» وهو تعبير ورد في مئات

القصائد، أما شوقي فراح يفتن افتتانًا يدل على قوة الشاعرية، وبرعة الخيال، فوصف السمة بأنها معطرة الوادي وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق، وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف، وأنها جَشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسمًا في رسائل، وأتت بالرَّيا ممثلة في عناوين، وشكر لها النُعمى فقال:

فَلَـــو جَزَيْنـــاكِ بِالأَرْواحِ غالِيَـــةً عَـن طيبِ مَسْراكِ لَم تَـنهَضْ جَوازينـا

وابن زيدون يقول: «بلغ تحيَتنا» وهي عبارة جافية؛ لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول:

هَــل مِــن ذُيولِــكِ مَسْــكِيٌّ نُحَمِّلُــهُ غَرائِــبَ الشَّــوقِ وَشْــيًا مِــن أَمالينـا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحيّة، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو في صفاء الدين.

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي:

يا سـارِيَ البَـرْقِ يَرمـي عَـن جَوانِحِنـا بَعــدَ الهُــدوءِ وَيَهمــي عَــن مَآقينــا

اختلس برفق وحِذْق من قول ابن زيدون:

بِنْــتُم وَبِنّــا فَمــا ابتَلّــتْ جَوَانِحُنَــا شَــوْقًا إلَــيكُمْ وَلا جَفّــتْ مآقِينَــا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتًا؛ وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لا بدّ له من توشيةٍ بارعة تعفي على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون. ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بقليل.

٣

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال:

حَالَــتْ لِفقــدِكُمُ أيّامُنـــا فغَــدَتْ سُــودًا وكانــتْ بكُــمْ بِيضًــا لَيَالِيَنَــا

إِذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تأَلُّفِنا ... وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الأنْسِ دانيةً ... قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَما ... كُنْتُمْ لأرواحِنَا إلاّ رَياحينَا

وهذا شعر صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال:

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنافِ الرُبَا رِفَةً (١) ... أَنَّى ذَهَبْنا وَأَعْطافِ الصَّبا لينا

إِذِ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهِيَةٌ ... تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا

الوَصْلُ صافِيَةٌ وَالعَيْشُ ناغِيَةٌ ... وَالسَعْدُ حاشِيَةٌ وَالدَهْرُ ماشينا

وَالشَّمْسُ تَخْتالُ في العِقيانِ تَحْسَبُها ... بَلْقيسَ تَرفُلُ في وَشْيِ اليَمانينا

وَالنِّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيا إِذا اِحْتَفَلَت ... لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا

وَالسَعْدُ لَو دامَ وَالدُنْيَا لَو اِطَّرَدَت ... وَالسَّيْلُ لَو عَفَّ وَالمِقْدارُ لَو دينا

أَلقى عَلى الأَرْضِ حَتَّى رَدَّها ذَهَبًا ... ماءً لَمَسْنا بِهِ الإِكْسيرَ أَو طينا

أَعداهُ مِن يُمْنِهِ (التَّابوتُ) وَارتَسَمَت ... عَلَى جَوانِبِهِ الأَنوارُ مِن سينا

لَهُ مَبالِغُ ما في الخُلقِ مِن كَرَمٍ ... عَهدُ الكِرامِ وَميثاقُ الوَفِيّينا

لَم يَجْرِ لِلدَهرِ إِعْذارٌ وَلا عُرُسٌ ... إِلّا بِأَيّامِنا أَو في لَيالينا (٢)

وَلا حَوى السَّعْدُ أَطْغى في أَعِنَّتِهِ ... مِنّا جِيادًا وَلا أَرخى مَيادينا

نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النّارَ جَوْهَرُنا ... وَلَم يَهُن بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا

وَلا يَحولُ لَنا صِبْغٌ وَلا خُلُقٌ ... إِذا تَلَوَّنَ كَالحِرباءِ شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود؛ لأن ابن زيدون على

---

(١) رِفَةً: النضرة.

(٢) الإعذار: طعام يتخذ لأيام السرور.

قصر نَفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال:

وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الأُنْسِ دانيةً ... قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا

وبلغ غاية الدقة حين قال:

إِذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا ... وَمَوردُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، تألف القلبين، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافي، تصافي الحبيبين، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك؛ وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفْت لك، وقد يراه غيرك في ابتسامة صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة، فتراه عاشقًا يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك؛ إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مَرح وحسنٍ طروبٍ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقنا قول شوقي:

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنافِ الرُبَا رِفَةً ... أَنَّ ذَهَبْنا وَأَعْطافِ الصَّبا لينا

إِذِ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهِيَةٌ ... تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا

الوَصْلُ صافِيَةٌ وَالعَيْشُ ناغِيَةٌ ... وَالسَعْدُ حاشِيَةٌ وَالدَهْرُ ماشينا

وَالنّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيا إِذا اِحْتَفَلَت ... لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا

يروقنا هذا الشعر؛ لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات؛ ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهًا باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبر جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعرٌ أمكنته من أعطاف الصبا سَورة الصبَوات، ويروقنا أيضًا لطرافة هذا الخيال:

تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا

ورفيف الأوقات معنىً يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة اللهو الجَموح.

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة؛ لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك:

لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال:

يا رَوْضَــةَ طالَمــا أجْنَــتْ لَوَاحِظَنَــا وَرْدًا جَــلاهُ الصِّــبا غضًّــا وَنَسْــرِينَا

ويَا حَيَــــاةً تَمَلّيْنَــــا بِزَهْرَتِهَــــا مُــــنىً ضُــــروبَا وَلَــــذّاتٍ أفانِينَــــا

ويَا نَعِيمًــا خَطَــرْنَا مِــنْ غَضَــارَتِهِ في وَشْــيِ نُعْمَــى سَــحَبنا ذَيْلَــه حينَــا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون؟ أترون العذوبة في الهاتف بالروضة التي «طالَما أجْنَتْ وردا جلاه الصبا» تأملوا عبارة «أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا»، وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يبصر الأفنان، وكيف يجني القطوف. وعبارة جَلاهُ الصِّبَا ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف:

مُنىً ضُروبَا وَلَذّاتٍ أفانينَا

أتعرفون كيف يكون للمُنى ألوانٌ وللذات أفانين؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت:

ويَا نَعِيمًــا خَطَــرْنَا مِــنْ نَضَــارَتِهِ في وَشْــيِ نُعْمَــى سَــحَبنا ذَيْلَــه حينَــا

أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يُريكم الخيال صورة فتىً منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في الحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود.

٤

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول:

يا جَنَّــةَ الخُلْــدِ أُبْــدِلْنا بِسَلْسَــلِها والكَــوْثَرِ العَــذْبِ زَقُّومًــا وَغِسْــلينَا
كأنّنَــا لَمْ نَبِــتْ والوَصْــلُ ثالِثُنَــا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أجْفانِ وَاشينَا
سِــرّانِ في خــاطِرِ الظُّلْمــاءِ يَكتُمُنــا حَــتَّى يَكــادَ لِســانُ الصُّــبْحِ يُفْشِــينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحُبَّ حينَ نَهتْ عَنْـهُ النُّهَـى وَتَرَكْنـا الصَّـبْرَ ناسِـينَا
إنّا قَـرَأنا الأسَـىَ يَـوْمَ النَّـوَى سُـورَا مَكْتوبَــةً وَأخَــذْنَا الصّــبرَ تَلْقِينَــا
أمَّــا هَــواكِ فَلَــمْ نَعْــدِلْ بِمَنْهَلِــهِ شُــرْبًا وَإنْ كــانَ يُرْوِينَــا فيُظمِينَــا
لمْ نَجْـفُ أفْـقَ جَمـالٍ أنْـتِ كَوكَبُـهُ سَــالِينَ عَنْــهُ وَلَمْ نَهْجُــرْهُ قالِينَــا
وَلا اخْتِيــارًا تَجَنّبْنــاهُ عَــنْ كَثَــبٍ لكِــنْ عَــدَتْنَا عَلَــى كُــرْهٍ عَوَادِينَــا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسْلين، ويرى وِرْد الهوى القديم شربًا لا يعدله شرب، وإن كان يرويه فيظميه. ونعيم الوصل يُرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ والتياعًا إلى التياع. وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود، وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المونق:

لمْ نَجْفُ أفْقَ جَمالٍ أنْتِ كَوكَبُهُ

فكأن الدنيا لعهده أفقًا من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفُتون.

هذا جزعٌ من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي يصف قسوة الليل وقسوة الفراق:

وَنابِغِــي كَــأَنَّ الحَشْــرَ آخِــرُهُ تُميتُنــا فيــهِ ذِكْــراكُم وَتُحْيينــا

نَطْــوي دُجــاهُ بِجُــرحٍ مِــن فُــراقِكُم يَكــادُ في غَلَــسِ الأَسْــحارِ يَطْوينــا

إِذا رَســا الــنَجْمُ لَمْ تَرقَــأ مَحــاجِرُنا حَــــتّى يَـــزولَ وَلَمْ تَهْـــدَأْ تَراقينـــا

بِتنــا نُقاســي الــدَواهي مِــن كَواكِبِــهِ حَــتّى قَعَــدْنا بِهــا حَسْــرى تُقاســينا

يَبْـــدو النَهـــارُ فَيَخْفيـــهِ تَجَلُّـــدُنا لِلشّـــــامِتينَ وَيَأْسْـــــوهُ تَأَسّـــــينا

وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت:

نَطْــوي دُجــاهُ بِجُــرحٍ مِــن فُــراقِكُم يَكــادُ في غَلَــسِ الأَسْــحارِ يَطْوينــا

أترون كيف يطوى الدجى بالجرح؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطء الكواكب، ثم ينظر فيراها ابتُلِيَت به فباتت تقاسيه، وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل، أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهارًا إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين.

٥

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران.

ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أقصاه عنها الزمان:

نأسَــى عَلَيْــكِ إذا حُثَّــتْ مُشَعْشَــعَة فِينــــا الشَّــــمُولُ وغنَّــــانَا مُغنّيَنَــــا

لا أَكْـؤسُ الـرَّاحِ تُبْـدي مِـنْ شَمَائِلِنَـا سِـــيّما ارْتِيــاحٍ وَلا الأَوْتارُ تُلْهِينَــا

وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية، ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمثال هذه اللحظات لدغات أعنف من الجمر المشبوب، وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه لحظات تكشف المُقَنَّع

من سرائر النفوس، وتصنع ما تصنع الحمَّى العاتية حين تُنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون:

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلوِ مَطْلَعِه ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حاشاكِ يُصْبِينَا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية:

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالخُلْدِ عَنْهُ ... نازَعَتني إلَيْهِ في الخُلْدِ نَفْسي

وهو أخذٌ رفيقٌ لا يحاسب على مثله الشعراء.

وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل، فقال:

لَمْ يَجْرِ لِلدَهرِ إعْذارٌ وَلا عُرُسٌ ... إلّا بِأَيّامِنا أَو في لَيالينا

وَلا حَوى السَّعْدُ أَطْغى في أَعِنَّتِهِ ... مِنّا جِيادًا وَلا أَرخى مَيادينا

نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النّارَ جَوْهَرُنا ... وَلَم يَهُن بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا

وَلا يَحولُ لَنا صِبْغٌ وَلا خُلُقٌ ... إذا تَلَوَّنَ كَالحِرباءِ شانينا

لَم تَنزِلِ الشَّمْسُ مِيْدَانًا وَلا صَعَدَت ... في مُلْكِها الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وادينا

أَلَم تُؤَلَّه عَلى حافاتِهِ وَرَأَتْ ... عَلَيهِ أَبناءَها الغُرَّ المَيامينا

إن غازَلَت شاطِئَيهِ في الضُّحَى لَبِسا ... خَمائِلَ السُّنْدُسِ المَوْشِيَّةِ الغينا (١)

وَباتَ كُلُّ مُجاجِ الْوادِ مِن شَجَرٍ ... لَوافِظَ القَزِّ بِالخيطانِ تَرمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف!

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:

---

(١) الغين: جمع أغين، وهو الأخضر، والمؤنث غيناء.

نَحـنُ اليَواقيـتُ خـاضَ النّـارَ جَـوْهَرُنا   وَلَم يَهُـــن بِيَـــدِ التَّشْـــتيتِ غالينـــا

وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب عدمه، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام، فقال:

وَهَـذِهِ الأَرضُ مِـن سَـهْلٍ وَمِـن جَبَـلٍ   قَبْـــلَ القَياصِـــرِ دِنّاهـــا فَراعينـــا

وَلَم يَضَـــعْ حَجَـــرًا بانٍ عَلـى حَجَـــرٍ   في الأَرضِ إِلّا عَلَـــــى آثارِ بانينـــــا

كَـأَنَّ أَهْـرامَ مِصْـرٍ حـائِطٌ نَهَضَـت   بِـــهِ يَـــدُ الـــدَهرِ لا بُنيـــانُ بانينـــا

إِيوانُــهُ الفَخــمُ مِــن عُلْيــا مَقاصِــرِهِ   يُفـني المُلـوكَ وَلا يُبقـي الأَواوينـا [1]

كَأَنَّهـــا وَرِمـــالًا حَولَهـــا اِلْتَطَمَـــت   سَــــفينَةٌ غَرِقَـــت إِلّا أَســـــاطينا

كَأَنَّهــا تَحْــتَ لَألاءِ الضُّــحى ذَهَبًــا   كُنــوزُ فِرعَــوْنَ غَطَّــيْنَ المَوازينـــا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:

وَلَم يَضَـــعْ حَجَـــرًا بانٍ عَلـى حَجَـــرٍ   في الأَرضِ إِلّا عَلَـــــى آثارِ بانينـــــا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت:

كَـأَنَّ أَهْـرامَ مِصْـرٍ حـائِطٌ نَهَضَـت   بِـــهِ يَـــدُ الـــدَهرِ لا بُنيـــانُ بانينـــا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت:

كَأَنَّهـــا وَرِمـــالًا حَولَهـــا اِلْتَطَمَـــت   سَــــفينَةٌ غَرِقَـــت إِلّا أَســـــاطينا

ذلك شوقي، وتلك آياته البينات.

٦

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي،

---

(١) الأواوين: جمع إيوان.

أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفةٌ في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورةٌ هي غرةٌ في الصور الطبيعية، أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات:

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأنّ اللهَ أنْشَأهُ ... مِسْكًا وَقَدّرَ إنْشاءَ الوَرَى طِينَا

أوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوّجهُ ... مِنْ نَاصِعِ التّبْرِ إبْداعًا وتَحْسِينَا

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ رَفاهِيّة ... تُومُ العُقُودِ وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

كانتْ لَهُ الشّمسُ ظَئرًا في أكِلّته ... بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

كأنّما أثبَتَتْ في صَحْنِ وجْنتِهِ ... زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزَيِينَا

ما ضَرّ أنْ لَمْ نَكُنْ أكْفَاءَهُ شرَفًا ... وَفي المَوَدَّة كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعَّم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في رَبوةٍ قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحْيٌ خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال المُحجب شبيهًا بما يوحيه الجمال المباح؟ إن الطبيعة قد يبدو لها أحيانًا أن تكايد الناس فتنشئ من الحسن في حي بولاق ما تغيظ به الناس في حي القصر العالي [1] . ولكنها لا تفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السوقية يظل سوقّي الشمائل والنوازع، أما الجمال الذي يتفتح في البيائت المنعمة فيظل ملحوظ المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة ملك، وربيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد، ويظل دلالها طول الحياة دلالًا سماويًّا يأخذ فيضه من قوة الطبع، لا من لؤم التمنع، وينزل

---

(١) القصر العالي. حي بالقاهرة يشارف النيل، ويسميه السخفاء جاردن سيتي.

رضاهًا على القلب نزول الظل على الريحان، وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون، إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين، وإن كان الطين أشرف من بعض ما ترى من المخلوقات، والطين تربةً يحيا بها الزهر ويتغذى منها الشوك، وفوقه تتخطر الظباء، وعليه تزحف الأفاعي والصِّلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال:

إِذَا تَأَوّدَ آدَتْـــــــــهُ رَفاهِيّـــــــــة   تُـــومُ العُقُـــودِ وَأدمتَـــهُ البُـــرَى لِينَـــا

والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غض رقيق يشبه في رقته نواظر العيون، ولفائف القلوب، وهذا الجمال منثور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة، نعمة البصر والحس والذوق، لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة أنفاس الشعراء، لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم لما استطاب شاعرٌ سهر الليل، وألم الجفون، وهل يُعني القلب في سبيل الجمال المبتذل الذي ترنو إليه جميع العيون؟ إن الجمال المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذي لا تألم من النظر إليه عينٌ رمداء، أما الجمال المنعم المصون فشبيهٌ بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتاب، هو الجمال الفرد، ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول:

مَـا ضَـرّ أنْ لَمْ نَكُـنْ أَكْفَـاءَهُ شـرَفَا   وَفِي المَـــوَدَّة كَـــافٍ مِـــنْ تَكَافِينَـــا

هذا تواضعٌ، فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفس من جوهر الحسن في وجه الجميل، وهل تعربد معاني الصباحة في الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر في قلب الشاعر، الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جيشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن

زيدون، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

٧

ثم ماذا؟ بقي أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقي، وكل صبابة في الكأس صاب، بقي أن نتوَجع لبلواه، وهو يتشوق إلى مصر فيقول:

أَرضُ الأُبُــــوَّةِ وَالمـــيلادِ طيَّبَهـــا   مَــرُّ الصِّــبا في ذُيــولٍ مِــن تَصــابينا
كانَـــت مُحَجَّلَـــةٌ فيهـــا مَواقِفُنـــا   غُـــرًّا مُسَلسَـــلَةَ المَجْـــرَى قَوافينـــا
فَـــآبَ مِـــن كُـــرَةِ الأَيّامِ لاعِبُنـــا   وَثابَ مِـــن سِـــنَةِ الأَحْـــلامِ لاهينـــا
وَلَم نَـــدَع لِلَيـــالي صـــافِيًا فَـــدَعَت   (بِأَن نَغَـــصَّ فَقـــالَ الـــدَهْرُ آمينـــا)
لَـــوِ اِســـتَطَعنا لَخُضْـــنا الجَـــوَّ صـــاعِقَةً   وَالبَـــرَّ نارَ وَغـــىً وَالبَحـــرَ غِسْـــلينا
سَـعْيًا إِلى مِصْـرَ نَقْضـي حَـقَّ ذاكِـرِنا   فيهـــا إِذا نَسِـــيَ الـــوافي وَباكينـــا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت:

فَـــآبَ مِـــن كُـــرَةِ الأَيّامِ لاعِبُنـــا   وَثابَ مِـــن سِـــنَةِ الأَحْـــلامِ لاهينـــا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت:

لَـــوِ اِســـتَطَعنا لَخُضْـــنا الجَـــوَّ صـــاعِقَةً   وَالبَـــرَّ نارَ وَغـــىً وَالبَحـــرَ غِسْـــلينا

ثم ماذا؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمّي يرحمها الله، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان:

كَنْـــزٌ بِحُلـــوانَ عِنْـــدَ اللهِ نَطلُبُـــهُ   خَـــيرَ الوَدائِـــعِ مِـــن خَـــيْرِ المُؤَدّينـــا
لَـــو غـــابَ كُـــلُّ عَزيـــزٍ عَنْـــهُ غَيْبَتَنـــا   لَم يَأتِـــهِ الشَـــوْقُ إِلّا مِـــن نَواحينـــا
إِذا حَمَلنـــا لِمِصْـــرٍ أَو لَـــهُ شَـــجَنًا   لَم نَـــدْرِ أَيُّ هَـــوى الأُمَّـــينِ شـــاجينا

طيّب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

الفصل السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه، وما أبدع الشعراء من بعض في معارضة قصائده المشهورات، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء.

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي):

ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء، بل هو محض صناعة، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور، لا بهرج سطحي زائف، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة، فأثار ذلك نفسه الشاعرة، مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين، ومعارضة كيتس لسبنسر، وقد كانت تلك المعارضة أو تجربة شعرية لكيتس، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة، وأثر وحيها في النفس.

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعرًا، وإنما تنفجر المعاني من نبع القلب، وذا كلام عرفنا صحته حين وازنًّا بين المعارضات، فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبدًا لمن يعارضه، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع، والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين وائتلاف قلبين، أو اصطدام نفسين، واقتتال عبقريتين.

فمن المعارضات التي وقعت بائتلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والخرّاز، فإن أبا نواس لما قال:

يا رِيمْ هَـــاتِ الـــدّواة والْقلمـــا | أَكْتُـــبُ شَـــوْقي إلى الَّـــذي ظَلَمـــا
مَـنْ صَـارَ لا يعْـرف الْوصـالَ وقـدْ | زاد فـــــؤادي في حُبّـــــه ونمـــــا
غَضْـــبانَ قَـــد عَـــزَّني هـــواهُ وَلَـــو | يَسْـــأَلُ مِمّـــا غَضِـــبْتَ مـــا عَلِمـــا
فَلَـــيْسَ يَنْفَـــكُّ مِنـــهُ عاشِـــقُهُ | في جَمـعْ عُـذرٍ مـنْ غَـيْرِ مـا اِجتَرَمـا
لَـــو نَظَـــرَتْ عَيْنُـــهُ إلى حَجَـــرٍ | وَلَّـــدَ فيـــهِ فُتورُهـــا سَـــقَما
أَظَـــلُّ يَقْظـــانَ في تَـــذَكُّرِهِ | حَـــتّى إذا نِمْـــتُ كـــانَ لي حُلُمـــا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخزّاز، فقال:

إنْ باح قَلْـــبي فَطالَمَـــا كتمـــا | مـــا باح حـــبي جفـــاهُ مـــنْ ظلمـــا
وَكَيْـفَ يَقَـوى علـى الجفـاء فـتًى | قـــدْ مـــات أوْ كـــاد أوْ أرادهُ ومـــا
أشْـــكُّ أنّ الهـــوَى سَـــيَقْتُلني | مِـــن غـــيْر سـيْفٍ ولا يُريـــق دمـــا
كيْـــف احْتِيـــالي لِشـــادنٍ غَـــنِجٍ | أصْـبح بعْـد الوصـال قـدْ صـرما
مـــا قُلْـــتُ لَمَّـــا عَـــلا الصُّـــدودُ بـــه: | يا ريمُ هـــات الـــدّواة والقلمـــا
لكِـنْ سَـفَحْتُ الـدُّموع مِـن حـزنٍ | لمّـــا تمـــادى الصُّـــدودُ ثُمّ نمـــا
إنَّ الرَســـولَ الَّـــذي أَتاك بمـــا | أتاك عـــنّي قـــدْ حـــرّف الكلمـــا

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم، وهي من المطمع الممتنع، وفيها ومضات من السحر المبين، وأي غزل أرق وأظرف من هذا البيت الذي يعد من أدق ما قيل في تلوّن الملاح:

غَضْـــبانَ قَـــد عَـــزَّني هـــواهُ وَلَـــو | يَسْـــأَلُ مِمّـــا غَضِـــبْتَ مـــا عَلِمـــا

وقوله في فتك العيون:

لَـــو نَظَـــرَتْ عَيْنُـــهُ إلى حَجَـــرٍ | وَلَّـــدَ فيـــهِ فُتورُهـــا سَـــقَما

وقوله في أخذ الهوى بأحلام المحب:

أَظَلُّ يَقْظانَ فِي تَذَكُّرِهِ ... حَتّى إِذا نِمتُ كانَ لي حُلُما

أما أبيان الخزّاز فهي من الشعر المقبول، وليست من الشعر الجيد، وقد ربط فيها بعض المعاني ببعض على طريقة لم تألفها الأذواق العربية، ولولا أنها قيلت في معارضة أبي نواس لما نقلها راوية، ولا حفظها كتاب.

ومن المعارضة التي جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس بن الأحنف، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة والإعجاب. والحق أن أباس نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع بينهما العزل والظرف، وصفاء الروح، بالرغم من اختلاف المذهبين، فقد كان أبو نواس متلونًا في الحب يتنقل من فنن إلى فنن، على حين كان ابن الأحنف قد وقف قلبه على هوى واحد، هو محبوبته فوز التي خلد اسمها على الزمان.

حدث حمزة الأصفهاني قال: اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف في مجلس فقام عباس لحاجة، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: هو أرقى من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد عباس وقام أبو نواس كذلك فسئل عنه عباس، وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال: إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صارا إلى النبيذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال أبو نواس:

إذا ارْتَدْت فَتى الكاسِ ... فَلا تَعْدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس:

إذا نازَعْتَ صَفْوَ الكاسِ يَوْمًا ... أخا ثِقَةٍ فمِثْلَ أبي نُواسِ

فَتىً يَشْتَدُّ حَبْلُ الودِّ مِنْهُ ... إذا ما خُلَّةٌ رَثَّت لناسِ

فتناول أبو نواس قدحًا وقال:

أبا الفَضْلِ اشْربن ذا الْكا ... سَ إنِّي شَارِبٌ كاسي

فقال العباس:

نَعَـــم يا أوْحَـــــدَ النَّــــاسِ عَلـــــى العَيْنَــــيْنِ والــــرَّاسِ

فقال أبو نواس:

فَقَـــد حَـــفَّ لَنـــا المَجْلـــسُ بالنَّسْـــــرين والآسِ

فقال العباس:

وَإخْـــــوانٍ بَهاليـــــلٍ سَـــــراةٍ ســـــادَةِ النَّـــاسِ

فقال أبو نواس:

وَخَـــــودٍ لَـــذَّةِ المَسْـــمو عِ مِثْـــلِ الغُصْـــنِ الكاســـي

فقال العباس:

وَقَـــد ألبَسَـــهَا الرَّحْـــنُ مِـــنْ أحْسَـــنِ إلبـــاسِ

فقال أبو نواس:

فَقَـــد زِينَـــتْ بإكْليـــلٍ يَواقِيـــتٍ عَلـــى الـــرَّاسِ

فقال العباس:

فَــلا تَحْـــبِسْ أخـــي كَأسًـــا فَـــإنِّي غَيْــرُ حبَّـــاسِ

قال الأصفهاني: فكأن ما نُسي من معارضتهما أكثر مما حفظ.

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبري وخليل مطران، فقد مشى يومًا صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق فقال صبري باشا: يا مطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدره مطران، وقال:

وَهَـــل يَضـــيرُ المَجْـــدَ أن أشْـــرَبا وَأجْعَـــلَ الحانَـــةَ لي مَلْعَبـــا

فطرب صبري باشا، وقال:

وأن يــــراني كُـــلُّ مَـــنْ مَـــرَّ بي   وَسْـــطَ الـــدَّياجي حـــامِلًا كَوْكَبـــا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال: كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء هذا العصر، فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب ... وقد صدق مطران!

واتفق يومًا أن لقي مسلم بن الوليد رسولًا لأبي نواس يحمل رقعة إلى عنان، وفيها هذه الأبيات:

لا تَأمَـــنِنَّ عَلَـــى سِـــرّي وَسِـــرِّكُمُ   غَـــيري وغـــيرك أوْطَـــيَّ القَـــراطيسِ

أو طَيْـــرَ فَـــيْروذَج [1] إنِّي سَـــأبْعَثُهُ   قَـدْ كـانَ صـاحبَ تَأليـفٍ وتَدْسـيسِ

وَكَـــان هَـــمَّ سُـــلَيْمانٌ لِيَذْبَحَـــهُ   لَـــولا قَيادَتُـــهُ في أَمْـــرِ بَلْقَـــيسِ

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبي نواس فأخبره بما صنع مسلم برقعته، فقال أبو نواس:

لَمْ يَقْـوَ عنْـدي عَلَـى تَخْرِيـقِ قِرْطاسـي   إلا فَـتًى قَلْبُـهُ مـن صَـخْرَةٍ قاسـي

إنَّ القَـــراطيسَ في قَلْـــبي بِمَنْزِلَـــةٍ   كَمَوضـعِ السَّـمْعِ والعَيْنَـيْنِ والـرَّاسِ

لَـولا القَـراطَيسُ مـاتَ العاشِـقونَ مَعًـا   هـــذا بِغَـــمٍّ وَهـــذاكُمْ بِوَسْـــواسِ

فَلَيْـــتَ أنَّ إِمـــامَ النَّـــاسِ سَـــلَّطَني   فَلَـــمْ أدَعْ خارِقًـــا فـــيهِمْ لِقِرْطـــاسِ

حَـتَّى أصَـبِّحَهُ مَـن حَيْـثُ مَأمَنُـهُ   كَأسًـا مِـنَ المَوْتِ لَمْ يَسْـلَمْ لَـهُ حاسـي

مـا أعْجَـبَ الحـارِقَ القِرْطـاسَ أقَـرَأهُ   يَأسًـــا فَحَرَّقَـــهُ مَـــن حَيْـــرَةِ اليـــاسِ

مـــاذا عَلَيْـــكَ إذا أَحْبَبْـــتَ كاتِبَـــهُ   مـا كـانَ في بَطْنِـهِ يا أحْمَـقَ النَّـاسِ

ألـــيسَ قَـــدْ مَشَـــقَتْ فيـــهِ أنامِلُـــهُ   وجَـــازَ أقْلامُـــهُ فيهـــا بِأنْفـــاسِ

---

(١) هو الهدهد بالفارسية.

وبلغت هذه الأبيات مسلمًا فعارضه فقال:

يا مَـنْ يَلُـومُ عَلـى تَخْرِيـقِ قِرْطـاسِ ... كَـمْ مَـرَّ مِثْلُـكَ في الـدُّنْيا عَلـى راسـي

الحَـزْمُ تَخْرِيقُـهُ إن كُنْـتَ ذا حَـذَرٍ ... وإنَّمـا الحَـزْمُ سـوءُ الظَّـنّ بِالنَّـاسِ

فَشُـقَّ قِرْطـاسَ مَـنْ تَهـوَى صـيانَتَهُ ... فَـرُبَّ مُفْتَضـحٍ في خَـطِّ قِرْطـاسِ

إذا أتَاكَ وَقَـدْ أدَّى أمانَتَـهُ ... فاجْعَـلْ كَرَامَتَـهُ في بَطْـنِ أرْمـاسِ

وشُـقَّ قِرْطـاسَ مَـنْ تَهْـوَى وكُـنْ فَطِنًـا ... كَـمْ ضُـيِّعَ السِّـرُّ في حِفْـظٍ لِقِرْطـاسِ

فأجابه أبو نواس:

مـاذا أرَدْتَ إلى تَخْرِيـقِ قِرْطاسـي ... هَل كانَ عِنْدَكَ في القِرْطاسِ مِنْ باسِ؟

سَـبَبْتَ كاتِبَـهُ مِـنْ غَـيرِ مـا سَـبَبٍ ... هَلْ كانَ فيهِ سِوَى شَكْوَى إلى ناسي؟

كَتَبْـتُ أشْـكو بِليَّـاتي فسـاءَكُمو ... مـا يَـذْكُرُ النَّـاسُ مِنْ شَـوْقٍ إلى النَّـاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة لذلك العهد، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل الغرامية كانت يومًا من المشكلات، حتى صح لمثل أبي مُحَمَّد بن حزم أن يعقد لها فصلًا في طوق الحمامة، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك الإمام الجليل.

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في هذا العصر، فأهل هذا الزمان يتصنعون الوقار، ويتكلفون الاحتشام، وتبدو منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها ملوثة بعيب أشنع من المجون، وهو الرياء.

ولكن مهلًا. من الذي يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد؟ ألسنا نرى في أيامنا هذه كيف تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد، وتثبت بها حقوق تصل أحيانًا إلى المواريث؟

إن النفس الإنسانية تظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في حيوات الناس، وأكثر من ترون من العظماء هم أطفال في عالم الحب، وقد تكون تلك الطفولة هي أساس

العظمة عند من يفقهون.

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار القلوب؟

ألم ترك كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء؟

ليس العلم كل العلم أن ترعى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف تصح، وكيف تمرض، وكيف تحس، وكيف تعقل، وكيف تحيا، وكيف تموت. ليس هذا كل العلم، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله أموال، وأنشئت من أجله معاهد وكليات. للعلم ميادين أعلى وأشرف، هي ميادين السرائر والقلوب، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء.

الفصل السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء؛ وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظيمين: روح العرب وروح الفرس، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه الشهرة الأدبية: لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الخمر، ولم يكن أهلها يومًا من كبار الشاربين، وإن زعموا أنها تفردت بشراب «المريوتيك» الذي أسكرت به كليوباترا من أسكرت من عشاقها الأبطال.

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب؛ لأن جوّها لا يصلح كثيرًا لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر، على نحو ما يتفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالًا طوالًا وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفًا رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط توارثوها عن أجدادهم، فكانوا شرّ ورثة لأقبح ميراث!

ولا كذلك العراق، فقد عرف الخمر منذ عهد الآشوريين والكلدانيين وظل يفنن في تقطيرها أظرف افتنان. وقصائد ابن الرومي في وصف العنب تدل على أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس؛ لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمر من أسرار الصهباء.

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانبًا مهمًّا في حياتها العقلية، فقد نبغت مصر نبوغًا عظيمًا في التأليف، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد الذي أنتج أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع؛ وإنما كان الأمر كذلك لأن «الصحو» من أقوى

الشواهد على سلامة العقل، أما الأقطار العربية التي عرفت الخمر، فكانت لها ميادين غير التأليف، كان لها الشعر والخيال، على نحو ما نرى في الأندلس، والشام، والعراق.

وهذا الحكم لا نريد به التعميم، فمن التعسف أن نقول: إن الشعر انعدم في مصر، أو أن التأليف انعدم في غير مصر، لا، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد منذ خلق، فلم يكن فيهم فاجر، ولا زنديق، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق.

والشاهد أمامي واضح صريح: هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع، وأبي نواس، ففي هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون.

وإليكم الحديث.

وصف أبو نواس الخمر فقال:

دَعْ عَنْـكَ لَـوْمي فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـراءُ ... ودَاوِني بالَّـتي كانَـتْ هـيَ الـدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال:

بُـدِّلْتَ مِـنْ نَفَحَـاتِ الْـوَرْدِ بِالآءِ[1] ... وَمِـنْ صَـبُوحك دَرَّ الإِبْـل والشَّـاءِ

وعارضه ابن المعتز فقال:

أمْكَنْـتُ عـاذِلَتِي مِـنْ صَـمْتِ أُبَّاءِ ... مـا زادَهُ النَّهْـيُ شَـيْئًا غَيْـرَ إغْـراءِ

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارتها الهمزية النواسية، فأغلب الظن أن أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قومًا يعرفون من الخمر ما يعرفون.

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس، ومضى الحديث إلى مكة، مكة المكرمة التي شرعت للعالم

---

(١) الآء: ثمر شجر، واحدته آءة. قال الفيروز آبادي: وأوت الأديم دبغته به، والأصل: أوت فهو مؤه، والأصل مأووء.

بغض الصهباء، نعم في مكة وجدوا فقيهًا يفصل بين همزية ابن الضحاك، وهمزية أبي نواس.

انظروا في هذا، واسألوا أنفسكم: أيمكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف؟

هيهات، هيهات!

وإنما جاز في مكة ما لم يجز في مصر؛ لأن مصر كما حدثتكم لا تعرف الخمر، وإن كان الخواجة خرالمبو فتح فيها عشرات الحانات.

مصر فضولية في شرب الشمول، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله، فلا تقول: هات وهاك!

لا تحسبوني أمزح، فالمصري لا ينقع غلته غير الماء القراح، وقد ترونه في مجالس السلاف يصرخ فجأة في طلب كوب من الماء، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب.

ما هذا؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاثة؛ لأني لا أجد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق.

ولنواجه الموضوع فنقول:

همزية أبي نواس لا تزيد على عشرة أبيات، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية في حياة العراق، تحدثنا أولًا عن قيمة الخمر في العلاج، وهي عادة عراقية، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية، فقد رووا أن الأعشى قال:

وَكَاسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعرًا فاجرًا عرف الخمر والنساء. ومشت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء.

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال:

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّوْمَ إغْراءُ ... ودَاوِنِي بالَّتي كانَتْ هيَ الدَّاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال:

تَـدَاوَيْتُ مِـنْ لَيْلَـى بِلَيْلَـى مِـنْ الهَـوَى كَمـا يَتَـداوَى شَـارِبُ الخَمْـرِ بالخَمْـرِ

والتداوي بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة «والله أعلم» كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء.

وتحدثنا الهمزية ثانيًا عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد، وتلك العادة هي إلباس الجواري ملابس الغلمان، والظاهر أن الفتنة في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكرة، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرق والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة)، التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السويس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جدًّا، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل.

وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوروبا يلبسن ملابس الفتيان، فإن لم يكن هذا بدعًا حديث العهد، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك.

وهذا بيت أبي نواس:

مِـنْ كـفٌ ذاتِ حِـرٍ في زِيِّ ذي ذَكَـرٍ لَهَـا مُحِبَّـانِ لُـوطِيٌّ وَزَنّاءُ

والدعارة واضحة في هذا البيت، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر، وناقل الفسق ليس بفاسق.

وتحدثنا الهمزية ثالثًا بأن فسقة بغداد كان عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتماد على عفو الله، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب:

لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال، والاعتداد بالأعمال ينافي أدب الأبرار، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال:

لا تَحْظُـر العَفْـوَ إن كُنْـتَ امـرَا حَرَجًـا فَـإنّ حَظْرَكَـهُ بِالـدِّينِ إِزْراءُ

تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد، فلم يبق إلا النص على ما في قصيدته من المعاني الشعرية.

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت:

صَفْراءُ لا تَنْزِلُ الأحْزانُ سَاحَتَها   لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

أما نحن فنستجيد قوله في الراح:

فأرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الإبْريق صافيَة   كَأَنَّمَا أخْذُها بِالعَيْنِ إغْفَاءُ

جَفَّتْ عَنِ الماءِ حَتَّى ما يُلائِمُها   لَطافَةً وَجَفا عَنْ شَكْلِها الماءُ

فلَوْ مَزَجْتَ بها نُوراً لَمَازَجَها   حَتَّى تَوَلَّدَ أنْوارٌ وأَضْواءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة:

كَأَنَّما أخْذُها بِالعَيْنِ إغْفَاءُ

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان.

وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس.

أما قوله:

دارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمانُ لهُمْ   فَما يُصِيبُهُمُو إلاّ بِما شاءوا

فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية الزمان، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الرح من الجاهلين، ويقول:

فقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي في العِلْمِ فَلْسَفَةً   حفِظْتَ شَيْئًا وَغابَتْ عَنْك أشْياءُ

وهي سخرية لو يجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف.

تلك همزية أبي نواس، فاذا قال الخليع الحسين بن الضحاك؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين أشواك البادية،

فقال:

بُــدِّلْتَ مِــنْ نَفَحَــاتِ الْــوَرْدِ بِالآءِ وَمِــنْ صَــبُوحك دَرَّ الإِبْــل والشَّــاءِ
مــا بَــيْنَ بَطــنِ ثَبــيرٍ إنْ حَلْلــتَ بِهــا إلى الفَـــراديس إلَا شَـــوْبُ أقْـــداءِ
فَعَــدِّ هَمَّــكَ عــنْ حِلْــفٍ تُمارِسُــهُ جِلْــفٍ تَلَقَّــعَ طِمْــرًا بَــيْنَ أحْنــاءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها في ذلك العهد مجال، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح في شمائل الأعراب، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي الفاتحة والخاتمة لكل قصيد، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة فيقول:

فَفــي غَــدٍ لَــكَ مِــنْ زَهْــراءَ صــافَيةٍ بِطَـــيْرِ ناباذَ مـــاءٌ لَّـــيْسَ كالْمـــاءِ
مِمَّــــا تَخَيَّـــــرَ أُولاهـــــا وَأَوْدَعَهـــــا ربُّ الخَوَرْنَـــقِ في جَوْفـــاءِ مَيْثـــاءِ
راحَ الفُـــراتُ عَلَيْهـــا في جَداوِلِـــهِ وَباكَرَتْهـــا سَـــحاباتٌ بِأنْـــواءِ

وقد أطال الخليع في قصيدته إطالة مملة تملنا نحن المصريين، ولكنها تمتع أمثال العراقيين. فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد، وسره أن تدفن في الأرض، وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون، فلننس ما لا نعرف من تلك العهود، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأت نور الوجود:

فُضَّــتْ خَواتمُهــا في نَعْــتِ واصِــفِها عَــنْ مِثْــلِ رَقْرَقَــةٍ في جَفْــن مَرْهــاء [١]
لَمْ يَبْــقَ مِــن شَخْصِــها إلّا تَوَهُّمُــهُ فَالشَّيءُ مِنْها إذا اسْتَثْبَتَّ كَاللَّاءِ [٢]
تُمــازِجُ الــرُّوحَ في أخْفَــى مَدَاخِلِــهِ كَمـــا تَمـــازَجُ أنْـــوارٌ بأضْـــواءِ
لا يُــدْرِكُ الحِــسُّ مِنْهــا حِــينَ تَبْعَثُهــا إلا التَّنَسُّـــمَ أو لَـــدْغًا بِأحْشـــاءِ

(١) المرهاء، هي التي أبيضت حماليق عينها.

(٢) اللاء هنا السراب.

يَحْكِي تَطَوُّقُها بِالْكَأْسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أطافَتْ بِهِ واواتُ عَسْراءِ
ثُمَّ اسْتَحالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلى الْماءِ
عَرْشٌ بِلا طُنْبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِي حُسْنِ لألاءِ
لا يَسْتَطِيعُ سَنا نور لَهَا نَظَرًا حَتَّى تَعودَ لَهُ لَحَظاتُ حَوْلاءِ
كَأَنَّ تأليفَ ما حاكَ المِزاجُ لَها سَلْخٌ تُحَلِّلُهُ عَنْ ظَهْرِ رَقْشاءِ
لا شَيْءَ أحْسَنُ مِنْها فِي تَصَرُّفِها مِنْ كفِّ مُخْتَلِجِ الأعْطافِ وَضَّاء

هذه الأبيات تخيرناها تخيرًا، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل.

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت مِثْلِ رَقْرَقَةٍ في جَفْن مَرْهاء، ولا يسرنا أن يكون الحبب ألف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء، ولكنها تستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخله ممازجة الأنوار للأضواء، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليع.

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال:

هذا النَّعيمُ ولا عَيْشٌ نَكونُ بِهِ هِنْدٌ بِرابيةٍ مِنْ بعْدِ أسْماءِ [(١)]

فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية.

بقي ابن المعتز، فماذا قال:

إن ابن المعتز جرى في همزيته مجرى الفتك فانطلق يحدث عن صبواته حديث الغويّ المفتون، ويقول:

أمْكَنْتُ عاذِلَتِي مِنْ صَمْتِ أُبَّاءِ ما زادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إغْراءِ

---

(١) أسماء اسم أمرأة أصلها وسماء من الوسامة وهي الحسن الثابت. قلبت الواو همزة فوزنها فعلاء.

أَيْـنَ التَّــوَرُّعُ مِــنْ قَلْــبٍ يَهــيمُ إِلى ... حــاناتِ قُطْرُبُّــلٍ بِالعــودِ وَالنــاءِ [(١)]

وَصَـــوْتِ فَتَّانَـــةِ التَغْريـــدِ ناظِــرَةٍ ... بِعَـــيْنِ ظَـــبْيٍ يُريـــدُ النَــومَ حَــوْراءِ

جَـرَّتْ ذُيـولَ الثِّيـابِ البـيضِ حِـينَ ... كَالشَّــــمسِ مُسْـــــبِلَةً أَذْيالَ لَألاءِ

وَقَـرْعِ ناقـوسٍ دَيْـرِيٍّ عَلَـى شَـرَفٍ ... مُسَــبِّحٍ في سَــوادِ اللَّيــلِ دَعَّــاءِ [(٢)]

وَكَــأسٍ حَبرِيَّـــةٍ شَــكَّت بِمَبْزَلِهــا ... أَحْشــاءَ مُشْــعَرَةٍ بِالقــارِ جَوْفــاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم، ولكنه ورد في معرض طريف، أما البيت الرابع فهو تحفة؛ لأنه جعل محبوبته في الثياب البيض كالشمس تسبل أذبال الألاء، وفي البيت الخامس حنين إلى النواقيس، ولكن أي حنين؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيهات، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صبابة ومجالس سلاف.

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال:

جــاءَتْ بِهــا حُفُــلُ الأَثْمــارِ يانِعَــةٌ ... بِطَــيْزِنا بَاذاوْ كُوشَـــى وســـوراءِ[(٣)]

تَرفــو الظِّــلالَ بِأَغْصــانٍ مُهَدَّلَــةٍ ... ســودِ العَناقيــدِ في خَضْــراءَ لَفَّــاءِ

أَجْـرَى الفُـراتُ إِلَيها مِـن سَلاسِـلِهِ ... نَهْـرًا تَمَشَّـى عَلَـى جَرعـاءَ مَيْثـاءِ[(٤)]

وَطـافَ بَكْلَؤُهـا مِـن كُـلِّ قاطِفَـةٍ ... راعٍ بِعَـــينٍ وَقَلْـــبٌ غَـــيرُ نَسَّـــاءِ

مُوَكَّـــلٌ بِالمَســـاحي في جَــــداوِلِها ... حَــتَّى يَــدُلَّ عَلَيْهـا حَيَّـةُ المـاءِ[(٥)]

فَـــآبَ في آبَ يَجْنيهـــا لِعاصِـــرِها ... كَــأَنَّ كَفَّيـــهِ قَـــد غُلَّـــتْ بِحَنَّـــاءِ

---

(١) الناء هو الناي.

(٢) دعاء. كثير الدعاء.

(٣) كل هذه أسماء أماكن.

(٤) الجرعاء: الرملة الطيبة المنبت، والميثاء: اللينة.

(٥) المساحي: الأراضي المهيأة للزرع.

فَظَـلَّ يَـرْكُضُ فيهـا كُـلُّ ذي أَشَـرٍ قـاسٍ عَلـى كَبِـدِ العُنْقـودِ وَطّـاءِ
ثُمَّ اِسـتَقَرَّت وَعَـينُ الشَـمْسِ تَلفَحُهـا في بَطْـنِ مَخْتومَـةٍ بِالطِّـينِ كَلْفـاءِ
حَـتّى إِذا بَـرَدَ اللَّيـلُ البَهـيمُ لَهـا وَبَلَّهـا سَـحَرٌ مِنْـهُ بِأَنْـداءِ
صَـبَّ الخَريـفُ عَلَيها مـاءَ غادِيَـةٍ أَقامَهـا فَـوقَ طـينٍ بَعْـدَ رَمْضـاءِ
تِلْكَ الَّتي إِنْ تُصادِفْ قَلْبَ ذي حَزَنٍ تُجْـزِلْ عَطِيَّتَـهُ مِـنْ كُـلِّ سَـرّاءِ
يَسْـقيكَها خَنِـثُ الأَلحـاظِ ذو هَيَـفٍ كَـأَنَّ أَجْفَانَـهُ أَفـرَقْنَ مِـن داءِ

الفصل الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

١

رأى القارئ طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهي آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب.

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلًا نبّين به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء، وأظهر أولئك الباحثين رجلان: أحدهما من رجال القرن الرابع، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر.

أما الأول: فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب «الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري»، وهو باحث عظيم فصّلت الكلام عليه تفصيلًا في الجزء الثاني من كتاب «النثر الفني [١]» فليرجع إليه القارئ إن شاء، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك.

وأما الثاني: فهو أستاذي، وصاحب الفضل عليّ: المغفور له الشيخ مُحَمَّد المهدي بك، وكان أديبًا نادر المثال، ولكن لم ينشر له شيء، وقد فصّلت آراءه الأدبية في الجزء الأول من كتاب «البدائع [٢]»، ولكن بقي مجالٌ للقول في ذلك الباحث الجليل، فإني لم أكتب عنه في «البدائع» إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس، ومذهبه في الحياة الاجتماعية، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته في هذا الكتاب؛ لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبدًا، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكراه ما يجب من الوفاء، كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب

(١) انظر الصفحات ٨٢–٩٣.

(٢) انظر الطبعة الثانية ج ١ ص ١–١٨.

والخطباء والشعراء، وكان يوازن بين العصور الأدبية.

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جدًّا، وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى [(١)]
، وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، وهو يقول:الموازنة بينهما من جهات:

الجهة الأولى: الموضوع، ونرى أن موضوع قُس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت، وتوجيه الناس إلى توحيد الله، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام، وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصح قومه في مسائل الدنيا، ونصح ذريته، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة.

الجهة الثانية: العبارة، والفرق فيها بينهما ظاهر، فإن عبارة قسّ عبارة البديهة، وإن كانت مسجوعة، فهي العبارة الصالحة للدهماء، وهي بمقام الخطبة أليق: لسهولتها، ووضوح معناها، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم.وأما عبارة أكثم فهي عبارة منتقاة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظير؛ فهي أشبه بكلام الحكماء، ولا غرو فقد كان أكثم حكيمًا محكمًا عالمًا بالأنساب، وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز أعلى، وعبارة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ، وإن شئت قلت: عبارة قس أخطب، وعبارة أكثم أحكم.

الجهة الثالثة: المعاني – والفرق بينهما جَليٌ أيضًا، فإن معاني قس عامة قليلة، نظرية، ليس فيها توليد، ولا كذلك معاني أكثم: فإنك تجدها كثيرة مفصلة في ضروب عدة، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف، وهذا شأن الخطباء: إذا أرادو تَثبيت ما يدعون إليه.

الجهة الرابعة: حال الخطيبين – فإن قسًا كان يخطب للعرب كافةً وهو راكبٌ جَمَله، ويشير بيده وبالمخصرة، ويفصل الكلام بـ (أما بعد) وينقلب في البلاد لهذا، حتى طار ذكره واشتهر في الخافقين قَدره؛ وكان من أمره أن ذكره النبي ﷺ وقرظه.وأما الثاني فقد

---

(١) عندي صورة من هذه الموازنة.

كان يخطب قومه، ويتحرى العقلاء منهم، ويقول: «لا تحضروني سفيهًا»، ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه، واستعداده – فيما أعلم – من هذه الجهة أعرق في الخطابة.

الجهة الخامسة: أن قسًا كان يقول الأشعار من روح خطبته سهلة متقَبلةً تنحفظ إذا لم يحفظ الكلام، وكان أكثم يستعين بالأمثال لحمالها وقصرها، وبالرائع من الحكمة كذلك، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدهماء، وهو أليق بمقام الخطابة، وأن الأمثال الحكيمة التي تحتاج إلى رويّة في فهمها إنما هي للخاصة، وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة، وعلى هذا يكون قس أخطب، وأكثم أحكم، وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة، مع أن كلام أكثم فيها أبلغ في نظر الحكماء، ومن يتعشقون الجزل الموجز الدقيق المعنى، الرصين المبنى.

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك، ولكنه لم يجد من الوشاهد ما يروي الغلة، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن سجية، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم، وكذلك كان لكل منهما منزع وطريق.

٢

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جدًّا، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة، والخلافة الراشدة. قال:

إذا أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك، ثم نكشف عن مكانته الثانية؛ لتتجلى صورتاه في المكانتين، ويعرف شأنه في الزمانين، فنقول:

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراض والأحساب والذود عن البَيْضة، فكما يغير الفارس برمحه وحسامه، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده، فإذا فت السيف في الأعضاء، فتّ الشعر في القلوب، وإذا أصاب النبال بنبله الجسوم، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيل الأعداء، وتحميس الأولياء، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه مائلًا فيها لم يتزحزح عنها.

فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره: أين حسان بن ثابت؟ فقال حسان: لَبّيك يا رسول الله وسَعْديك. قال: أحْد، فجعل ينشد ويُصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده، فقال ﷺ: لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل.

وقد كان حسان ينافح عنه، ويشجع قومه، ويخذل عدوه.

وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي ﷺ منبرًا في مسجده ينشد عليه الشعر.

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَة الذي شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها إلا الفتح، ومات في غزوة مؤتة، فقد كان النبي ﷺ يرتجز بعض رجزه في تلك الغزوة، وهو قوله حينما أصيبت إصبعه:

هَـــلْ أنْـــتِ إلّا إصْـــبَعٌ دِمِيـــتِ وَفِي سَـــــبِيلِ اللهِ مَـــــا لَقِيـــــتَ

يَا نَفْــــس إنْ لَا تُقْتَلِـــي تَمُـــوتِي هَـذِي حِيَـاض الْمَـوْت قَـدْ صَـلِيت

وَمَـــا تَمَنَّيْـــت فَقَـــدْ لَقِيـــتِ إنْ تَفْعَلِـــي فِعْلهمَـــا هُـــدِيت [(١)]

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري، الذي كان يعارض ابن الزِّبَعْرى من شعراء المشركين، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين، ومنه قوله في قصيد طويل ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق:

وَمَـــوَاعظٍ مِـــنْ رَبِّنَـــا نَهْـــدي بِهَـــا بِلِســـانِ أزْهَـــرَ طِيِّـــبِ الأَثْـــوابِ

عُرِضَـــتْ عَلَيْنـــا فَاشْـــتَهَيْنا ذكْرَهَـــا مِـنْ بَعْـد مـا عُرِضَـتْ عَلَـى الأحْـزابِ

حكَمًـــا يَرَاهَـــا الْمُجْرِمـــونَ بِـــزَعْمِهِمْ حَرَجًـــا وَيَفْهَمُهـــا أولـــو الألْبـــابِ

جـــاءَتْ سَـــخينَةً كَـــيْ تُغالِـــبَ رَبَّهـــا وَلَيُغْلَـــبَنَّ مُغَالِـــبُ الغَـــلَّابِ

مراده بسخينة قريش؛ لأنها كانت تأكلها، وهي حساء من دقيق، والأمثلة من هذا

(١) يريد صاحبيه اللذين استشهدا قبله، وهما: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب.

النوع مستفيضة.

فإذا نظرنا إليه من ناحية أنه كان يجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيرًا من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الهل، وكثر في كلامهم ذكر الجنة وما أعدّ الله لعباده من النعيم المقيم، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ بها رسول الله ﷺ فإنه أعطى كعب بن زهير بردته حينما جاءه تائبًا بعد أن هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي، يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلّاء عنه وتأميله العفو:

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ: ... لا أُلهِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ

فَقُلتُ خَلّوا سَبيلي لا أَبا لَكُمُو ... فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ

أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني ... وَالعَفُوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ

مَهلًا هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَرَّتيلُ

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فيَّ الأقاويل

وكذلك حبا قُرة بن هُبيرة وكساه بُردين وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء، فقال يذكر ذلك في قصيدة طويلة ويمدحه:

حَبَاها رَسولُ الله إذْ نَزَلَتْ بِه ... وأمْكَنَهَا مِنْ نائلٍ غَيْر مُفْنَد

فَماَ حَمَلْت من ناقَةٍ فَوقَ رَحْلها ... أبَرَّ وَأوْفى ذمَّةً مِنْ مُحمَّدِ

وأكْسَى لبُرد الحالِ قَبلْ ابْتذاله ... وأعْطَى لرأس السّابح المتجرّد (١)

فإن قال قائل: إن هذا العطاء للتألف لا للشعر، قلنا له: ومن التألف أن يعطى

(١) هو الحصان.

الشاعر وهو ما نريد في مقالنا هذا.

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنثور، ويبالغون في إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن، وإن كثيرًا منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه من هز أنفسهم إلى الكرم، والدلالة على محاسن الشيم، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في أسلوب ساحر، إلى غير ذلك، فإنا نجده في الإسلام لم ينزل كثيرًا عن هذه المنزلة، ولم يغض منه أن النبي ﷺ ما عُلم الشعر وما ينبغي له إلا بمقدار ما تقضي أميته من الكتابة، فكما لا يقول قائل بفضيلة الأمية للناس؛ لأن الرسول كان أميًّا، لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر؛ لأن الرسول لم يعلمه؛ ولهذا أكثر الحض على تعلمه واستماعه وروايته على شريطة أن يكون في الحث على فضيلة، أو ذم رذيلة، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول له:مُرْ مَنْ قبلك يتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

ولقد كانت عائشة ﵂ كثيرة الرواية للشعر، وكان مما ترويه جميع شعر لبيد.

وقد روى الحسن بن رشيق القيرواني أن أعرابيًّا وقف على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال عليّ: خطّ حاجتك في الأرض، فإني أرى النصر عليك. فكتب الأعرابي على الأرض: إني فقير، فقال عليّ: يا قنبر: ادفع له حلّتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا فَسَوْف أَكْسوكَ منْ حُسْن الثَّنا حُللا

إنَّ الثَّنَاءَ لَيُحْيِي ذِكْرَ صاحِبِه كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْل والجَبلا

لا تَزْهَد الدَّهْرَ في عُرْفٍ بدأتَ بِه فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذي فَعَلا

فقال عليّ: يا قنبر أعطه خمسين دينارًا، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك.

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره، لما وجده في شعره من شكر النعمة، وتمحيض النصيحة، والترغيب في الآجل.

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوي الكريم.

ولى من بني عبد المطلب رجالًا ونساء من لم يقل الشعر حاشا رسول الله، وناهيك بالعباس فقد كان شاعرًا مجيدًا وله شعر مأثور معدود في الطبقة العالية، من ذلك قوله يوم حنين:

أَلا هَـلْ أَتَـى عِرْسِـي مَكَـرِّي وَمَـوْقِفي ... بِـــوادي حُنَـــيْنٍ وَالأَسِـــنَّةُ تُشْـــرَعُ

وَقَولي إِذا ما النَفسُ جاشَت لَها قَدي ... وَهــامٌ تَدَهْــدَى وَالسَّــواعِدُ تُقْطَــعُ

وَكَيــفَ رَدَدتُ الخَيْــلَ وَهــيَ مُغــيرَةٌ ... بِــزَوْراءَ تُعْطــي بِاليَــدَينْ وَتَمْنَــعُ (١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجلة من الصحابة والتابعين.

وكانوا يتغنون به ولهم في ذلك أخبار طويلة، فمن ذلك ما رواه السائب بن يزيد: بينما نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف: غنّنا، فقال له عمر بن الخطاب: فإن كنت آخذًا فعليك بشعر ضرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة، فارس مغوار، وشاعر مفلق مقدم على ابن الزبعرى فهو أشعر قريش) ومن شعره:

يَا نَــبِيَّ الْهُــدَى إِلَيْــكَ لجَــا حَيْــ ... ــرَى قُــرَيْشٍ وَلاتَ حِــينَ لجَــاءِ

حِــينَ ضَــاقَتْ عَلَــيْهِمْ سَــعَةُ الأَرْ ... ضِ وَعَــــادَاهُمُ إِلَـــــهُ السَّــــمَاءِ

وَالْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانُ (٢) عَلَى الْقَوْ ... مِ وَنُــودُوا بِالصَّــيْلَمِ الصَّــلْعَاءِ (٣)

أَنَّ سَــعْدًا يُرِيــدُ قَاصِــمَةَ الظَّهْــ ... ـرِ بِأَهْـــلِ الْحُجُـــونِ وَالْبَطْحَـــاءِ

فَانْهَيَنْــــهُ فَإِنَّــــهُ أَسَـــــدُ الأُسْـــ ... ـدِ لَــدَى الْغَــابِ وَالِــغٌ فِي الــدِّمَاءِ

---

(١) لعلها تعطي السهام، وتمنع العدو.

(٢) البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوغ الأمر شدته.

(٣) أي الداهية الشديدة.

أَنَّـــهُ مُطْـــرِقٌ يُـــدِيرُ لَنَـــا الأَمْـــ ـــرَ سُـــكُوتًا كَالْحَيَّـــةِ الصَّـــمَّاءِ [(١)]

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله ﷺ على قومه وأراد بسعد: سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده. فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع في حقن الدماء، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث.

وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثرًا منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية.

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله ﷺ وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم: بنو كعب فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي ﷺ وأنشده بين يديه:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِـــــدٌ مُحَمَّـــــدا حِلْـــفَ أَبِينَـــا وَأَبِيـــهِ الْأَتْلَـــدَا [(٢)]

نَحْـــنُ وَلَـــدْنَاهُمْ فَكَـــانُوا وَلَـــدَا ثُمَّـــتَ أَسْـــلَمْنَا فَلَـــمْ نَنْـــزِعْ يَـــدَا

إنّ قُرَيْشًـــا أَخْلَفُـــوك الْمَوْعِـــدَا وَنَقَضُـــوا مِيثَاقَـــك الْمُوَكَّـــدَا

وَنَصَـــبُوا لِي فِيـــكَ دَاءً رُصَّـــدَا وبَيَّتُـــونَا بِالْـــوَتِيرِ هُجَّـــدًا

وَقَتَلُـــونَا رُكَّعًـــا وَسُـــجّدَا وَزَعَمُـــوا أَنْ لَسْـــتُ أَدْعُـــو أَحَـــدَا

وَهُـــمْ أَذَلّ وَأَقَـــلّ عَـــدَدَا فَانْصُـــرْ هَـــدَاكَ اللهُ نَصْـــرًا أَبَـــدَا

وَادْعُ عِبَـــادَ اللهِ يَأْتُـــوا مَـــدَدَا فِـــيهِمْ رَسُـــولُ اللهِ قَـــدْ تَجَـــرّدَا

إنْ سِـيمَ خَسْـفًا وَجْهُـهُ تَرَبّـدَا [(٣)] فِي فَيْلَـقٍ كَـالْبَحْرِ يَجْـرِي مُزْبِـدًا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ وخرج بمن معه لنصرهم. فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم

(١) أي التي لا تقبل الرقية.

(٢) الأتلد: صفة للحلف، ومعناه القديم.

(٣) تربد: تغير.

الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثرًا صالحًا، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهجّائين عقابًا صارمًا، حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله، ويظاهرون أعداءهم عليهم، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالحطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة، وكان من استرحامه قوله:

مَــاذَا تَقُــولُ لِأَفْــرَاخٍ بِــذي مَــرَخٍ زُغْــبِ الحَواصــلِ لا مَــاءٌ ولا شَــجَرُ
أَلْقَيْــتَ كَاسِــبَهُمْ فِي قَعْــرِ مُظْلِمَــةٍ فــاغْفِرْ عَلَيْــكَ سَــلامُ اللهِ يا عُمَــرُ

ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أنزه منه قبله، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة.

فأما النظر من حيث جودة السبك وغزارة المعنى، وتشخيصه، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين؛ لأن العصر الثاني غزر معناه بالكتاب والسنة، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصًا منهم الشعراء العشاق، وشعراء الحكم والأمثال. فأما من جهة المتانة، وصفاء العربية، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين.

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصًا الموضوعات الدينية. هذا، ولا يفوتنا أن نبين أن ناسًا تنسكوا وزهدوا في الشعر، وزهدوا فيه الناس، أخذًا بظاهر ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. وبما ورد من الأخبار في ذم الشعر، ولم يفطنوا أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدى لا بنثر ولا بنظم، وقد تغالى بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان ينقض الوضوء، فكان ابن عباس وابن سيرين ينهيان الناس عن ذلك، وقد قيل لسعيد بن المسيب: إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكًا أعجميًّا، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني آمية.

وملخص الفوارق:

- أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية.
- أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية؛ لأن الكتاب زاحمه.
- أنه في الإسلام أنزه منه في الجاهلية.
- أنه في الإسلام أعلى من جهة غزارة المادة، وتشخيص المعنى.
- أنه في الإسلام أوسع موضوعًا.
- أنه في الإسلام دون الجاهلية في المتانة.
- أنه في الإسلام دون الجاهلية في صفاء العربية.
- أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية.
- فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر.

وهذه الفروق كلها متقاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المتذوق لكلام العرب.

هذا وقد لاحظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدي أولعوا بالموازنات الشعرية، فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثًا في الموازنة بين أبي تمام وشوقي، وهي نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم. والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي، ومن الذين يستظهرون أكثر نوادره الأدبية، وقد حضرته منذ أشهر وهو يلقي محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشاراته ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدي، وإن لم يفطن لذلك. والأستاذ العظيم هو الذي يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان.

الفهرس